بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الحاج لخضر
- باتنة -

كلية الآداب و العلوم الإنسانية
قسم التاريخ و علم الآثار

التحالف الأوربي ضد الجزائر عام 1541 و تأثيراته الإقليمية و الدولية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر

إعداد الطالب :
صالح حيمر

إشراف الأستاذ :
الدكتور علي آجقو

لجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د.يوسف مناصرية	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	رئيسا
د.علي آجقو	أستاذ محاضر	جامعة بسكرة	مشرفا و مقررا
د.صالح فركوس	أستاذ محاضر	جامعة قالمة	عضوا مناقشا
د.أحمد صغيري	أستاذ محاضر	جامعة قسنطينة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية : 2006 - 2007 م

الإهداء

إلى روح أمي ....

إلى أبي الكريم وكل إخوتي

أهدي هذا العمل المتواضع.

شكر و تقدير

أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من مد لي يد المساعدة على إنجاز هذا العمل و أخص بالذكر أستاذي المشرف الدكتور علي آجقو الذي لم يبخل علي بوقته و توجيهاته الثمينة ،وله الفضل في تذليل الكثير من الصعاب التي واجهتني خلال مختلف مراحل البحث .

المختصرات المستعملة

د.ت. : دون تاريخ
م.ت.م. : المجلة التاريخية المغربية
د.م.ج. : ديوان المطبوعات الجامعية.
S.D. : Sans date
Imp. : Imprimerie
P.E.A. : Premier état Algérien
P.U.F. : Presse universitaire de France
C.N.V.A. : Conseil des notables de la ville d 'Alger
R.A. : Revue Africaine
E.N.A.L. : Entreprise nationale du livre

المقدمة

التعريف بالموضوع و أهميته:

يمثل التحالف الأوربي ضد الجزائر عام 1541، والذي قاده الإمبراطور شارلكان حدثا هاما على الصعيد الدولي، نظرا لما كان له من تأثير على الوضع السياسي بمنطقـة البحر الأبيض المتوسط بكاملها.

غير أن هذا الحدث الهام ما زال يكتنفه الغموض من عـدة جوانـب، ذلـك لأن المؤرخين لم يعطوا هذه القضية حقها من الدراسة والبحث، فـالمؤرخون الفرنـسيون و الإسبان على الخصوص لم يتخذوا موقفا مشرفا ونزيها إزاء هذا الموضـوع، فمؤرخـو شارلكان قد تناولوا حملة إمبراطورهم على تونس عام1535، فأطنبوا ومدحوا لأن العملية كللت بالنجاح، في حين أهملوا الحديث عن تحالف1541 ضد الجزائر لأنه مني بالفـشل، حيث اكتفوا بالإشارة فقط.

أما المصادر الإسلامية حول هذا الموضوع فهي قليلة جدا ومختصرة وتفتقر للدقة والتحليل كما ينقصها الاعتدال في الإحصاء وضبط التواريخ.

وبناء على ذلك وشعورا مني بأهمية هذا الحدث ومدى تأثيره على مستقبل الدولـة الجزائرية خاصة، فقد تناولته في موضوع بعنوان: **التحالف الأوربي ضد الجزائـر عـام 1541 وتأثيراته الإقليمية والدولية.**

سبب اختيار الموضوع :

يعود سبب اختياري لهذا الموضوع إلى رغبتي في البحث في تاريخ الجزائر خلال القرن السادس عشر، وهي فترة حساسة، شهدت ميلاد الدولة الجزائرية الأولى(P.E.A.)، ومما دفعني إلى هذا الموضوع كذلك هي قلة الدراسات الجزائرية الأكاديمية حـول هـذا التحالف الأوربي، بالإضافة إلى أهمية هذا الموضوع الذي يمكننا من إلقاء الضوء علـى فترة تاريخية حرجة في تاريخ الدولة الجزائرية الأولى.

الهدف من البحث:

إن هدفي من هذا البحث هو وضع التحالف الأوربي ضد الجزائر سنة 1541 في مساره التاريخي الصحيح، وإبراز تأثيراته الإقليمية والدولية، و الكشف عـن الجوانـب

الخفية لهذا الحدث الهام، و إظهار روح المقاومة التي يتمتع بها الـشعب الجزائـري، و المكانة الدولية التي صارت تتبوؤها الدولة الجزائرية في منطقة البحر الأبيض المتوسط .

منهج البحث:

وقد اعتمدت في معالجة هذا الموضوع على المنهج التحليلـي النقـدي لمختلـف المصادر الإسلامية منها و الغربية، ثم المقارنة بين هذه المصادر، محاولا في كل مـرة، تحليل الأسباب و استخلاص النتائج.

إشكالية البحث:

و قد عالجت هذا الموضوع انطلاقا من الإشكال التالي :

- هل ما حدث سنة 1541 ضد الجزائر كان مجرد حملة عابرة كما يراه بعـض الدارسين، وخاصة الأوربيين منهم، أم أن الحادث أبعد من ذلك بكثير؟

- هل كانت هذه الحملة إسبانية كما يراها البعض، أم أنها كانت تحالفا أوربيا ضد الجزائر؟

- كيف استطاع شارلكان أن يجر معه الدول الأوربية في هذه الحملة؟

- ما هي الدوافع الحقيقية لهذا التحالف؟

- هل يمكن فهم هذه القضية بمعزل عن الأحداث الدولية بمنطقة البحر الأبـيض المتوسط خلال القرن السادس عشر، وخاصة في ظل إشتداد الصراع الدولي بين الإسلام الممثل في الدولة العثمانية، والمسيحية الممثلة في إسبانيا؟

- ما مدى تأثير هذا التحالف على مستقبل الدولة الجزائرية، وما هـي تأثيراتـه الإقليمية والدولية؟.

خطة البحث:

وقد تناولت هذا الموضوع وفق الخطة التالية:

الفصل الأول : الأوضاع الدولية بمنطقة البحر الأبيض المتوسط خلال النصف الأول من القرن السادس عشر وظهور الدولة الجزائرية الأولى، تناولت فيه التوسع العثمـاني فـي منطقة المشرق العربي، ثم في الحوض الغربي للبحر المتوسط، كما أبرزت كيفية تطور إسباني من دولة ناشئة إلى إمبراطورية موحدة للمـسيحيين، وحللـت دوافـع الحمـلات

الإسبانية على المغرب الإسلامي، ثم جهود الإخوة بربروس التي كللت بقيام الدولة الجزائرية الأولى، وتحالف هذه الأخيرة مع الخلافة العثمانية، وهذا ما أدى إلى إشتداد الصراع الإسلامي- المسيحي في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

الفصل الثاني : أفردته للحديث عن التحالف الأوربي ضد الجزائر عام 1541، تحدثت فيه عن دوافع هذا التحالف والأطراف المشاركة فيه، و الإستعدادات من الجانبين، ثم تتبعت التطورات العسكرية لهذه المواجهة، والتي إنتهت بهزيمة قوات التحالف الأوربي وانسحابها، وما ترتب عن ذلك من خسائر في صفوف التحالف، ومغانم الجزائريين، وأنهيت هذا الفصل بتحليل أسباب إنكسار هذا التحالف من وجهة نظر كل من الأوربيين والمسلمين.

الفصل الثالث : تناولت فيه التأثيرات الإقليمية والدولية لإنتصار الجزائر على قوات التحالف الأوربي عام 1541، أبرزت فيه آثار هذا النصر على مستقبل الدولة الجزائرية، وخاصة توحيد جميع أراضي المغرب الأوسط تحت راية الدولة الجزائرية وتقويض الوجود الإسباني بها، أما على المستوى الإقليمي فقد أبرزت دور الجزائر في تحطيم المشروع الإستعماري الإسباني في العدوة المغاربية، وذلك من خلال مساهمتها في تحرير كل من طرابلس وتونس و انضمامهما للخلافة العثمانية، أما على المستوى الدولي فقد تحدثت عن بروز الجزائر كقوة دولية مؤثرة في أحداث البحر الأبيض المتوسط، وأثر ذلك في إضعاف القوة الإسبانية متوسطيا، وذلك من خلال الدور الذي صارت تلعبه البحرية الجزائرية بالبحر المتوسط، فقد وجد فرانسوا الأول في البحرية العثمانية، المتحالفة مع نظيرتها الجزائرية، قوة حليفة ضد الخطر الإسباني الذي كان يهدد فرنسا. كما أبرزت دور الجزائر في مختلف المواجهات الإسلامية – المسيحية بمنطقة البحر الأبيض المتوسط، فتحدثت عن مساهمتها الفعالة في حرب مالطة سنة 1565، ثم في مساندة ثورة الموريسكيين سنة1568، وأنهيت هذا الفصل بالحديث عن دور البحرية الجزائرية في معركة ليبانت 1571.

استنتاج عام : ضمّنته أبرز النتائج التي خلصت إليها من خلال هذه الدراسة.

عرض و نقد لأهم مصادر البحث:

لإنجاز هذا البحث اعتمدت على عدة مصادر يمكن تصنيفها كالتالي :

1- المخطوطات :

- مخطوط « المحكمة»، لمؤلف مجهول، و هو موجود بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم 1624، كما توجد نسخة منه في ذيل « الغزوات ». و يعد هذا المخطوط من أهم المصادر الإسلامية التي تناولت تفاصيل التحالف الأوربي ضد الجزائر سنة 1541.
- مخطوط « الزهرة النيرة في ما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة »، لمحمد بن عبد الرحمان التلمساني، الذي عاش في القرن الثامن عشر ميلادي، و يوجد هذا المخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم 1626، و هـو يتنـاول تـاريخ المغرب الأوسط منذ ظهور الإخوة بربروس إلى غاية انتصار الجزائر على قـوات التحالف الأوربي سنة 1541. و يبدو أن صاحبه قد أخذ عن مخطوط « الغزوات ».

2- الكتب و المجلات:

أ- باللغة العربية :

- غزوات عروج و خير الدين، لمؤلف مجهول ، صححه و علق عليه نور الدين عبد القادر. و يعد أهم مصدر في تاريخ دخول الإخوة بربروس إلى المغرب الأوسط ، و قد استفدت منه كثيرا خاصة في تناول جهود هؤلاء الإخوة في تأسيس الدولة الجزائريـة الأولى(P.E.A.)، و كذلك في تناولي لتفاصيل التحالف الأوربـي ضـد الجزائـر سـنة 1541.غير أن هذا الكتاب يغلب عليه طابع السرد، كما ينقصه الاعتدال فـي الإحـصاء و ضبط التواريخ .و مع ذلك يبقى مرجعا هاما لدراسة تاريخ نـشأة الدولـة الجزائريـة الأولى.

- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا، للمرحوم أحمد توفيق المـدني، و هو يغطي كل الفترة المدروسة، و في تقديرنا فهو كتاب يستحق التنويه به، لأنـه تنـاول

تاريخ الصراع الجزائري – الإسباني من وجهة نظر جزائرية. غير أن افتقار هذا المرجع للتهميش، حال دون الاستفادة المثلى منه.

- المجلة التاريخية المغربية:نشرت هذه المجلة، في أعداد مختلفة، عدة مقالات هامة لها علاقة بموضوع البحث، و قد استعنت ببعضها.

ب- باللغة الفرنسية:

- تاريخ ملوك الجزائر (Histoire Des Rois d'Alger)**،** الذي ألفه الراهب دييقو دي هايدو ، الذي كان أسيرا في مدينة الجزائر بـين (1578 – 1581) . و يعـد مصدرا هاما في تاريخ الجزائر خلال القرن السادس عشر ، و هو يتناول تاريخ الحكـام الثلاثين الأوائل الذين تداولوا على حكم الجزائر ، بداية بعروج بربروس . غير أنه يبدو على مؤلفه حقده على العثمانيين و تقليله من شأن الجزائريين .

- تاريخ الجزائر تحت السيطرة العثمانية (1515 – 1530) و عنوانه الأصـلي (Histoire d'Alger sous la Domination Turque) ، الــذي ألفــه دي غرامــون (De Grammont) و هو يتناول تاريخ الجزائر منذ مطلع القرن السادس عشر إلى غاية سقوطها في قبضة الاحتلال الفرنسي. و من خلال العنوان يمكن اكتشاف سـلبيات هـذا الكتاب، فهو يصور الوجود العثماني في الجزائر بمثابة سيطرة أجنبية ، و هذا ما يجـافي الحقائق التاريخية. و رغم موضوعيته مقارنة بمـؤرخين أوربيـين آخـرين، إلا أن دي غرامون لم ينصف حكام الجزائر، بل ذهب إلى حد التشكيك في سمعتهم، مثـل اتهامـه لحسن آغا بالخيانة.

- المجلة الإفريقية (REVUE AFRICAINE) : تولت هذه المجلة نشر العديد من الوثائق الموجودة بأرشيف سيمانكاس (SIMANCAS)، لها علاقـة مباشـرة بموضـوع البحث و قد استفدت من الكثير منها، و خاصة الوثائق الموجودة في العـددين 19 و 20، لسنتي 1875 و 1877، على التوالي.

صعوبات البحث:

ومن الصعوبات التي واجهتني في إنجاز هذا البحث، ضيق الوقت، حيـث تعـذر علي جمع مادة خبرية كافية للإحاطة بالموضوع من كل جوانبه في وقت قصير، خاصـة أمام قلة المصادر والمراجع التي تناولت الموضوع، فضلا عن صعوبة الحصول عليهـا في المكتبات.

الفصل الأول

الأوضاع الدولية بمنطقة البحر الأبيض المتوسط خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، و ظهور الدولة الجزائرية الأولى.

المبحث الأول: الدولة العثمانية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر.

1- التوسع العثماني في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.
2- التوسع العثماني في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.
3- التحالف العثماني - الفرنسي.

المبحث الثاني: إسبانيا و أطماعها التوسعية.

1- إسبانيا من دولة ناشئة إلى إمبراطورية موحدة للمسيحيين.
2- دوافع الحملات التوسعية الإسبانية على سواحل المغرب الإسلامي.

أ – الدوافع الدينية.
ب- الدوافع السياسية و الاقتصادية.
ج - الدوافع العسكرية.

المبحث الثالث: الوضع السياسي في منطقة المغرب الإسلامي و ظهور الدولة الجزائرية الأولى .

1- المغرب الإسلامي في مطلع القرن السادس عشر.
2- ظهور الدولة الجزائرية الأولى.

أ – جهود الإخوة بربا روس.
ب– انضمام الجزائر للخلافة العثمانية.
ج- تحرير قلعة البنيون من الوجود الإسباني سنة 1529.

المبحث الرابع: تنامي قوة الجزائر و اشتداد الصراع الإسلامي – المسيحي (1530 - 1540)

1- الحملة الإسبانية على شرشال سنة 1531 و فشلها.
2- خير الدين يتولى قيادة الأسطول العثماني.
3- تونس بين خير الدين و شارلكان 1534-1535.
4- معركة بريفيزا 1538.

يكتسي البحر الأبيض المتوسط أهمية حضارية و استراتيجية، فقد ترعرعت على ضفافه حضارات راقية، كما كان، و لا يزال يمثل حلقة وصل بين مختلف أنحاء العالم و شعوبه، و هذا ما جعله ميدانا للصراع الدولي عبر مختلف العصور.

إن الهدف من هذا الفصل هو الإطلاع على الأوضاع الدولية بمنطقة البحر الأبيض المتوسط خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، و ذلك لمعرفة القوى السياسية الكبرى التي كانت تتصارع على المنطقة، و الإحاطة بالظروف الدولية التي ظهرت فيها الدولة الجزائرية الأولى.

المبحث الأول: الدولة العثمانية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر

1- التوسع العثماني في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

كانت الدولة العثمانية في مطلع القرن السادس عشر تتكون من قسم كبير من آسيا الغربية و جزء من أوروبا الشرقية، و لم يصل نفوذها بعد إلى إفريقيا، و لا إلى البحر الأبيض المتوسط، باستثناء قسم صغير من بحر إيجة، و كان على رأس الدولة العثمانية في هذه الفترة، السلطان بايزيد الثاني الذي تولى الحكم عام 1481 م، إلى غاية 1512، خلفا للسلطان محمد الفاتح[1] .

و في مطلع القرن السادس عشر، كان الحوض الشرقي للبحر المتوسط محل صراع بين الدولة العثمانية المسلمة، و الدول الأوربية المسيحية، و في مقدمتها الدولة البندقية، و الدولة الأسبانية، و منظمة فرسان القديس يوحنا ، الذين كانوا يتمركزون بجزيرة رودس.

كان السلطان بايزيد مسالما بطبعه[2] ، فلم يعمل على توسيع رقعة الدولة العثمانية شرقا أو غربا، بل انصرف إلى سياسة التعمير، كإصلاح الطرق و الجسور، و إقامة

---

[1]- هو محمد الثاني الملقب بالفاتح، ولد سنة 1429 م حكم ثلاثين سنة (1451 – 1481)، و هو الذي فتح القسطنطينية عام 1453 م.

[2] - محمد أنيس، **الدولة العثمانية و الشرق العربي (1514 – 1914)**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.، ص. 60.

البنايات الفخمة، و يعد المسجد الذي أقامه في استانبول، و الذي يحمل اسمه أهم إنجازاته العمرانية[3].

و في الأيام الأخيرة من حكم بايزيد، نشب النزاع بين أبنائه على العرش، و هو لا يزال على قيد الحياة، و انتهى ذلك الصراع بانتصار سليم، الابن الأصغر على أخيه أحمد، و ذلك بدعم من الإنكشارية، الذين أرغموا والده على التنازل عن العرش، و رشحوا سليما، باعتباره منقذ الإمبراطورية من الخطر الشيعي، خاصة بعد أن سبق له و أن قاد الإنكشارية في عدة حملات ناجحة في جورجيا، و في الأراضي الصفوية الواقعة في شرقي الأناضول[4].

عندما تولى السلطان سليم الأول الحكم منذ 1512، كانت الدولة العثمانية، ما تزال دولة أناضولية بلقانية، فعمل على مواصلة سياسة جده محمد الفاتح القائمة على الفتوحات، و إقامة إمبراطورية عالمية[5]. لذلك عرفت الاستراتيجية العثمانية في عهد السلطان سليم الأول تحولا بارزا، تمثل في توقف الزحف العثماني نحو الغرب الأوربي، أو كاد أن يتوقف، و اتجهت الدولة العثمانية اتجاها شرقيا، نحو المشرق الإسلامي.

لقد تباينت آراء المؤرخين بشأن اتجاه الإستراتيجية العثمانية نحو المشرق، و يمكن حصر هذه الآراء فيما يلي:

1- الفريق الأول و على رأسه المؤرخ توينبي، يرجع هذا التوجه العثماني إلى ظهور قوة الصفويين، في عهد الشاه إسماعيل الصفوي[6]، الذي سعى لبسط المذهب الشيعي في العراق و آسيا الصغرى، و هذا ما دفع بالدولة العثمانية إلى الخروج إلى الشرق العربي لحماية آسيا الصغرى خاصة و العالم السني عامة[7].

---

[3]- محمد أنيس، المرجع السابق،ص. 60.

[4]- أحمد عبد الرحيم مصطفى، **في أصول التاريخ العثماني**، الطبعة الثانية، دار الشروق، القاهرة ، 1993، ص 79.

[5]- المرجع نفسه.

[6]- حكم إيران بين (1500 – 1524)، و هو يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية.

[7]- عمر عبد العزيز، **تاريخ المشرق العربي (1516 – 1922)**، دار المعرفة الجامعية، الإسـكندرية، 1996، ص. 88.

2- أما الفريق الثاني من المؤرخين، فيرى بأن خروج العثمانيين إلى هذه المناطق كان هدفه حماية الشرق الأدنى الإسلامي من الخطر البرتغالي[8]. فقد كان للوجود البرتغالي في البحار الشرقية[9]، تأثير كبير من الناحية الإستراتيجية على المنطقة بصفة عامة، و على البحر الأحمر و الخليج العربي بصفة خاصة، و قد كانت الدولة المملوكية من أكثر الدول الإسلامية تأثرا بهذا الوضع، إذ سبب لها متاعب سياسية و اقتصادية، مما جعلها عاجزة عن صد الخطر البرتغالي على الموانئ الإسلامية بالبحار الشرقية، بعد اكتشاف راس الرجاء الصالح، و تحويل طرق التجارة العالمية إلى هذا الطريق، بالإضافة إلى تهديد البرتغاليين للبقاع المقدسة، فبعد فشل سياسة الدعم التي سلكها العثمانيون تجاه المماليك، من خلال المساعدات التي قدموها لهم من معدات عسكرية و فنية من أجل مقاومة الغزو البرتغالي[10]. بات من الضروري على الدولة العثمانية أن تتحرك للدفاع عن أقاليم المشرق الإسلامي، باعتبارها أقوى الممالك الإسلامية آنذاك.

و يبدو أن العثمانيين قد أدركوا بأنه لا يتأتى لهم ذلك إلا من خلال توحيد الأقاليم الإسلامية، و ضمها لسلطة الدولة العثمانية، ثم القيام بعمل عسكري حاسم، لإيقاف الزحف البرتغالي، و تحقيق الأمن للأقاليم الإسلامية في المشرق.

3- أما الفريق الثالث ، فيرجع التوجه العثماني نحو المشرق إلى كون الدولة العثمانية قد بلغت درجة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر ، فكان عليها في أوائل القرن السادس عشر البحث عن ميادين جديدة للنشاط و التوسع[11].

و مهما يكن من أمر، فلا مانع من القول بأن هذه الدوافع جميعها، كانت مسؤولة، مسؤولية مشتركة عن اتجاه المد العثماني نحو المشرق.

---

(8)- محمد أنيس، المرجع السابق، ص 103.

(9)- للتوسع في هذا الموضوع أنظر: رابح أولاد ضياف، الوجود البرتغالي في البحار الشرقية و أثـره علـى الـبلاد الإسلامية خلال القرن السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة الأمير عبد القادر للعلـوم الإسلامية، السنة الجامعية 2001-2002.

(10)- أرسل العثمانيون للمماليك في جانفي 1511، أربعمائة مدفع، و أربعين قنطار من البـارود، لاسـتعمالها ضـد البرتغاليين، أنظر : أمين الطبي، " **المواجهة العثمانية البرتغالية في البحر الأحمر في النصف الأول من القرن السادس عشر**"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد الأول و الثاني،جانفي 1990،تونس،ص. 167.

(11)- علي محمد الصلابي، **الدولة العثمانية، عوامل النهوض و أسباب السقوط**، الطبعة الثانية، دار التوزيع و النـشر الإسلامية، القاهرة، ، 2004 ، ص 176.

كان السلطان سليم الأول يرى أن الدولة الشيعية في فارس، تشكل خطرا كبيرا، ليس على الدولة العثمانية فقط، بل على العالم الإسلامي كله، لذلك قرر مهاجمة تبريز عاصمة الصفويين في أوت 1514، و كان يوما مصيريا في تاريخ الدولة العثمانية حيث: « لم تكن الدولة قد تهددت حتى ذلك اليوم بخطر خارجي على هذه الدرجة عدا تيمور»[12]. فكانت المواجهة الحاسمة في معركة جالديران في 23 أوت 1514، و التي انتصر فيها سليم بفضل أسلحته النارية المتطورة ، و تمكن الشاه إسماعيل من النجاة بصعوبة، و بذلك دخل السلطان سليم مدينة :تبريز يوم 06 سبتمبر 1514[13].

كان من نتائج جالديران تأمين العثمانيين لحدودهم الشرقية باستيلائهم على شمال العراق، و ديار بكر، و جزء من أذربيجان[14]. بعد ذلك توجهت أنظار العثمانيين نحو دولة المماليك .

فبعد انتصاره على الصفويين، عزم السلطان سليم على القضاء على دولة المماليك، ذلك لأن سلطانها قانصوه الغوري قد تحالف مع الشاه إسماعيل لمحاربة الدولة العثمانية، و التي[15]. فكانت المواجهة بين الجيش العثماني و جيش المماليك في معركة مرج دابق انتهت بانتصار العثمانيين بفضل استعمالهم للمدافع، و قتل الغوري يوم الأحد 24 أوت 1516، بعدها أحتل السلطان سليم حمص، حماة و دمشق بسهولة، و دعي له في المساجد[16].

و من الشام أرسل السلطان سليم إلى زعيم المماليك بمصر، طومان باي – الذي أنتخبه المماليك خلفا للسلطان الغوري-، يعرض عليه الصلح بشرط الاعتراف بسيادة الباب العالي على القطر المصري، لكن طومان رفض ذلك، و هنا قرر السلطان سليم محاربته، فكانت المواجهة الحاسمة في معركة الريدانية، حيث انتصر العثمانيون انتصارا

---

(12)- يلماز أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة عدنان محمود سلمان،الطبعة الأولى، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988، ص. 216.

(13)-المرجع نفسه، ص. 218.

(14)- عبد العزيز سليمان نوار، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.، ص. 69.

(15)- تقع شمال غرب حلب.

(16) - محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق إحسان حقي، الطبعة التاسعة، دار النفائس، بيروت، 2003، ص ص. 192-193.

ساحقا على المماليك، أسفر عن سقوط الدولة المملوكية، بعد ما تم إلقاء القبض على طومان باي، ثم شنقه بأمر من السلطان سليم و ذلك يوم 13 أفريل 1517 [17]، و بذلك دخلت مصر تحت السيادة العثمانية.

و مما جعل فتح مصر يكتسي أهمية تاريخية، هو تنازل محمد المتوكل على ا ، آخر الخلفاء العباسيين عن حقه في الخلافة الإسلامية للسلطان سليم، و سلّمه الآثار النبوية الشريفة، و هي البيرق، السيف، و البردة، و سلّمه أيضا مفاتيح الحرمين الشريفين [18].

و بخضوع مصر للعثمانيين، خضعت الحجاز تلقائيا لأنها كانت تتبع مصر تبعية تلقائية كذلك [19]. و بذلك دخلت الحجاز في نطاق السيادة العثمانية دخولا سلميا، و كان من نتائج ذلك ظهور العثمانيين في البحر الأحمر، و محاولتهم السيطرة عليه و إبعاد الخطر البرتغالي عنه [20].

و من الحجاز امتد النفوذ العثماني نحو اليمن ، حيث أرسل السلطان سليم أمره إلى الأمير إسكندر الشركسي يعرض عليه الاعتراف بالسيادة العثمانية على اليمن، و ضرب السكة باسم السلطان العثماني، مقابل اعتراف العثمانيين به كأمير عل اليمن ،فقبل إسكندر الشركسي هذا العرض [21]. و هكذا دخلت اليمن تحت السيادة العثمانية ، بطريقة سلمية.

حقق العثمانيون ببسط نفوذهم على الحجاز و اليمن مكاسب استراتيجية ، مكنتهم من الدفاع عن الأماكن المقدسة في الحجاز، و السيطرة على البحر الأحمر و الخليج العربي، و تطويق الصفويين في الجنوب، الشيء الذي أكسبهم مكانة مرموقة لدى العالم الإسلامي ، باعتبارهم القوة الإسلامية الوحيدة آنذاك القادرة على الوقوف في وجه الاعتداءات المسيحية الأوربية، و هذا ما سهل من امتداد النفوذ العثماني إلى شمال إفريقيا ، كما سيأتي توضيحه.

---

[17]- محمد فريد بك، المرجع السابق، ص. 193.
[18]- المرجع نفسه، ص. 194.
[19]- ترجع تلك التبعية إلى فترات سابقة، عندما قبل أشراف مكة ذكر اسم السلطان المملوكي في الخطبة، و نقش اسمه على السكة، و لم يتعد النفوذ المملوكي ذلك.
[20]- محمد أنيس، المرجع السابق، ص. 130.
[21]-عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص. 98.

هذه أبرز التطورات التي عرفها القسم الجنوبي من الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، أما القسم الشمالي منه، فيمكن القول بأن الدولة العثمانية، لم تتوسع فيه كثيرا خلال القرن السادس عشر، و اهتمت أكثر بالناحية الشرقية، و اكتفت بموقف دفاعي أكثر منه هجومي، و من أهم الإنجازات العثمانية بالقسم الأوربي خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، الاستيلاء على جزيرة رودس سنة 1522، و طرد فرسان القديس يوحنا[22] منها: «لأنهم ما برحوا منذ أيام الحروب الصليبية منتصبين بمثابة رأس الحربة المسيحية في أقصى الشرق ضد آسيا و الإسلام »[23]، حيث كانوا يعترضون طريق الحجاج المسلمين الأتراك إلى الحجاز ، فضلا عن اعتداءاتهم على خطوط المواصلات، البحرية العثمانية، لذاك قرر السلطان سليمان القانوني فتح جزيرة رودس سنة 1522، و كان قد فتح مدينة بلغراد سنة 1521، بعد أن كانت أقوى قلعة للمجر في الحدود التركية.

و في منتصف عام 1522، ضرب العثمانيون حصارا شديدا على جزيرة رودس، اضطر على إثرها القائد الأكبر للفرسان آنذاك و هو فيليبي دي ليسل أدام (Villiers de Lisle Adam) إلى الاستسلام في 21 ديسمبر 1522، و قد منح السلطان سليمان القانوني للفرسان حرية الانسحاب مع الاحتفاظ بالشرف الحربي[24].

و في 25 أفريل 1526 خرج السلطان سليمان القانوني على رأس قوة عسكرية كبيرة لمحاربة المجر، و بعد فتحه لعدة قلاع مهمة على نهر الدانوب، وصل إلى وادي موهاكس (Mohacs)، حيث دارت معركة حاسمة بين الطرفين، انتصر فيها الجيش العثماني، و قضي على معظم الجيش المجري، كما قتل الملك الشاب لويس الثاني، و كان

---

(22)- يعتبر فرسان القديس يوحنا من بقايا الحروب الصليبية ،تأسست هذه المنظمة سنة 1099 م، من طرف أحد الفرسان الفرنسيين، و كانت مهمتها في البداية علاج الحجاج المسيحيين في بيت المقدس، و سرعان ما أخذت تهتم بحماية الطرق التي يسلكها هؤلاء الحجاج إليه، و هكذا تحول هؤلاء الفرسان من رهبان إلى عسكريين، و شاركوا في جميع الحروب الصليبية، و في عام 1309 م التجأوا إلى جزيرة رودس بعد أن تم طردهم من فلسطين، و أخذوا هذه الجزيرة من الأتراك و جعلوها مقرا جديدا لهم، و حاولوا منها حماية ما تبقى من المسيحية في المنطقة الشرقية.

(23)- هربرت فيشر، **أصول التاريخ الأوربي الحديث، من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية**، ترجمة زينب عصمت راشد،عبد الرحمان مصطفى، أحمد عزت عبد الكريم،الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر ، 1970، ص. 90.

(24)- كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، الجزء الثالث ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت،1961، ص. 66.

) إلى إرسال مفاتيح Budeذلك في 28 أوت 1526، لذلك اضطر سكان العاصمة بود (المدينة للسلطان سليمان، فدخلها يوم 10 سبتمبر 1526 .[25]

لذا يمكن القول بأنه بعد خروج فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس، صار الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، حوضا عثمانيا، رغم وجود دولة البندقية، ذات الأسطول القوي ، لأن هذه الأخيرة كانت قد وقعت معاهدة سلم مع استانبول سنة 1521. و لعل شعور العثمانيين بقوتهم في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، هو الذي ساعدهم على توسيع نفوذهم إلى الحوض الغربي كما سنرى .

2- التوسع العثماني في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط:

بسقوط غرناطة عام 1492، و برغبة الانتقام من المسلمين، أخذت إسبانيا في مطاردة بقايا المسلمين بالأندلس، حيث سلطت عليهم شتى أنواع التعذيب و الإهانة، مجبرة إياهم على الاختيار بين التنصر أو مغادرة البلاد، فاضطر الكثير منهم إلى التخلي عن ديارهم، و الهجرة نحو سواحل المغرب الإسلامي على وجه الخصوص.

لم تكتف إسبانيا بطرد المسلمين من ديارهم، بل راحت تلاحقهم في المغرب الإسلامي (الذي يسميه الغربيون شمال إفريقيا)، قصد منعهم من التفكير في العودة إلى وطنهم السليب، لذا قامت بشن عدة حملات عسكرية على سواحل بلاد المغرب الإسلامي، لعب فيها رجال الدين دورا هاما، الشيء الذي جعل هذه الحملات تكتسي طابع الحروب الصليبية، رغم أنها كانت لأغراض دينية و استراتيجية و اقتصادية معا.

و تنفيذا لمشروعها التوسعي الاستعماري في المغرب الإسلامي، احتلت إسبانيا المرسى الكبير سنة 1505، و وهران سنة 1509، و بجاية سنة 1510، كما أرغمت كل من مستغانم، تنس،الجزائر[26] و دلس على دفع الضرائب، كما احتلت طرابلس سنة [27]،

---

[25]- محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص. 214.

[26]- سافر وفد عن مدينة الجزائر إلى إسبانيا، حيث اضطر إلى توقيع معاهدة مع الملك فرديناند في 31 جـانفي 1510، تضمنت الاعتراف بالتبعية لإسبانيا، و دفع ضريبة سنوية لمدة 10 سنوات و إطلاق سراح الأسرى المسيحيين، بالإضافة إلى التنازل عن الجزر المقابلة لمدينة الجزائر، حيث شيد بها الإسبان حصنا منيعا (حصن البنيون).

[27]- يحي بوعزيز، **علاقات الجزائر الخارجية مع دول و ممالك أوربـا (1500 – 1830)**، د.م.ج.، الجزائـر،1985، ص. 12.

1510. و هكذا عملت إسبانيا على احتلال مختلف موانئ المغرب الأوسط ، و المغرب الأدنى، و كذلك فعلت البرتغال بسواحل المغرب الأقصى[28] .

و كانت خطة الإسبان بعد احتلال هذه المدن تقضي بتعميرها و جعلها مدنا مسيحية[29] أمام . لأنه بغير هذه الطريقة يصعب على الإسبان الاحتفاظ بهذه المستعمرات الخطر المحدق بها من طرف المسلمين.

و من الطرق العجيبة التي اتبعها الإسبان لتعمير هذه المستعمرات، أنه إذا ارتكب شخص جريمة قتل في إسبانيا ، فإنه بامكانه أن يكفر عن ذنبه بالموافقة على العمل في أحد المراكز الإسبانية في المغرب الإسلامي، و لمدة شهرين بدون مرتب[30] ، و بذلك يكون قد نال جزاءه.

غير أن مقاومة سكان المغرب الإسلامي للوجود الإسباني، خاصة بعد ازدياد حقدهم على إسبانيا بسبب الاضطهاد الذي مارسته ضد مسلمي الأندلس، قد جعل هذه المراكز الإسبانية تعيش في حالة عزلة تامة عن الأرض الإفريقية، لدرجة أنها كانت تمون بالخبز و اللحم، و حتى الماء في غالب الأحيان عن طريق البحر[31] ، الشيء الذي اضطر إسبانيا إلى الاكتفاء بسياسة « الاحتواء »[32] ، بدل الاحتلال، أي محاولة التصدي لخطر البحارة المغاربة من خلال احتلال الموانئ التي يمكن لهم القيام بعمليات منها.

لذلك يمكن القول بأنه في مطلع القرن السادس عشر، كان الوضع بالحوض الغربي للبحر المتوسط يختلف كليا عن الوضع في الحوض الشرقي، إذ في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية المسلمة تتقدم شمالا في الحوض الشرقي، كانت إسبانيا المسيحية تتقدم جنوبا في الغرب، و كان الصراع على أشده على حدود الجبهتين في الشرق و الغرب معا.

---

[28]- عقدت إسبانيا و البرتغال سنة 1509 معاهدة في مدينة فيلا فرانكا بايطاليا، تقضي بأن يكون المغـرب الأقـصى للبرتغال، و المغرب الأوسط و المغرب الأدنى (تونس) للإسبان.

[29]- ÉLIE DE LA PRIMAUDAIE, " **Documents inédits sur l'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique (1506 – 1574)"**, R. A., tome 19, année, 1875, P. 70.

[30]-Ibid., P. 67.

[31]-جون ب. وولف، **الجزائر و أوروبا (1500 – 1830)**، ترجمة أبو القاسم سعد ا ، المؤسسة الوطنيـة للفنـون المطبعية، الجزائر، 1986، ص. 27.

[32]-المرجع نفسه، ص. 26.

ما كادت إسبانيا تثبت أقدامها بسواحل المغرب الإسلامي، حتى ظهر على مسرح الأحداث، الإخوة بربروس، الذين سيكون لهم دور هام في توجيه سير الأحداث بمنطقة البحر المتوسط، و قد سطع نجم هؤلاء الإخوة من خلال الجهد الذي بذلوه من أجل إنقاذ المسلمين الفارين من الاضطهاد الإسباني، و بروزهم كقوة مضادة للقرصنة الأوربية في البحر المتوسط[33]. بداية من سنة 1512 ذاعت شهرة الأخوين عروج و خير الدين، و أخذ الناس يتحدثون عن انتصاراتهما ضد القراصنة الإسبان في عرض البحر المتوسط، و قد تولى الأخوان مواجهة القراصنة الأوربيين انطلاقا من جزيرة جربة، حلق الوادي، جيجل، و هذه الانتصارات هي التي جعلت سكان مدينة بجاية، ثم مدينة الجزائر، يطلبون نجدة الإخوة بربروس ضد الإسبان، و قد لبوا النداء و تمكنوا من استخلاص مدينة الجزائر و الاستقرار بها بداية من سنة 1516 [34].

و من مدينة الجزائر انطلق عروج نحو الغرب لطرد الأسبان من مختلف المناطق التي كانوا يحتلونها، غير أنه استشهد في إحدى المعارك بضواحي تلمسان سنة 1518، فخلفه أخوه خير الدين، غير أن هذا الأخير قد وجد نفسه في وضعية حرجة، الشيء الذي جعله يلجأ إلى عرض التبعية على السلطان العثماني سليم الأول، الذي لم يتردد في قبولها، لتصبح بذلك الجزائر تابعة للخلافة العثمانية، كما سيأتي توضيحه. ففي سنة 1518 عينت الدولة العثمانية خير الدين في منصب بايلر باي على الجزائر، و زودته بألفي إنكشاري و بعض الأسلحة و العتاد[35]. و منذ ذلك التاريخ امتد النفوذ العثماني إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط. لتبدأ بذلك المواجهة بين الدولة العثمانية و الدولة الإسبانية بشأن السيطرة على هذه المنطقة، ليستمر الصراع بينهما طيلة القرن السادس عشر تقريبا.

و قد اشتدت المواجهات بين الطرفين ، خاصة حول المراكز التي احتلتها إسبانيا بالمغرب الأوسط، و هي وهران، مستغانم، بجاية، و حصن البنيون بمدينة الجزائر، ليمتد

---

(33)- عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر**، منذ البداية و لغاية 1962، الطبعة الأولى، دار الغـرب الإسـلامي، بيروت، 1997، ص. 53.

(34)- يحي بوعزيز، **الموجز في تاريخ الجزائر**، الجزء الثاني، د.م.ج.، الجزائر، 1999، ص. ص. 255 – 257.

(35)- LEON GALIBERT, **L'Algérie ancienne et moderne**, Paris, 1844, P. 174.

بعد ذلك إلى تونس، التي صارت هي الأخرى محل صراع منذ عام 1534، إلى أن تمكن العثمانيون من تحريرها نهائيا عام 1574.

3- التحالف العثماني – الفرنسي:

أوج قوتها، الشيء [36]بلغت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني
الذي جعلها عنصرا أساسيا في التوازن السياسي بأوربا، و في الوقت الذي اشتد فيه
من جهة، و [37]الصراع بين السلطان سليمان القانوني و الإمبراطور الإسباني شارلكان
بين هذا الأخير و الملك الفرنسي فرانسوا الأول من جهة أخرى، و من منطلق « عدو
العدو صديق » عمل الملك الفرنسي على اكتساب صداقة العثمانيين، حتى يستغل قوتهم
في مواجهة خصمه اللدود شارلكان، خاصة و أن أملاك هذا الأخير قد أصبحت تحيط
بفرنسا من جميع الجهات عدا جهة البحر، لذلك سعى فرانسوا الأول إلى عقد تحالف مع
السلطان سليمان القانوني، قصد إضعاف قوة شارلكان، و ذلك بأن تحاربه الدولة العثمانية
من جهة المجر و النمسا، و تشغله عن جيوش فرنسا من جهة الغرب، و بهذا يتمكن
.في [38]فرانسوا الأول من الانتقام من خصمه شارلكان الذي أخذه أسيرا في واقعة بافيا
سنة 1531، أرسل الملك فرانسوا الأول سفيره إلى السلطان سليمان القانوني، الذي استقبله
. و في سنة 1534 و بهدف تمتين علاقاته بالدولة العثمانية، طلب [39]بحفاوة ببلغراد

---

[36]-من اشهر السلاطين العثمانيين، و لد في مدينة طرابزون في 27 افريل 1495، تولى الحكم سنة 1520 خلفا لأبيه السلطان سليم الأول، بقي على رأس الدولة العثمانية إلى غاية وفاته سنة 1566، يعد من أبرز شخصيات القرن السادس عشر.

[37]-هو شارل الخامس (Charles - Quint) ولد بمدينة غاند يوم 24 فيفري 1500، و هو ابن فيليب الجميل و جان المجنونة، جديه من أبيه هما ماكسمليان ملك النمسا و ماري ملكة برغونيا، و جديه من أمه الملكين الكاثوليكيين فرديناند و إيزابيلا، أصبح ملكا على اسبانيا سنة 1516، اثر وفاة جده فرديناند، و بعد وفاة جده ماكسمليان سنة 1519 أنتخـب إمبراطورا على الدولة الرومانية المقدسة باسم شارل الخامس، عرف بتعصبه الديني، و هو الذي تـولى قيـادة قـوات التحالف الأوربي التي انكسرت أمام الجزائر سنة 1541، فأثر ذلك على مستقبله السياسي، حيث تنازل عـن عرشـي اسبانيا لإبنه فيليب الثاني، و عن ألمانيا و ما يتبعها لأخيه فرديناند، و اعتزل في دير يوست سنة 1555، إلى أن تـوفي في 1558/09/21.

[38]- محمد فريد بك، المرجع السابق، ص. 209.

[39]- يحي بوعزيز، علاقات الجزائر ...، المرجع السابق، ص. 42.

الملك فرانسوا الأول من السلطان سليمان أن يقبل بتعيين سفير فرنسي لدى الباب العالي، وجاء غزو شارلكان لتونس سنة 1535 فرصة سانحة للملك فرانسوا الأول ليعلن الحرب على شارلكان، و لتعويض ضعف أسطوله البحري، بدأ في المفاوضات مع العثمانيين، و التي انتهت بتوقيع معاهدة الامتيازات في شهر فيفري 1536 [40]. والتي لعب السفير الفرنسي لافوريست (La Forest) دورا هاما في حيثياتها. تتكون المعاهدة من ستة عشرا بندا [41]، مكنت فرنسا من الحصول على امتيازات بضمان الحريات الدينية و المدنية للرعايا الفرنسيين، مع ما تبعها من امتيازات تجارية و سياسية، لكن الذي يعنينا هنا هي تلك البنود التي لها علاقة بالصراع الدولي في منطقة البحر الأبيض المتوسط، و منها البند الذي يتعلق بالمجال العسكري، و الذي نص على السماح للأسطول العثماني باستعمال موانئ فرنسا و خاصة طولون و مرسيليا.

و في بند مكمل للمعاهدة تمت المصادقة عليه في شهر ديسمبر 1536، يتعهد السلطان بمهاجمة نابولي في الوقت الذي يهاجم فيه الملك الفرنسي ميلانو [42]، و أثناء ذلك يتعاون الأسطولان، أما العثمانيون فقد قاموا باستعدادات راقبها السلطان سليمان شخصيا، رفقة خير الدين، حيث شهدت استانبول و أدرنة نشاطا حثيثا للتعجيل بتنظيم القوات البرية و البحرية [43]، الشيء الذي يثبت إلتزام السلطان بتعهداته.

و عندما وجه اللوم لفرانسوا الأول – الملك المسيحي – على تحالفه مع المسلمين، أجاب بأن مصلحة الدولة تتطلب ذلك، و أضاف :« عندما تأتي الذئاب لمهاجمة قطعاني، يكون من حقي أن أنادي للكلاب و استنجد به » [44]. لكن يبدو أن هذا الجواب يحمل الكثير من السخرية و الإستهتار، و السؤال المطروح: هل يمكن أن يصدر ذلك عن فرانسوا الأول، و هو في أمس الحاجة إلى الدعم العثماني في حربه ضد شارلكان؟ ثم هل

---

(40)- محمد فريد بك، المرجع السابق، ص. 223.

(41)- للإطلاع على النص الكامل للمعاهدة أنظر محمد فريد بك، المرجع السابق، ص ص. 224 – 229.

(42) -HENRI GARROT, **Histoire général de l'Algérie**, livre XI, Période Turque, imp. P. Crescenzo, Alger, 1910, P. 402.

(43)- أندري كلو، **سليمان القانوني**، ترجمة البشير بن سلامة، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، 1991، ص.222.

(44)- « Quand les Loups viennent fondre sur mon troupeau, j'ai bien le droit d'appeler le chien à son secours ». voir : Garrot, op. cit. P. 402.

وصل هذا الجواب إلى علم المسؤولين العثمانيين و ماذا كان موقفهم من ذلك؟ إنها أسئلة تبقى مطروحة في انتظار وجود الوثائق التاريخية الكفيلة بالإجابة عنها.

أما شارلكان فقد حاول إفشال هذا التحالف بأن عرض على السلطان سليمان، بواسطة إبراهيم باشا أن يقتسما النفوذ فيما بينهما في كل عالم البحر المتوسط، لكن السلطان فضل التحالف مع فرانسوا الأول، و هذا بفضل دسائس السفراء الفرنسيين الذين كانت لهم الحظوة لدى الباب العالي ، فلم يبق أمام شارلكان سوى التشهير بهذا الأخير، و وصفه بالمرتد[45] .

لقد ترتبت عن التحالف العثماني – الفرنسي نتائج هامة، ليس على مستوى الدولتين فحسب، بل على منطقة البحر الأبيض المتوسط عامة.

فمن نتائج هذا التحالف على الدولة العثمانية، اتجاه الاستراتيجية العثمانية إلى الغرب في اتجاهين: برا عبر المجر إلى وسط أوربا، و بحرا عبر البحر الأبيض المتوسط، حيث اتخذ العثمانيون من الجزائر بالحوض الغربي للبحر المتوسط أهم قاعدة لنشاطهم الرامي إلى مواجهة شارلكان و مشاريعه الإستعمارية.

أما فرنسا فقد حققت من خلال هذا التحالف مكاسب اقتصادية، سياسية و عسكرية، فالأسطول العثماني في غربي البحر المتوسط كان يحمي جناح فرنسا الجنوبي ضد أي هجوم يشنه أعداؤها، و هذا ما مكنها من تركيز قوتها في الشمال و تأمين حدودها القومية[46] .

أما إسبانيا فقد ازدادت متاعبها بسبب التحالف العثماني الفرنسي، حيث أن العثمانيين تمكنوا بفضل ذلك من الإقدام على غزو ايطاليا، بعد ما كانوا متخوفين من رد فعل أوربي بزعامة البابا و الإمبراطور، و لا شك بأن محاولتهم انتزاع مواقع هامة على طول ساحل بحر الأدرياتيك و جزيرة كورفو من البنادقة عي عامي 1537،1538 كانت

---

[45]- GARROT, op. cit., P. 402.

[46]- أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص. 94.

تستهدف التمهيد لغزو ايطاليا، و قد تلقوا مساعدات من الفرنسيين في حصار كورفو[47] .

كما عرقل فرنسوا الأول محاولات الإسبان في الاستيلاء على شمال إفريقيا، لأن تحالفه مع السلطان سليمان قد سبب متاعب لإسبانيا، و هذا ما تؤكده رسالة الكونت دالكوديت حاكم وهران، للإمبراطور شارلكان التي وجهها له في أوت عام 1536، و التي جاء فيها : « إن لم تستطع جلالتكم القيام كما ينبغي بالحرب الصليبية المقدسة التي كانت شهرتها على الكفار [يعني المسلمين] فكان السبب في ذلك ملك فرنسا، فإننا نتألم لذلك لأننا نعلم أننا كنا نعمل هذه السنة أمورا عظيمة بإفريقيا »[48].

من خلال ما سبق يمكن القول بأن الحوض الغربي للبحر المتوسط ، خلال القرن السادس عشر كانت تتقاسمه الدولة العثمانية و إسبانيا، و كل واحدة منهما تتبعها دول أخرى في المنطقة ، فالدولة العثمانية كسبت تحالف الجزائر و فرنسا، أما إسبانيا فكانت تتبعها الدويلات الإيطالية مثل جنوة، نابولي و البابوية، كما استفادت من تبعية و خضوع الدولتين الحفصية و الزيانية إلى غاية سقوطهما.

---

(47)- المرجع نفسه، ص.96.

(48)- « Si Votre Majesté n'a pu mener à bonne fin la sainte croisade qu'elle avait entreprise contre les infidèles, c'est le roi de France qui en a été cause, nous sommes très affligés de cela, car nous savons qu'on aurait pu, cette année faire de grandes choses en Afrique ». voir: PRIMAUDAIE, Documents …, "**Lettre du comte d'Alcaudète à sa majesté, Oran, 12 août 1536**", R.A., tome 21, année 1877, P. 204.

المبحث الثاني: إسبانيا و أطماعها التوسعية في المغرب الإسلامي

1- إسبانيا من دولة ناشئة إلى إمبراطورية موحدة للمسيحيين.

عرفت إسبانيا خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر تطورات هامة كان لها تأثير كبير على مستقبل إسبانيا خاصة، و على أوربا عامة، بل امتد أثرها ليشمل منطقة شمال إفريقيا كذلك.

فقد أدى زواج فرديناند ملك أراغون بإيزابيلا ملكة قشتالة، سنة 1469 إلى توحيد المملكتين و ظهور إسبانيا الموحدة[49]، رغم اختلاف التوجهات السياسية لكل من أراغون و قشتالة، حيث كانت أراغون بحكم امتلاكها لجزر البليار، صقلية و سردينية، و وجود أحد أفرادها على رأس مملكة نابولي، تتجه نحو البحر المتوسط، أما قشتالة فبحكم موقعها الجغرافي كانت تتجه نحو الأطلسي، و بحكم دورها في الصراع مع المسلمين كانت تهتم بما يجري في المغرب الإسلامي،[50].غير أن هذا التباين في التوجهات السياسية لم يمنع من ظهور سياسة إسبانية موحدة يوجهها فرديناند الذي نجح في إثارة اهتمام قشتالة بمسائل القارة و شبه الجزيرة الإيطالية.

و قد اتخذت هذه الوحدة السياسية التي عرفتها شبه الجزيرة الإيبيرية صبغة دينية كاثوليكية، قوامها التحالف المتين بين الكنيسة و الملك، و خاصة في عهد الملوك الكاثوليك[51].و هذا ما أدى إلى إثارة عداوة مستمرة مع المسلمين في الأندلس، و مع سكان المغرب الإسلامي كما سنرى.

كان أول عمل يعكس هذه السياسة الإسبانية ذات النزعة الكاثوليكية، هو الاستيلاء على غرناطة، آخر معقل للمسلمين بالأندلس، و ذلك في مطلع عام 1492.

بسقوط دولة المسلمين بالأندلس، أصبحت الدولة الإسبانية على مقربة من البلاد الإسلامية في شمال إفريقيا، و أصبح مضيق جبل طارق غير كاف كحدود بين دولة

---

(49)- FERNAND BRAUDEL , **La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II** , tome II, 2 eme édition , Librairie Armand Colin , Paris , 1966 , P. 19.

(50)- محمد خير فارس، **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي**، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1969، ص. 14.

(51)- الملوك الكاثوليك :إيزابيلا ملكة قشتالة (1451 – 1504) و فرديناند الخامس ملك أراغون (1452 – 1516) يعرفان بالكاثوليكيين، تزوجا عام 1469، و بزواجهما توحدت إسبانيا.

مسيحية فتية قوية في الشمال، و دول مسلمة ضعيفة مشتتة متناحرة في الجنوب، لذا أخذت إسبانيا و هي تعيش نشوة الانتصار على المسلمين تعمل على توسيع حدودها إلـى مـا وراء البحر و ملاحقة المسلمين في شمال إفريقيا، و امتلاك قواعد جديدة هناك لتنطلق منها نحو الداخل للقضاء على أي محاولة يمكن أن يقوم بها هؤلاء المسلمون لاسـترجاع دولتهم في إسبانيا.

و هكذا انطلقت إسبانيا في تنفيذ مشروعها التوسعي الهادف إلى احتلال المنـاطق الاستراتيجية الساحلية لإفريقيا الشمالية، فاحتلت مليلة عام 1497، و ذلـك بعـد توقيـع معاهدة تورد سيلاس 1494، التي تضمنت تقاسم النفوذ بين إسبانيا و البرتغال في سواحل المغرب الإسلامي[52].

و في مطلع القرن السادس عشر كثفت إسبانيا نشاطها الاستعماري فـي المغـرب الإسلامي، فاحتلت المرسى الكبير بسهولة[53]، سنة 1505، لأنه لم يكن محميا، و قد كان يعد« من أحسن و أوسع و أهدأ ميناء من موانئ العالم »[54]، ثم احتلـت وهـران سـنة 1509، و باحتلالها لهذين المركزين يمكن لإسبانيا مراقبة سواحل المتوسط الممتدة من الجزائر إلى جبل طارق.

توالت الحملات الإسبانية بعد ذلك ، حيـث اسـتولى بيـدرو نافـارو (Pedro Navaro)[55]، على بجاية سنة 1510، ثم على الصخرة المقابلة لمدينة الجزائـر، كمـا احتل طرابلس في نفس السنة.و بوفاة الملك فرديناند الكاثوليكي في مطلع سنة 1516، آل العرش الإسباني إلى حفيده شارل، و قد ورث هذا الأخير، عـن جدتـه لأمـه إيـزابيلا الكاثوليكية، قشتالة و المناطق التابعة لها، كما ورث عن جده لأمـه، فردينانـد عـرش أراغون، أما عن جدته لأبيه ماري دي بورغون فقد ورث الفلاندر، و بوفاة جـده لأبيـه

---

(52)- هربرت فيشر، المرجع السابق، ص. 78.

(53)- احتلال المرسى الكبير بالسهولة التي لم يكن يتوقعها الإسبان، شجعهم على المضي في احتلال مناطق أخرى.

(54) -عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، **دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر**، الطباعة الشعبية للجـيش، الجزائـر، 1972، ص. 47.

(55)- لعب هذا الأميرال دورا هاما في احتلال الاسبان لشواطئ الجزائر، تونس و طرابلس. كان بحارا مغامرا، ولد في بسكاي، جلبه فرديناند و رقاه إلى رتبة النبلاء و استعمله لاحتلال السواحل المغربية، و كان أول حاكم لوهران، و ابتداء من سنة 1515 انتقل إلى خدمة الملك الفرنسي فرانسوا الأول.

ماكسمليان الأول[56]، سنة 1519 ورث عرش النمسا[57]، و ترشح لخلافته على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة. و قد لقي شارل منافسة حادة على هذا المنصب من طرف الملك الفرنسي فرانسوا الأول، الذي وجد عرشه محاصرا بممتلكات الملك شارل. لكن الناخبين (Les électeurs) [58]، الألمان، و اثر اجتماعهم في فرانكفورت في 05 جويلية 1519، فضلوا انتخاب شارل، لأنه ينحدر من أصل ألماني[59]، كما كان خطر المسلمين على الحدود البحرية للإمبراطورية من عوامل هذا الاختيار، حيث رأى الناخبون أن شارل هو الأقدر على درء هذا الخطر[60]. و بهذا صار شارل يحكم إمبراطورية مترامية الأطراف تحت اسم الإمبراطور شارل الخامس (CHARLES - QUINT).

لقد تلقى شارلكان تربية و تعليما مطبوعين بطابع الولاء الديني، و هذه الحمية الدينية المتأصلة فيه هي التي كانت تبلور سياسته، لذلك نجده يتبع نفس السياسة التقليدية للملوك الكاثوليك، و يرث عنهما تلك المسؤولية التاريخية الشاقة ، و المتمثلة في إقامة السلم بين المسيحيين و إعلان الحرب على المسلمين، الشيء الذي جعل أحد المؤرخين يقول أن : « شارلكان ولد صليبيا »[61].

كان شارلكان يتفاعل مع الأحداث حسب القناعات المتجذرة في أعماق كيانه، و التي اكتسبها من أصله و تربيته و تقاليد أجداده، و خاصة جده ماكسمليان الذي غذى في روحه و قلبه نزعة النضال ضد الكفار[62]، (المسلمين). لذلك كانت استراتيجية شارلكان تقوم على وحدة العالم المسيحي، و بحكم منصبه الإمبراطوري، فقد كان يرى

---

[56]- ماكسمليان الأول (Maximilien 1 er) : (1459 – 1519) إمبراطور جرماني (1493 – 1519)، ضم هولندا لنفوذ الهابسبورغ بالمصاهرة، يعتبر المؤسس الحقيقي للقوة النمساوية.

[57]- JOSEPH PEREZ, **l'Espagne du XVI e siecle**, librairie Armand colin, paris, 1973, P. 39.

[58]- أصدر شارل الرابع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة سنة 1356 م المرسوم الذهبي، حدد فيه قواعد اختيار امبراطور جديد، و ذلك قصد القضاء على اسباب المنازعات. و بمقتضى هذا المرسوم، صار حق الانتخاب محصورا في سبعة من حكام الولايات الألمانية الهامة، يسمون « الناخبون ».

[59]- GARROT, op. cit., P. 397.

[60]- PAUL AUPHAN, **Histoire de la méditerranée**, les éditions de la table ronde, Paris, 1962, P. 169.

[61]- JEAN BABELON, **CHARLES – QUINT, époques et visages (1500 – 1558),** Paris, 1947, P. 207.

[62]- Ibid.

نفسه المسؤول الأول عن سلامة العقيدة المسيحية[63]. و رغم أنه كان يصارع على عـدة جبهات خطيرة مثل الانشقاق الديني في ألمانيا، و صراعه مع فرانسوا الأول [64]، و تزايد الخطر العثماني، إلا أن شارلكان قد أولى اهتماما كبيرا لصراعه ضد العثمـانيين، حيـث كان يرى بأن الحرب ضد المسلمين العثمانيين ليست مهمة بلد واحد، بـل واجـب كـل المسيحيين[65]، لذا عمل على توحيد المسيحيين، كما كان يمني نفسه بفتح القسطنطينية، و إعادة مجد المسيحية. و قد كان بعض مستشاريه يغذي لديه هذه الفكرة و فـي مقـدمتهم قاتينارا، الذي قال له يوما:« أتمنى أن أرى جلالتكم في القسطنطينية » فرد عليه شارلكان بقوله:« و أنا أيضا أتمنى ذلك »[66].

سنة 1525 استؤنفت الحروب الإيطالية [67] بين إسبانيا و فرنسا، بغزو فرانـسوا الأول لايطاليا، لكنه مني بهزيمة ساحقة على يد الجيش الألماني في معركـة بافيـا سـنة 1525، أخذ على إثرها أسيرا إلى إسبانيا، ثم أرغم على توقيع معاهدة مدريد سنة 1526، التي إضطر بموجبها على التنازل عن إدعاءاته في نابولي، ميلانو و جنوة.

بعد هذا الانتصار وطد شارلكان علاقاته بالبندقية، القوة البحرية. كما حصل علـى مساندة الأسطول الجنوي الذي أصبح يقوده أندري دوريا (Andre Doria) [68]، الذي تخلى عن خدمة فرانسوا الأول، و انتقل إلى خدمة شارلكان سنة 1528، و بتحالفه مـع جنـوة يكون هذا الأخير قد ضمن دعم أكبر أسطول إيطالي في غربي المتوسط.

---

[63] - عبد الجليل التميمي، "**الخلفية الدينية للصراع الإسباني– العثماني على الايالات المغربية فـي القـرن الـسادس عشر**"، م . ت . م . العدد 10 – 11، جانفي 1978، تونس، ص. 9.

[64]- فرانسوا الأول (François 1er) (1494 – 1547)، ملك فرنسا في 1515 حتى وفاته، و هو الذي أقر اللغـة الفرنسية لغة رسمية للبلاد، من ابرز أعماله توقيع معاهدة الامتيازات مع السلطان سليمان القانوني سنة 1536.

[65]- JOSEPH PEREZ, op. cit., P.69.

[66]- « Dit à sa Majesté qu'il espère la voir à Constantinople », L'Empereur Répond froidement : « je L'espère aussi ». Voir: BABELON, op. cit., P .210.

[67] - الحروب الايطالية (les guerres D'Italie) هي حروب متقطعة نشبت بين فرنسا و اسبانيا خلال فترة امتـدت من (1794 – 1559). و كانت هذه الحروب مظهرا من مظاهر التنافس الدولي بين هاتين الدولتين من أجل السيطرة و النفوذ في أوربا، و الرغبة في التوسع الإقليمي داخل القارة. كانت شبه الجزيرة الايطالية ميدانا لهذا الصراع. انتهت الحروب الايطالية سنة 1559، إثر توقيع معاهدة كاتوكامبرسيس.

[68]- من أشهر بحارة القرن السادس عشر، ولد بجنوه سنة 1468، كان منافسا لعروج و خير الدين، انضم إلى منظمة فرسان القديس يوحنا، و بعدما تحررت جنوة من السيطرة الفرنسية، جهز 08 بوارج بوسائله الخاصـة و شـرع فـي مهاجمة السفن العثمانية بالبحر المتوسط. بعد ذلك دخل في خدمة فرانسوا الأول، الذي عينه أميرالا للأسطول الفرنسي. و بعد معركة بافيا 1525 تخلى عن خدمة فرانسوا الأول، و دخل في خدمة شارلكان سنة 1528. توفي سنة 1560.

و لما كانت سياسة شارلكان موجهة أساسا نحو البحر المتوسط ،فقد منح جزيـرة مالطة لفرسان القديس يوحنا سنة 1530، بعدما اضطروا إلى مغـادرة مركـزهم القـديم بجزيرة رودس سنة 1522، كما كلفهم بإقامة حامية باسمه بطرابلس الغـرب[69]، و قـد كان ذلك رد فعل من شارلكان على تحرير خير الدين لحصن البنيون سـنة 1529 كمـا سنرى.

و في فيفري سنة 1530، توّج شارلكان بالتاج الإمبراطوري على يد البابا كليمانت السابع (Clément VII) فكان آخر إمبراطور في تاريخ أوربا يتوج على يد البابا [70].

لكن ربما لسوء حظ شارلكان أنه كان معاصرا لأبرز شخصيات القـرن الـسادس عشر، مثل سليمان القانوني سلطان الدولة العثمانية، فرنسوا الأول ملك فرنسا، هنـري الثامن ملك انجلترا، و خير الدين بربروس بايلرباي الجزائر. و قد كانت هذه الشخصيات تشكل خطرا على شارلكان و خاصة سليمان القانوني، الذي وصل إلى الأراضي المجرية، و أصبح يهدد فيينا، الشيء الذي جعل شارلكان يضطر إلى مهادنة البروتـستانت، حيـث وقع معهم إتفاق نورمبرج سنة 1532 [71]، لكي يتفرغ لخطر الأتراك.

و لا شك بأن ظهور الدولة الجزائرية كقوة فتية متحالفة مع العثمانيين، ثم لجـوء الملك الفرنسي فرانسوا الأول إلى التحالف معهم أيضا قد زاد من تحرج وضعية شارلكان، و مع ذلك واصل تجريد حملاته على المغرب الإسلامي. و كان أهم إنجاز له. هو احتلال تونس سنة 1535، قبل أن يتلقى هزيمة ساحقة إثر قيادته للحملة الأوربية على الجزائـر سنة 1541 كما سنرى في الفصل الموالي.

2- دوافع الحملات التوسعية الإسبانية على سواحل المغرب الإسلامي:

---

(69) - AUPHAN P., op. cit., P. 171.

(70)- عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا**، دار النهضة العربية، بيروت، 1973، ص. 77.

(71)- المرجع نفسه.

لقد كان تدخل الإسبان في المغرب الإسلامي امتدادا للحرب مع المـسلمين، تلـك الحرب التي يطلق عليها الإسبان اسم حرب الاسترداد « Reconquesta». و قد اتخـذت هذه الحرب صبغة صليبية، لعبت فيها الكنيسة دورا بارزا.

و لكن هل كانت الدوافع الدينية و حدها هي المسؤولة عن العدوان الإسباني علـى بلاد المغرب الإسلامي؟. لا شك بأن التطورات السياسية، الاقتصادية و الاجتماعية التـي عرفتها أوربا من جهة، و منطقة شمال إفريقيا من جهة أخرى، منذ أواخر القرن الخامس عشر، قد كان لها تأثيرها الواضح في هذا الصراع. و هذا ما يؤكده بروديل بقولـه « إن كل مؤرخي الكاردينال كزيمينيس قد ركزوا على الأسباب الدينية للمشاريع الإسبانية على هيئة صليب. هذه الأسباب لا يمكن إهمالها، و لكنها ليست الوحيدة، فإسـبانيا لا تـضمن مستقبلها إلا إذا جاء اليوم الذي تصبح فيه سيدة السواحل الإفريقية المواجهة لها »[72].

لذا يمكن القول بأن الحملات الإسبانية على سواحل المغـرب الإسـلامي كانـت تحركها دوافع عديدة.أما الإسبان فقد أعطوا لهذه الحركة صبغة دينية، و هذا بهدف ضمان الحماس الشعبي، خاصة و أن « درجة الوعي الموجودة في ذلك الوقت لم تكـن لتـسمح بظهور الحركة على حقيقتها أمام أعين الشعب »[73]. و عليه يمكن حصر الدوافع الحقيقية لهذه الحملات في النقاط التالية:

أ – الدوافع الدينية:

لقد كان فرديناند و إيزابيلا شديدي التعصب الديني، لذا قررا مطاردة المسلمين إلى ما وراء حدود إسبانيا، و محاربة مسلمي شمال إفريقيا. و تماشيا مع هذه الرغبة. أصـدر البابا ألكسندر السادس (Alexandre VI) [74] مراسيم بابويـة فـي سـنتي 1493 – 1494 يبارك فيها إنجازات الملكين الإسبانيين، و يحث على مواصلة الحرب الصليبية ضد إفريقيا الإسلامية.

---

[72]- كورين شوفالييه، **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائـر (1510-1541)**، ترجمـة جمـال حمادنـة، د.م.ج.، الجزائر، 1991، ص.19، نقلا عن بروديل.

[73] - جلال يحي، **تاريخ المغرب الكبير**، الجزء الثالث، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص. 18.

[74]- ألكسندر السادس (Alexandre VI) تولى منصب البابا خلال (1492 – 1503). و هو الذي فرض ضريبة الصليب على المسيحيين، و ذلك لتجريد الحملات الصليبية ضد المسلمين، و قد اشتهر بتقسيمه لمناطق النفوذ في العالم بين إسبانيا و البرتغال.

و قد أقر لهذا الغرض ما كان يتقاضاه الحكام الإسبان من ضرائب مخصصة للجهد الحربي الصليبي، مثل ضريبة الصليب (Crusada) [75].

و قد لعب رجال الدين الإسبان دورا بارزا في هذه المعركة، فالكنيسة الإسبانية، قد ساهمت بكل ما لديها من مال و حماس و جرأة في محاربة المسلمين« بل أن الكنيسة أرادت في الكثير من الأحيان اعتبار هذه المعركة، معركة خاصة بها»[76].

فبعد سقوط غرناطة، بدأ فرديناند و إيزابيلا في إعداد مشروع لاحتلال البلدان المغربية، لكن موت هذه الأخيرة، سنة 1504 قد عطل تحقيق هذا المشروع الذي كان حلم حياتها.و لكنها تركت وصية تدعو فيها إلى مواصلة هذا المشروع، جاء فيها:« إنه لا ينبغي إيقاف غزو إفريقيا، و لا إنهاء الصراع ضد الكفار [المسلمين] من أجل العقيدة»[77].

و فعلا ، فقد احترم الكاردينال كزيمينيس دي سيسنيروس(Ximenes de Cisnéros)[78] تلك الوصية، و كان هذا الأخير قد عين مستشارا للعرش الكاثوليكي الإسباني، حيث كانت إيزابيلا قد جعلت منه مستشارا خاصا لها[79]. و قد لعب كزيمينيس دورا مخزيا في طرد المسلمين من إسبانيا، و تنشيط محاكم التفتيش ضدهم و تجريد الحملات عليهم في ملاذهم بالمغرب الإسلامي.

و مما زاد في غضب المتعصبين الإسبان، ثورة المسلمين في غرناطة سنة 1501، و هجمات البحارة المسلمين على السواحل الإسبانية في ربيع 1505، خاصة و أن نشاط

---

[75] - كروزادا (Crusada): ضريبة صليبية فرضت على كل رعايا الملك الكاثوليكي، يصادق عليها البابا كل خمس سنوات، تعطى للحكام الإسبان، لإنفاقها في تدعيم الجهد الحربي ضد المسلمين.

[76] - « L'église d'Espagne s'est vivement, passionnément intéressé à La lutte contre les maures dont à plusieurs reprises elle voulu faire sa chose ». Voir : FERNAND BRAUDEL, "**Les Espagnols et L'Afrique du nord de 1492 a 1577"**, R.A.,Tome 19, année 1928, PP. 198 – 199.

[77] -«qu'il ne faudrait ni interrompre la conquête de l'Afrique, ni cesser de combattre pour la foi contre les infidèles ». Voir: HENRI D. DE GRAMMONT**, Histoire d'Alger sous la domination Turque**, **(1515 – 1830),** Ernest Leroux Editeur, Paris, 1887, P. 5.

[78]- كاردينال إسباني، ولد في قشتالة سنة 1436، و توفي في طليطلة سنة 1517، أصبح مستشارا سياسيا لدى إيزابيلا، و في سنة 1505 عينه فرديناند الكاثوليكي مشرفا عاما على محاكم التفتيش. اشتهر بتعصبه الديني، إذ فرض التنصير على مسلمي الأندلس. و قد لعب دورا بارزا في احتلال وهران، بجاية، و طرابلس.

[79]- بن أشنهو، المرجع السابق، ص. 59.

هؤلاء البحارة كان يشجعه و يسهم فيه المسلمون الأندلسيون المطرودون أو المهـاجرون من إسبانيا[80].

فعند احتلال المرسى الكبير سنة 1505 ، أقام كزيمينيدس صلاة جماعية، بعـد أن حول المساجد إلى كنائس، و أقيمت على اثر ذلك الأفراح العمومية و الـصلوات دامـت ثمانية أيام[81]. و عند احتلال طرابلس الغرب سنة 1510. تم تنظيم موكب ديني، كما تـم تبادل التهاني بين دوق البندقية و ملك إسبانيا، و نائب الملك بصقلية، و تهنئـة المرشـد الأكبر للفرسان في رودس بهذا النصر[82].

و قد استمر هذا الصراع في عهد شارلكان، فعندما دخل هذا الأخير مدينة تـونس منتصرا في صيف 1535، اهتز العالم المسيحي كله فرحا بهـذا النـصر. و قـد أرغـم شارلكان مولاي الحسن على التعهد بالسماح للمسيحيين بالقدوم إلى تونس و العيش بهـا، على أن يبقوا أوفياء لعقيدتهم الدينية، دون أن يتعرضوا لأي مضايقة[83]. فكل ذلك يبـرز مدى تأثير الدين على السياسة الإسبانية خلال القرن السادس عشر.

ب – الدوافع السياسية و الاقتصادية:

و تتمثل في رغبة إسبانيا في إقامة إمبراطورية واسعة، خاصة بعد اكتشاف العالم الجديد، و كذلك طريق التوابل، لذلك عملت على احتلال سواحل المغرب الإسلامي، لمـا لها من أهمية في كل اتصال بحري آمن بين الـسواحل الإسـبانية، و سـواحل إيطاليـا الإسبانية، كما كانت ضرورية لنشاط إسبانيا في البحر المتوسط حيث تمكنها من مراقبـة السفن المارة به.

لذلك نجد إسبانيا تركز في تنفيذ مشروعها الاستعماري على الموانئ الإستراتيجية، فبدأت باحتلال المرسى الكبير، و هو أحسن مرفأ على الساحل الجزائري، ثم استولت على حجر باديس، بالمغرب الأقصى سنة 1508، ثم مدينة وهران سنة 1509.

---

[80]- محمد خير فارس، المرجع السابق، ص. 17.

[81]-DE GRAMMONT, op. cit., P. 8.

[82] - عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص. 9.

[83] – المرجع نفسه.

و قد بذلت إسبانيا جهودا مضنية للاحتفاظ بإمارة تلمسان تحـت نفوذهـا، نظـرا لكونها بوابة رئيسية نحو الإمارات الإفريقية جنوب الصحراء، حيث كانت تمـر عبرهـا كميات ضخمة من السلع[84]، لذا كانت إسبانيا ترغب في السيطرة على الطرق التجاريـة في إفريقيا، التي اشتهرت بتصدير بعض المواد إلى أوربا مثل التبـر و ريـش النعـام و الجلود و غيرها.

و يلاحظ أن هناك تداخل بين الدوافع الدينية و الدوافع الاقتـصادية و الـسياسية، فبالنسبة لفرديناند الكاثوليكي، الحرب في إفريقيا هي عبارة عن ذريعة تمكنه من الحصول على المساعدات المالية من الكنيسة. أما بالنسبة لأساقفة طليطلة فهي فرصتهم في توسـيع حدود أسقفياتهم. و في هذا الشأن، فالمشكل الذي حدث بين كزيمينيس و فرديناند بـشأن حكومة وهران، يدل دلالة واضحة على ذلك[85]. أما البابا فقد كان يتـصرف فـي هـذا المجال كأمير إيطالي أكثر منه كزعيم روحي للمسيحيين[86].

كما أن الازدهار التجاري و العمراني الذي تزامن مع الكشوفات الجغرافية كان من العوامل المحركة لسياسة التوسع الاستعماري الإسباني، بحثا عن الثروة. و هذا ما تبـرزه النزعة التوسعية الماركنتيلية لدى مملكة إسبانيا في عهد فرديناند الكاثوليكي، ثم في عهـد خلفه شارلكان[87].

ج – الدوافع العسكرية:

بعد سقوط غرناطة أخذ الملوك الكاثوليك في ملاحقة المسلمين الأندلسيين، حيـث سلطوا عليهم مختلف أساليب القهر و الاضطهاد، فهاجر الكثير منهم إلى المغرب العربي و حتى إلى المشرق [88]. و قد كان هؤلاء الأندلسيون يقصون على إخوانهم في المغـرب قصص الاضطهاد و الاعتداء على حرمة المقدسات الإسلامية التي كان يمارسها الإسبان، مما زاد في حقد المسلمين المغاربة على المسيحيين و خاصة الإسبان، و هذا ما دفعهم إلى

---

(84) -J. LEON L'AFRICAIN, **Description de L'Afrique**, traduite de L'italien Par A. EPAULARD, Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris , 1956 , P. 324.

(85)- BRAUDEL F., Les Espagnols …, op. cit., P. 209.

(86)- Ibid.

(87) -YVES LACOSTE, et autres, **L'Algérie passé et présent**, éditions sociales, Paris,1960, P.138.

(88) - جون ب. وولف، المرجع السابق، ص. 25.

القيام بالهجومات الانتقامية على السواحل الإسبانية. و قد اشتدت وطأة البحارة المسلمين على الإسبان، فصاروا يهددون أمن النصارى و تجارتهم، لذلك جاءت الشكاوى إلى الملوك الكاثوليك، تدعو إلى وضع حد لهؤلاء " القراصنة ".

و هنا لا بد من التمييز بين " القراصنة "، و " البحارة "، يقول جون ب. وولف بهذا الصدد « القرصان هو الشخص الحرفي النهب، و لا يعترف بأي سلطة فوق إرادته الخاصة، فكان يهاجم بدون تمييز سفن أي دولة، و كان هدفه الوحيد هو النهب، لكن رياس البحر كانوا أشخاصا موكلين من غيرهم للقيام بهذه المهمة، و لم يشنوا حربا إلا على أعداء أميرهم ... و مهمته تعطي طابع الشرعية لنشاطه، أما غنائمه فينظمها الأمير التابع له »[89].

أما د. بلحميسي فيميز بين القرصان و البحار بقوله:« القرصان (Le Pirate) يسعى في البحار لحسابه الخاص، دون أن يحصل على ترخيص من حكومته، إنه ليس سوى لص مسلح، أما البحار القرصان (Le Corsaire) فهو مقاتل نظامي، قناص في البحر، يهاجم أعداء أمته ليحصل منها على نصيب معلوم، و على سفينته علم بلاده.»[90].

و القرصنة في الحقيقة هي من ابتكار الأوربيين، و ليس العرب. إنما نسبها المؤرخون الأوربيون للمسلمين فقط، حقدا و غيظا، و قد بدأت القرصنة بشكل عنيف بين المسلمين و النصارى منذ القرن الرابع عشر، و قد بدأها النصارى[91]. أما بالنسبة للمسلمين فالقرصنة هي جهاد بحري ضد الصليبيين ، اتخذت طابعا إنسانيا، كان هدفها إنقاذ المسلمين الأندلسيين الفارين من الاضطهاد الإسباني، و الانتقام من اعتداءات النصارى.

---

(89)- جون ب.وولف، المرجع السابق، ص.179.

(90) - MOULAY BELHAMISSI, **Histoire de la marine Algérienne (1516 – 1830),** E.N.A.L. ALGER, 1983, P.144.

(91)- بن أشنهو، المرجع السابق، ص. 19 .

لذلك فقد وجدت إسبانيا في القرصنة المغاربية حجة لتغذية النزعـة الـصليبية و ذريعة لمحاربة المسلمين في عقر دارهم،« فكانت الحاجة إلى إزالة مخابئ القراصنة أقوى من الروح الصليبية، و حافزا لتدخل الإسبان في المغرب»[92].

و لا شك بأن انقسام المغرب الإسلامي إلى إمارات ضعيفة متطاحنة فيما بينها، قد أدى إلى إنهاك هذه الإمارات اقتصاديا، بشريا و عسكريا. و بالتالي كان ذلك من العوامل التي ساعدت الإسبان على احتلال السواحل المغاربية.

و لكن رغم احتلال إسبانيا لأهم المراكز الساحلية للمغرب الأوسط، إلا أنهـا لـم تتمكن من التوسع في المنطقة و اكتفت بسياسة « الاحتلال المحدود »[93]، حيث حولـت الموانئ المحتلة إلى مراكز محصنة، أقامت بها حاميات. و قد كانت هذه السياسة من أهم أسباب فشل المشاريع التوسعية الإسبانية في شمال إفريقيا، إذ صار الوجود الإسباني فـي إفريقيا كالذي يسكن عمارة بلا أساس[94]. و بالمقابل فإن نجاح الأتراك بالجزائر من خلال استفادتهم من دعم السكان، و حسن تموقعهم، حيث كانوا يختارون المـدن ذات المواقـع الاستراتيجية للتمركز بها سواء تلك التي تتحكم في الطرق البحرية مثل دلس، شر شـال، مستغانم.أو تلك التي تتحكم في الطرق البرية الرئيسية في الداخل مثل البليدة ، المديـة أو تلمسان، قد كان من العوامل التي أدت مع مرور الوقت إلى تحطيم المشروع الاستعماري الإسباني في المغرب الإسلامي.

المبحث الثالث: الوضع السياسي في منطقة المغرب الإسلامي وظهور الدولـة الجزائرية الأولى.

1- المغرب الإسلامي في مطلع القرن السادس عشر:

لقد ظلت منطقة المغرب الإسلامي تتمتع بوحدتها السياسية إلى غاية القرن الثالـث عشر الميلادي، في ظل سلطة الموحدين، الذين تمكنوا من التصدي بكل قوة للغزاة، فلـم تكن تجرؤ أي قوة أوربية على النيل من ممتلكاتهم.لكن دولة الموحدين لم تلبث إن انقسمت

---

[92]- شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ترجمة محمد مزالي و البشير بن سلامة، الجزء الثـاني، الطبعـة الثانية، الدار التونسية للنشر، تونس ،1983، ص. 322.

[93] - ANDRE BERTIER**, L'Algérie et son passé**, Imp., FLOCH, Paris, 1951, P. 180.

[94] – ANDRE BERTIER, op.cit., P.180.

على نفسها إلي ثلاث إمارات رئيسية ظلت تتقاسم السيادة على منطقة المغرب الإسـلامي وتسعى كل منها إلى فرض سيطرتها على المناطق المجاورة لها.وهذه الإمارات الـثلاث هي إمارة الحفصيين بتونس، إمارة الزيانيين بـالجزائر، وإمـارة المـرينيين بـالمغرب الأقصى.

أما العلاقات بين هذه الإمارات فقد تميزت بالتطـاحن والنزاعـات المـستمرة، والضحية في أغلب الأحيان هم الزيانيون في تلمسان الذين وجدوا أنفسهم بين فكي رحى، أطماع الحفصيين من الشرق، وأطماع المرينيين من الغرب، وكل منهما يـسعى للقـضاء عليها والتوسع على حسابها[95].ورغم أن الزيانيين قد تمكنوا من الحفاظ على ملكهم لمـدة ثلاثة قرون،إلا أن عرشهم ظل مهددا و خاصة من طرف المرينيين الذين سـلبوا مـنهم السلطة عشرات المرات[96].

كما أن التنازع على السلطة و الإقتتال بين أبناء الأسرة الواحدة، قد أدى إلى إنهاك هذه الإمارات اقتصاديا و عسكريا، بل و أضعف السلطة المركزية لكل منها، الشيء الذي أدى إلى بروز نوع من الفسيفساء السياسية.

ففي الجزء الشرقي نجد طرابلس ، قد أعلنت استقلالها عن الحفصيين و صـارت تلقي الخطبة باسم السلطان المريني في فاس. أما سيرت فكان يحكمها مجلس منتخب مـن الأعيان يرأسه أحد الشيوخ. و قد رأينا أنه في سنة 1510 تمكن الإسـبان مـن احـتلال طرابلس دون مقاومة تذكر. أما سلطنة الحفصيين، فكانت بدورها تعيش تمزقـا سياسـيا، فالسلطان الحفصي صار سجينا في عاصمته تحت حماية جند النصارى، و نفوذه لم يعـد يصل حتى إلى جبل الرصاص[97]، أما المناطق الداخلية التونسية، فقد صارت تحت نفوذ القبائل العربية، فقد تمكنت الشابية من قبيلة المهلهل من تكوين مملكة اتخذت من القيروان عاصمة لها، أما مدن الجريد و الموانئ فقد اضطرت إلى دفع الإتاوة للقبائل العربية[98].

(95) -JEAN MONLAU. **Les Etats Barbaresques**, P.U.F., Paris, 1973,P.40.
(96) - LEON L'AFRICAIN, op . cit., P. 323.
(97) - يقع بالجنوب الشرقي لمدينة تونس. يبعد عنها بـ 28 كم.
(98) -ERNEST MERCIER, **Histoire de L'Afrique septentrionale**, tome 03, Ernest Leroux Editeur, Paris , 1891, P. 6.

و في المغرب الأوسط لم تكن مملكة الزيانيين أحسن حالا من جارتها الحفـصية. فقد أدت الخلافات على العرش إلى تلاشي نفوذ ملوك بني عبد الوادي، حيث انحـصرت سلطتهم في تلمسان و غربي البلاد الجزائرية، و ظل ملكهم مهددا من طرف الأجانب، و قد انقسمت الإمارة على نفسها إلى عدة إمارات صغيرة متناحرة فيما بينها، مثـل إمـارة الذواودة بالحضنة و الزاب، إمارة بني جلاب بتقرت و وادي ريغ، إمارة الثعالبة بجزائـر بني مزغنة و متيجة، و إمارة كوكو ببلاد القبائل(99).أما المدن الساحلية فقد كانت بدورها تمثل كيانات مستقلة، فمدينة الجزائر بما فيها سهل متيجة، كانت تحت حكم الثعالبة، و كان يسيرها مجلس أعيان المدينة، و في عهد سالم التومي احتل الإسبان صـخرة البنيـون، الشيء الذي ألحق أضرارا بليغة بالأهالي، و هذا ما دفعهم إلى طلب النجدة مـن الإخـوة بربروس كما سيأتي توضيحه.

أما في المغرب الأقصى، فلم يكن الوضع يختلف عن المناطق السابقة، حيث كانت سلطة المرينيين بفاس تشهد صراعات عائلية مستمرة، بـسبب التنـافس عـن العـرش، فالحروب و المؤامرات ظلت تهدد كيان الأسرة الحاكمة نفسها. و هذا مـا جعـل الـبلاد عرضة للأخطار الأجنبية و خاصة البرتغالية و الإسبانية. فقد احتلت البرتغال سبته سـنة 1415، ثم القصر الصغير في الوقت الذي كانت فيه الحرب مشتعلة بين الأدارسة و بني وطاس. ثم جاء دور طنجة لتسقط بدورها عن يد البرتغـاليين سـنة 1471(100). الـذين خربوا مدينة أنفا(101) كليا، فكانت نهاية الأدارسة.

و بسقوط غرناطة اشتدت وطأة الهجمات البرتغالية و الإسـبانية علـى المغـرب الأقصى، حيث احتل البرتغاليون أزمور سنة 1513، و مازغان سنة 1514، أما الأسبان فقد احتلوا مليلة عام 1497، ثم حجر باديس سنة 1508.

---

(99) -Ibid. PP. 6 - 7.

(100) - MOULOUD GAID**, L'Ălgérie sous les Turcs**, 2 em édition, édition mimouni, Alger, 1991, P. 24.

(101) - أنفا: موقع الدار البيضاء حاليا.

من خلال ما سبق يمكن القول بأن المغرب الإسلامي في مطلع القـرن الـسادس عشر، قد كان يمر بفترة تاريخية حرجة، فقد أدى عدم الاستقرار السياسي بالمنطقة إلـى عرقلة النشاط الاقتصادي و تردي الوضع الاجتماعي، و تراجع العلوم و المعارف، هـذا في الوقت الذي شهدت فيه أوربا نهضة علمية و اقتصادية نتج عنها تزايد الثروة في أيدي الأهالي و تفوقهم في فنون القتال، و هذا ما نتج عنه اختلال في موازين القـوى بـين ضفتي البحر المتوسط، الشيء الذي جعل الأوربيين، و في مقدمتهم إسبانيا، يحلمون بتنفيذ مشروع استعماري ضخم يهدف إلى استعمار المغرب الإسلامي كله.

لكن ظهور الأتراك بشمال إفريقيا، قد أنقذ البلاد المغاربية من مصير كـان يبـدو حتميا، و لعل ذلك ما يؤكده مرسيي في كتابة تاريخ إفريقيا الشمالية بقوله:« إن الحالة التي كانت عليها البلاد البربرية حوالي سنة 1515 و التي وصفناها أعلاه تبين لنا إلـى أيـة درجة من الفوضى وصلت إليها شعوبها ... إنها لفترة انتقالية لكنها حاسمة بالنسبة لتاريخ شعب لا يجتازها إلا بالقيام بالتجديد أو بالخضوع لسيطرة ما ... إذ كان بالنسبة للمغـرب الاستعباد هو السبيل الحتمي، نعم في الوقت الذي كادت المسيحية تحققه لفائـدتها سـنحت الفرصة للأتراك أن يفرضوا سيادتهم على الجزء الأوفر من البلاد... حتى كانـت نتـائج ذلك حماية البلاد البربرية من سيطرة الدول المسيحية خلال ثلاثة قرون»(102).

2- ظهور الدولة الجزائرية الأولى:

أ – جهود الإخوة بربروس:

في الوقت الذي اشتدت فيه الهجمات الإسبانية على سواحل المغـرب الإسـلامي عامة، و السواحل الجزائرية بصفة خاصة، ضمن مـشروع اسـتعماري يهـدف إلـى

(102) - « Le Tableau que nous venons de présenter de la Barbarie, vers 1515, montre à quel degré d'anarchie est tombée la population musulmane … C'est une période de transition ,'décisive pour l'histoire d'un peuple , car il n'en peut sortir que par une rénovation ou par l'asservissement … L'asservissement est donc fatal , et au moment ou le chrétien semble sur le point de la réaliser à son profit , c'est le turc qui va , sans peine et sans grands efforts , se rendre maître de la mageure partie du pays … Ce qui a eu comme conséquence de soustraire , pour trois siècles … » .Voir : MERCIER, op. cit., P.11.

استعمار المنطقة كلها، برز على مسرح الأحداث الإخوة بربروس[103] الـذين سـيلعبون دورا حاسما في توجيه سير التاريخ بمنطقة الحوض الغربي للبحر المتوسط.

بظهور هؤلاء الإخوة شهدت منطقة المغرب الإسلامي تطورات متسارعة، تمخض عنها ميلاد الدولة الجزائرية الأولى، و التي فرضت نفسها كقوة جديدة مؤثرة في تـاريخ البحر الأبيض المتوسط طيلة ثلاثة قرون.

في أوائل القرن السادس عشر حول عروج و أخواه خير الدين و إسحاق نـشاطهم من السواحل الشرقية للمتوسط إلى السواحل الغربية له. ففي سنة 1504[104] طلب عروج من سلطان تونس أبو عبد الله محمد بن الحسن أن يمنحه بعض مراسيه لاتخاذها مركـزا لأسطوله فوافق السلطان على ذلك مقابل حصوله على خُمس الغنائم[105].

و قد سطع نجم الإخوة بربروس بفضل الانتصارات التي حققوها ضد النصارى، و إنقاذهم لآلاف الأندلسيين الفارين من إسبانيا، فلم تأت سنة 1510 حتى ذاعت شهرتهم في الشرق و الغرب[106]. مما جعل سكان المغرب الإسلامي يرون في هـؤلاء الإخـوة، القوة الإسلامية الصاعدة ، القادرة على التصدي للعدوان الإسباني الذي كان يهددهم.

و أول من طلب نجدة عروج هم سكان بجاية، فقد أرسل سلطانها الحفـصي إلـى عروج يطلب مساعدته على تحرير بجاية من يد الإسبان، و حسب ابن أبي الضياف، فإن علماء و أعيان المدينة طلبوا بدورهم نجدة عروج حيث قـال:« و كاتبـه العلمـاء و الأعيان من أهل بجاية يستصرخونه في إنقاذها من يد العدو»[107]. و قـد لبـى عـروج النجدة، حيث زحف على بجاية بعمارة بحرية مكونة من 12 سفينة على متنها ألف تركي،

---

(103) - هؤلاء الإخوة هم عروج، خير الدين، إلياس، و إسحاق، أصلهم من إحدى الجزر اليونانيـة، ميتيلـين ،أبـوهم يعقوب بن يوسف، كان يشتغل بصناعة الفخار، و قيل كان ضابطا في الجيش العثماني. و قد تلقى هؤلاء الإخـوة فـي صباهم تربية إسلامية ورعة، اشتهروا بالشجاعة، و معرفتهم لعلوم البحار. و قد برز منهم عروج و خير الدين، اللذان كان لهما دور بارز في تأسيس الدولة الجزائرية الأولى.

(104) - DIEGO DE HAEDO, **Histoire des Rois d'Alger**, traduit de l'espagnol par DE GRAMMONT H.D., Éditions grand – Alger – livres, Alger, 2004, P. 14.

(105) – مجهول،**غزوات عروج و خير الدين**، تصحيح و تعليق نور الدين عبد القادر، المطبعـة الثعالبيـة، الجزائـر، 1934، ص. 13.

(106) - شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص. 326.

(107) -أحمد بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان**، الجزء الثاني، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977، ص. 10.

كما انضم إليه الآلاف من سكان المناطق الجبلية بقيادة السلطان المخلوع عبد الرحمن[108]، و بعد محاصرته للمدينة، قام عروج بهجوم بري على رأس مجموعة من بحارته ، لكن قوة التحصينات الإسبانية، و حسن تسليحها حال دون نجاح عروج في هذه المحاولة حيث اضطر إلى الانسحاب إلى تونس[109]، بعد أن أصيب في ذراعه اليسرى التي بترت.

بعد فشل هذه المحاولة قرر عروج نقل مركزه من حلق الوادي إلى جيجل ، نظرا لموقعها الاستراتيجي الذي يقربه من ساحة المعركة ، حيث يتمكن من التوغل أكثر في الحوض الغربي للبحر المتوسط. و قد تمكن بمساعدة سكان المدينة من الاستيلاء على قلعتها التي كانت بيد الجنويين [110]، و اتخذ منها قاعدة لحصار بجاية.

بعد استقراره في مدينة جيجل كثف عروج نشاطه البحري ضد جزر البليار، و حصل على غنائم كثيرة أرسل قسما منها إلى السلطان العثماني سليم الأول (1512 – 1520)، فاستحسنها، و كمكافأة على ذلك أرسل إلى عروج بهدية ثمينة[111]، و هي عبارة عن أسلحة و ذخيرة، و قد جاءت هذه الهدية في الوقت المناسب.

لا شك بأن مثل هذا التصرف من عروج قد لفت انتباه العثمانيين إلى مجرى الأحداث بالحوض الغربي للبحر المتوسط، و ربما مهد الطريق لتطور العلاقات السياسية و العسكرية بين العثمانيين و الإخوة بربروس.

لم يلبث عروج أن أعاد الكرة على بجاية في أوت 1514، حيث حاصر حاميتها من جهتي البر و البحر، و قد التحق به عدد كبير من سكان القبائل، و قد دام الحصار مدة ثلاثة اشهر، لكن نفاذ الذخيرة لدى جنود عروج و رفض السلطان الحفصي مولاي محمد تزويده بالإمدادات التي طلبها منه[112].و يرجع ذلك إلى تخوف سلطان تونس من ازدياد مكانة الإخوة بربروس، مما اضطر عروج إلى رفع الحصار و العودة إلى جيجل.

---

(108) - DE GRAMMONT, op. cit ., PP. 18 – 19.
(109) – HAËDO, op. cit., P. 19.
(110) - كانت مدينة جيجل محتلة من طرف قراصنة جنوة منذ 1260، كمركز تجاري بين ايطاليا و إفريقيا، و في سنة 1513 هاجمها أندري دوريا الذي كان في خدمة فرنسا و احتلها، و وضع بها حامية لحساب مدينة جنوة.
(111) - غزوات، المرجع السابق، ص. 24.
(112) – ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ص. 11. وكذلك غزوات، ص.26.

و إذا كانت محاولات الإخوة بربروس لم تتوج بافتكاك بجاية من يد الإسبان، فإنها أعادت للجزائريين ثقتهم بأنفسهم، بأنهم قادرون على رد العدوان الإسباني، ممـا شـجع سكان مدينة الجزائر على طلب نجدة هؤلاء الإخوة للاستعانة بهم ضد الإسبان.

بعد وفاة الملك فرديناند الكاثوليكي في جانفي 1516 أحس سكان مدينة الجزائـر بأنهم تخلصوا من عهودهم تجاه الملك الراحل، حيث كان أعيان مدينة الجزائر قد أبرمـوا معاهدة مع الإسبان سنة 1510، استغلها هؤلاء في تشييد قلعة الـصخرة (Le penon)، التي تبعد عن مدينة الجزائر بنحو 300 متر. و من خلالها صار الإسبان يتحكمـون فـي مدخل و مخرج المدينة و يعرقلون نشاطاتها، كما أرغموا السكان على دفع ضرائب نقدية و عينية أرهقت الجزائريين. أمام هذه الوضعية الصعبة رأى أعيان مدينة الجزائر، و على رأسهم الشيخ سالم التومي، ضرورة الاستنجاد بالإخوة بربروس لمساعدتهم على التخلص مما هم فيه من ضيق فأرسلوا إلى عروج في جيجل كتابا: « يُرغبونه في القدوم عليهم و جهاد عدوهم المجاور لهم في الحصن الكائن بالجزيرة و كان قد اضر بهم غاية الـضرر و ضيق بهم غاية التضييق»[113]، قبل عروج هذه الدعوة، و قد كان ينتظـر مثـل هـذه الفرصة منذ مدة[114]. و لا شك بأنه من دوافع قبوله لهذه الدعوة حميته الدينية و إحـساسه بالمسؤولية تجاه إخوانه المسلمين الذين يعانون من قهر النصارى. فقد ذكر هايدو بـشأن استجابة عروج:« و كما وعد وفّى، ذلك لأن الميزة الرئيسية لهذا الرجل هي ثمرة طبيعية لنفسه الكبيرة»[115]. لذلك جهز عروج ستة عشر سفينة بالمدفعية و الذخيرة و أرسل معها نصف جنده بحرا، و اتجه هو و النصف المتبقي معه و المقدر بـ 800 جندي برا إلـى مدينة الجزائر، و في الطريق انضم إليه خمسة آلاف شخص من القبائـل، و بـدلا مـن التوقف بمدينة الجزائر، اتجه عروج مباشرة إلى شرشال، ذلك لأن أحد مساعديه، و هـو قارة حسن كان قد سبقه إليها و أسس بها إمارة صغيرة، و كان يريد مزاحمـة عـروج، فخشي هذا الأخير من تشتت الصفوف في الوقت الذي كانت الظروف تـستدعي تكـوين

---

(113) - غزوات، المرجع السابق، ص. 27.

(114) - DE GRAMMONT, op. cit., P. 22.

(115) - « ET Comme il avait dit, il le fit, car; la qualité principale de cet homme, fruit naturel de sa grand âme ».Voir: HAEDO ,op. cit., P.25.

جبهة موحدة و صلبة ضد الخطر الإسباني. و قد تمكن عروج من دخول مدينة شرشـال دون مقاومة، فتخاص من قارة حسن و ترك بالمدينة حامية لحراستها ثم عاد إلى مدينـة الجزائر، حيث استقبله سكانها و على رأسهم الشيخ سالم التومي استقبال الفاتحين[116].

و بمجرد وصوله إلى مدينة الجزائر قرر عروج مهاجمة قلعة البنيون فقام بقصفها بالمدفعية لمدة عشرون يوما دون انقطاع، لكن دون جدوى بسبب ضعف مدفعيتـه لـذلك قرر تأجيل أمر تحرير القلعة إلى وقت آخر.[117]

أما إسبانيا فقد اعتبرت تمركز الإخوة بربروس بـالجزائر خطـرا كبيـرا علـى مخططاتها التوسعية في المغرب الإسلامي. لذلك قررت استئصال الأتراك مـن الجزائـر قبل أن يستفحل خطرهم.فجهزت حملة عسكرية فـي سـبتمبر1516« قوامهـا ثلاثمائـة وعشرين جفنا [سفينة]، وكان عدد عساكرهم المقاتلين خمسة عشر ألفا»[118]، بقيـادة دييغودي فيرا (Diego De Vera)، غير أن هذه الحملة قد منيت بهزيمة ساحقة حيث فقـد الإسبان ثلاثة آلاف قتيل و أربعمائة أسير[119]، كما تحطمت نصف سفنهم بسبب هيجان البحر. فقد تعاونت قساوة الطبيعة مع بطولة المجاهدين الجزائريين في دحر هذه الحملـة. فكان ذلك انتصارا عظيما للإخوة بربروس و سكان مدينة الجزائر، و كان من نتائج هذا النصر توسيع رقعة الدولة الجزائرية الناشئة، حيث سارع سكان البليدة و المدية و مليانة و ما حولها إلى مبايعة عروج و الخضوع له، كما اعترفت بسيادته بلاد القبائل وبذلك صار لإمارة الجزائر شأن عظيم[120].

ونظرا لتواطؤ أمير تنس الزياني مع الإسبان فقد قرر عـروج إخـضاع المدينـة و التخاص من أميرها الخائن فاتجه إليها على رأس قوة كبيرة و اقتحمها في شهر جـوان 1517، و استولى عليها و قتل أميرها و طرد الإسبان المتمركزين بها.

---

(116) – MERCIER, op. cit., P. 16.

(117 - EDWARD CAT, **Petite Histoire de L'Algérie**,Tome I, Adolphe Jourdan Librairie Editeur, ALGER, 1888, P. 240.

(118) - محمد بن عبد الرحمن التلمساني الجدري، **الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين أغـارت عليهـا جنـود الكفرة**، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1626.

(119) - E. PELLISSIER, **Mémoires Historique et Géographiques sur L'Algérie**,Imp., Royale, Paris, 1844, P. 28.

(120) - يحي بوعزيز، **الموجز في تاريخ الجزائر**، المرجع السابق، ص.258.

وبينما كان عروج في تنس جاءه وفد من تلمسان يطلب نجدته للتخلص من الملـك أبو حمو الثالث الذي إستولى على عرش تلمسان بمساعدة الإسبان معلنـا تبعيتـه لهـم، استجاب عروج لهذا الطلب، فاتجه إلى تلمسان و مرّ على قلعة بني راشد[121]، فوضع بها حامية تركية كبيرة تحت قيادة أخيه إسحاق، و واصل الزحف إلى تلمسان.

تمكن عروج من دخول المدينة و الإطاحة بالملك أبو حمو الثالث، و أعاد أبا زيان إلى عرشه من جديد، لكن سرعان ما عادت الفتن و الدسائس ضد عروج، يغذيها الإسبان من جهة و أبا زيان من جهة أخرى، لذلك اضـطر عـروج إلـى قتـل أبـا زيـان و أنصاره[122].

أما أبو حمو الثالث فقد ذهب إلى وهران يطلب نجدة الإسبان لاسـترجاع عـرش تلمسان، و لما كانت رغبة إسبانيا هي إبعاد خطر التوسع الجزائري على انقاض مملكـة تلمسان، فقد أمدته بنجدة قوامها عشرة آلاف رجل مع العتاد. و هكذا توجه أبو حمو الثالث على رأس قوة من الأعراب و معه فرقة من الجيش الإسباني، فداهموا قلعة بني راشـد و احتلوها، ثم قتلوا الحامية التركية التي كان على رأسها إسحاق بـن يعقـوب غـدرا و خيانة[123]، و كان ذلك في أواخر جانفي 1518، ثم واصلوا زحفهم نحو تلمسان و ضربوا عليها حصارا شديدا، و رغم قلة جنود عروج حيث لم يكن معه سـوى 500 جنـدي، إلا أنهم تمكنوا من الصمود لمدة ستة أشهر، اضطر عروج بعدها إلى الاعتصام بالمشور لعدة أيام، ثم غادرها ليلا باتجاه بني يزناسن[124]، لكن الإسبان تفطنوا لخروجـه و تتبعـوه و قتلوه في ريو دي صلادو (Rio - Salado). و هكذا استشهد عروج في مـاي 1518 بعـد مقاومة باسلة و كان عمره أربعة و أربعون سنة، قضاها في الذود عن حرمة المسلمين.

---

(121) - تقع على الطريق الواصل ما بين مدينتي الجزائر و تلمسان، اتخذها عروج مركزا لحماية طريقه.

(122) – MERCIER, op . cit., PP. 18-20.

(123)- أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و اسبانيا (1492 – 1792)**، الطبعة الثانية، الـشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1976، ص. ص. 189 – 190.

(124)- هناك اختلاف بين المؤرخين حول الطريق الذي سلكه عروج، فبعضهم يذكر بأنه اتجه إلى الناحية الغربية عبـر الطريق المؤدية إلى جبل بني سناسن و منه إلى وجدة، بينما يذكر البعض الآخر بأنه اتجه نحو الشمال بهدف الوصـول إلى ساحل البحر حيث ينتظر وصول إمدادات أخيه خير الدين، لكن إذا أخذنا بعـين الاعتبـار بـأن الأسـبان كـانوا متمركزين بالشمال فإن الاحتمال الثاني يبدو ضعيفا، لأن سلوك عروج لهذا الطريق يعتبر مجازفة، لذا نرجح الاحتمال الأول.

لقد استشهد عروج بعد أن أرسى أسس دولة إسلامية قوية في مواجهـة هجمـات النصارى، فله الفضل العظيم في تأسيس الدولة الجزائرية الأولى، و قد قال عنه نور الدين عبد القادر في كتابه صفحات من تاريخ مدينة الجزائر:« ... و خير ما يقال و أصوب ما يكتب و يسطر أن بابا عروج هو أول من وضع اللبنـة الأولـى لبنـاء صـرح الدولـة الجزائرية، و أول من تنبه جليا لتمتين أساسها و تصحيحه»[125]. خلف خير الدين أخـاه عروج، و قد بذل هو الأخر جهودا مضنية من أجل إرساء أسس الدولة الجزائرية الأولى ، فكان بذلك خير خلف لخير سلف.

ب – انضمام الجزائر للخلافة العثمانية:

بعد استشهاد عروج وجد أخوه خير الدين نفسه في وضعية حرجـة، لـم يـسبق لشخص و أن عاش مثلها. فقد صارت الأخطار تهدده من كل جانب، ففي الخارج هنـاك خطر الإسبان الذين قد يستغلون فرصة انتصارهم على عروج في تلمسان، و يـسارعون إلى استئصال الأتراك من مدينة الجزائر، بالإضافة إلى أطماع الحفصيين. أما في الداخل فقد تمردت عليه كل من تنس، شرشال، و بلاد القبائل بزعامة أحمد بن القاضي، كما كان خير الدين يعاني من نقص الذخيرة الحربية و الإطار العسكري الكفء.

في هذه الظروف الصعبة عزم خير الدين على مغادرة الجزائر، و الـذهاب إلـى بحر الروم،غير أن مجلس أعيان مدينة الجزائر (C.N.V.A.) قد عقد اجتماعـا حاسـما لدراسة قرار خير الدين بالرحيل عن مدينة الجزائر، و بعـد نقـاش حـضاري ،رفـض المجلس رفضا قاطعا قرار خير الدين، حيث أُخبر هذا الأخير على لسان مفتي المدينة :« المواطنون – يقول المفتي- ليس لهم غيرك كحاكم، سيكون من غير المشرف أن تتـركهم عرضة لهجومات الكفار، الذين لا ينتظرون إلا الوقت الذي تبتعد فيه عنهم ليغرقوا هـذه البلاد بجيش من البرابرة...»[126]. ارتاح خير الدين لهذا الموقف التـاريخي، الـواعي و المسؤول، مما جعله يتراجع عن قراره ، و يوجه اهتمامه لتعزيز أسس هذه الدولة، حيث

---

(125)– بن أشنهو، المرجع السابق،ص.122. نقلا عن نور الدين عبد القادر.

(126) - علي أجقو، محاضرات في تاريخ و مؤسسات الدولة الجزائرية (1514 – 1537)، الجزء الثـاني، الطبعـة الثانية، باتنيت (BatNet) للمعلوماتية و الخدمات المكتبية، باتنة، الجزائر، 1999، ص.3.

جعل من مدينة الجزائر عاصمة لدولة ستحمل من الآن فصاعدا اسم الدولة الجزائرية بدلا من المغرب الأوسط، « هذه الدولة التي قدر لها أن تصبح قلعة جهادية أماميـة فـي مواجهة الخطط الإستعمارية الرامية للاستيلاء على المنطقة المغاربية»[127].

و بفضل عبقريته الفذة، أدرك خير الدين بأنه بحاجة إلى قوة حليفة تعينـه علـى التصدي للخطر الإسباني. و كانت الخلافة العثمانية هي القوة الإسلامية المرشـحة لهـذا التحالف.

لذلك عرض خير الدين على أعيان مدينة الجزائر فكرة طلب الحماية من السلطان العثماني سليم الأول، الذي سيمدهم بالمال و الرجال و ما يحتاجون إليه من عتاد حربـي، فرضي أهل المدينة بذلك[128]، و على إثرها طلب خير الدين من أعيان المدينة أن يكتبـوا رسالة باسمهم إلى السلطان العثماني يعرضون فيها استعدادهم لطاعتـه و يطلبـون منـه قبولهم في من تشملهم رعايته. و بذلك أرسل وفد خاص إلى استانبول يترأسه أبو العباس أحمد بن القاضي[129] على متن أربعة سفن يحمل هذه الرسالة مع هدية عظيمة للسلطان.

كانت هذه الرسالة مؤرخة في أوائل ذي القعدة سنة 925 هـ، بين 26 أكتوبر و 03 نوفمبر 1519[130]. و لا شك بأن هذا التاريخ قد جاء بعد حدوث تطـورات دوليـة هامة، ففي إسبانيا تم انتخاب شارلكان إمبراطورا على الدولة الرومانية المقدسة. و هذا ما أدى إلى تزايد الخطر الصليبي على المغرب الإسلامي، خاصة و أن شارلكان قـد كـان يرى نفسه المسؤول الأول عن حماية العالم المسيحي. و من جهة أخرى فـإن الـسلطان العثماني سليم الأول كان قد فتح مصر و الشام، و تسلم مفاتيح الأماكن المقدسـة بـصفته حامي الحرمين الشريفين.وهدا ما اكسب السلاطين العثمانيين مكانة مرموقة لدى المسلمين عامة، ومنهم المغاربة طبعا.وهذا ما نلمسه في موافقة أهالي مدينة الجزائر علـى قبـول

---

(127) - المرجع نفسه.

(128)- غزوات، المرجع السابق. ص. 42.

(129)- ورد في الرسالة إسم أحمد بن القاضي، و هو الذي سبق له و أن رافق عروج في حصار بجاية ثم في القـضاء على قارة حسن بشرشال، كما حضر حصار الاسبانيين لتلمسان، و ربما ذلك هو الذي جعل خير الدين يختـاره لهـذه المهمة، خاصة و أن أبا العباس قد عاش الأحداث السياسية للبلاد و بالتالي باستطاعته أن يصور وضعية الجزائر لـدى المسؤولين العثمانيين باستانبول بكل دقة أنظر:عبد الجليل التميمي، **"أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى الـسلطان سليم الأول سنة 1519"،**م. ت. م.، العدد 06، جويلية 1976، ص. 118.

(130) – المرجع نفسه، ص. 120.

التبعية للخلافة العثمانية. وكان المغاربة قد عبروا عن تحالفهم الفعلي مع العثمانيين عند ما رفضوا في مصر الإنضمام إلى قوات السلطان المملوكي طومان باي في حربه ضد العثمانيين حيث ردوا عليه بأنهم« لا يقاتلون سوى الفرنج و لا يقاتلون المسلمين»[131]. ويبدو أن موقف المغاربة هذا كان موقفا سياسيا وعسكريا منسجما مع عقيدتهم ومع موقف الدولة العثمانية منهم، حيث كانت تحترم العلماء المغاربة.

جاءت هده الرسالة تفيض بالولاء للسلطان العثماني ، والثناء على خير الدين، حيث جاء فيها بشأن هذا الأخير:« أظهر مزيدا من الشجاعة والجدية عندما قادنا إلى الجهاد في سبيل ا ، بنية حسنة وقلب صادق متفق الكلمة معنا في الشدة والرخاء لإعلاء كلمة ا »[132]. يفهم من هذا الكلام أن خير الدين كان بالنسبة لأهالي الجزائر، الحاكم الكفء في المغرب الإسلامي ، فهو يمتثل لأوامر الشريعة الإسلامية ويحرص على إقامة العدل و لا يدخر جهدا في سبيل الجهاد ضد النصارى.

أستقبل الوفد الجزائري في استانبول بحفاوة، وبعد الإطلاع على فحوى الرسالة وافق السلطان سليم الأول على ذلك دون تردد، لأنه أدرك بسرعة أهمية هذا العرض بالنسبة للدولة العثمانية، فمن جهة كانت الدولة العثمانية بعد ضمها لمصر وسوريا بحاجة إلى أسطول بحري قوي يضاهي قوة جيوشها البرية، ومن جهة أخرى فإن التجارة العثمانية مع الجنوب الشرقي لآسيا في المحيط الهندي كانت مهددة من طرف البرتغاليين، لذا كان عليها أن تضمن المرور بحرية عبر البحر المتوسط ، فضلا عما يمثله امتلاك هذه الأراضي من إمكانات إستراتيجية[133]. وعندما قرر أعضاء الوفد العودة إلى مدينة الجزائر أرسل السلطان معهم فرمانا إلى خير الدين يتضمن قبوله دخول الجزائر ضمن أقاليمه، ومنح هذا الأخير لقب بايلرباي، كما وافق السلطان على ذكر اسمه في الخطبة وأن تضرب السكة باسمه[134]، بالإضافة إلى إرسال أسطول إسلامي إلى الجزائر يحمل

---

[131] ليلى الصباغ، **"الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث"**، م.ت.م- العدد 7-8 ،. جانفي1977،ص.95.

[132] - عبد الجليل التميمي، أول رسالة ...، المرجع السابق، ص. ص.177- 118.

[133] - أندري كلو، المرجع السابق، ص ص. 170-171.

[134] - GALIBERT, op.cit., P. 174.

ألفي إنكشاري وكمية ضخمة من العتاد والسلاح، كما دعمهم بأربعة ألاف من المتطوعين الذين منحهم امتيازات الإنكشارية[135].

وهنا تجدر الإشارة إلى القول بأن قرار انضمام الجزائر للخلافة العثمانية قد كـان قرارا طوعيا، تم اتخاذه بعد مشاورات شارك فيها علماء الجزائـر و صـلحاؤها وبعـد تحليلهم للوضع تبين لهم بأن ذلك هو الخيار الأسلم. و فعلا فقد كان خيارا استراتيجيا بكل الأبعاد وهذا ما يؤكده الدكتور علي أجقو بقولـه :« يتبـين لنـا إذا أن خيـار الجزائـر والجزائريين كان خيارا عقائديا أولا، حضاريا ثانيا، واستراتيجيا ثالثا وأخيرا»[136].

وبفضل الدعم العثماني تحول خير الدين من مجرد أمير للبحر إلى رئيس دولـة مرتبطة بالخلافة العثمانية ومتحالفة معها ضد إسبانيا زعيمة العالم المـسيحي[137]، وقـد أدرك المؤرخون الأوربيون أهمية هذا الارتباط ووصفوه بأنه« بـادرة غيـرت مجـرى التاريخ الإفريقي»[138].

ومما زاد في تعزيز مكانة خير الدين بالجزائر، و اكتسابه ثقة أهلها هـو تـصديه للحملة الإسبانية على مدينة الجزائر سنة 1519، التي قادها هيجو دي مونكـاد (Hugo De Moncade)، التي انتهت بهزيمة كارثية للإسبان، حيث تحطمت لهم 26 سفينة من مجموع 40 سفينة، وغرق لهم أربعة آلاف جندي في البحر، فيما وقع ثلاثة آلاف شـخص فـي الأسر، منهم 36 ضابط[139].وهنا لابد من الإشارة إلى أسباب هذه الهزيمة الإسبانية، فقـد ذكر هايدو[140]، أن عاصفة هوجاء هبت فجأة فأدت إلى تحطم أغلب سفن الأسطول، ليقع الهجوم الجزائري، وهذا التفسير تداوله الكثير من المؤرخين الغربيين، الـذين يرجعـون أسباب الهزائم الأوربية أمام الجزائر إلى عوامل طبيعية متجاهلين بـذلك الحـديث عـن المقاومة البطولية للجزائريين، وشجاعتهم، وفعالية خططهم العـسكرية، وهـذا التفـسير

(135)- E.CAT, op.cit., P. 243.

(136) -علي أجقو، المرجع السابق، ص.4.

(137) -عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 54.

(138) - شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص.325.

(139) - غزوات، المرجع السابق، ص. ص.36 – 37.

(140) – HAEDO, op. cit., P. 45.

المتحامل من جانب المؤرخين الأوربيين يراد به تغطية هذه الهـزائم و التخفيـف مـن وطأتها و تقزيم العمل الجهادي للشعب الجزائري.

أدى تألق نجم خير الدين إلى إثارة حسد حاكم تونس الحفصي، الذي شعر بالخطر يهدد عرشه« فركب متن الفساد و الفتنة بين نواب خير الدين »[141]. كما تجددت أطمـاع حاكم تلمسان في الجزائر، لذلك عمل كل من حاكم تونس وحاكم تلمـسان علـى توحيـد جهودهما ضد خير الدين وذلك بمحاولة إستقطاب عاملي هذا الأخيـر علـى المنطقتـين الشرقية والغربية وهما أبو العباس أحمد بن القاضي ومحمد بن علي[142]. وهذا مـا أدى إلى حدوث فتنة في الجزائر، اضطر على إثرها خير الدين إلى مغادرة مدينة الجزائـر، والعودة إلى مدينة جيجل، حيث إستقر بها لمدة خمس سنوات (1520 – 1525)، إستغلها في إعادة بناء أسطوله، ومهاجمة السواحل الأوربية المطلة على المتوسط .وبعد أن تمكن من تنظيم جيشه، فتح القل سنة 1521، ثم عنابة و قسنطينة سنة 1522، وفي سنة 1525 استغل خير الدين نقمة أهالي الجزائر على ابن القاضي، فاتجه بقواته إلى متيجـة حيـث خاض مواجهات عنيفة ضد قوات هذا الأخير، و قد تمكن من الانتصار عليـه، و بـذلك تمكن خير الدين من دخول مدينة الجزائر حيث استقبله أهلها بابتهاج. بعدها توجـه إلـى شرشال لتأديب قارة حسن الذي تمرد عليه فتمكن منه وقتله، ثم توجه إلى تلمسان وأخضع حاكمها مولاي عبد ا وأرغمه على دفع ضريبة[143]، وبهذا يكون خير الدين قد وحّـد الجبهة الداخلية، وصار يتحكم في المنطقة الممتدة من جيجل إلى مستغانم ما عدا بجايـة وقلعة البنيون بمدينة الجزائر، وأصبح باستطاعته التصدي للحملات الإسبانية بقوة. لكـن وجود الإسبان في قلعة البنيون ظل يقض مضاجع أهالي مدينة الجزائـر، لـذلك كانـت الخطوة التالية لخير الدين هي تحطيم هذه القلعة التي كان الجزائريون يعتبرون وجودهـا إهانة لهم.

ج- تحرير قلعة البنيون من الوجود الإسباني سنة 1529:

---

(141) - ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ص. 11.

(142) - غزوات، المرجع السابق، ص. 44.

(143) -MOULOUD GAID, op. cit., PP. 50-51.

بعد توطيده للأمن الداخلي، قرر خير الدين تخليص مدينـة الجزائـر مـن قلعـة البنيون، التي كانت مصدر أذى للجزائريين منذ تأسيسها سنة 1510، كما أن سفن خيـر الدين قد بلغت عشرين سفينة، وكان يضطر إلى إبقائها خارج باب الوادي حتـى تكـون بعيدة عن متناول المدفعية الإسبانية، لذا صار بحاجة إلى ميناء، وعليـه أصـبح طـرد الإسبان من القلعة ضرورة حتمية تمكن خير الدين من امتلاك ميناء آمن لسفنه وتزيد من سمعته لدى الأهالي.

كان قائد القلعة آنذاك هو دون مارتن دي فيرغاس (Don Martin De Vergas)، وكان معه 150 جندي كلهم من قدماء المحاربين[(144)]. وكانت تلك الحامية تعيش فـي ظـروف صعبة، حيث ظلت تشكو من نقص التموين، وحتى الماء، كانت تضطر إلى التزود به من جزيرة مايوركة الإسبانية[(145)]. لذلك استغل خير الدين هذا الوضع، وأرسل إلى قائد القلعة يطلب منه الكف عن أذية سكان المدينة، و إلا سيكون رده عنيفا وحاسما، لكن الحامية لم تأخذ هذا الإنذار مأخذ الجد، وحينها نصب خير الدين مدافعه وصوبها نحو القلعة، وبـدأ في قصفها يوم 06 ماي1529[(146)]. فرد الإسبان على ذلك بالمدفعية فأصابوا الكثيـر مـن المنازل، وقد استمر القصف المتبادل بين الطرفين لمدة خمسة عشرة يوما، تمكنت خلالها المدفعية الجزائرية من هدم أبراج القلعة[(147)]، وقتل عدد من حاميتها، بعدها طلـب خيـر الدين من بقية المعتصمين بالحصن الانسحاب منه بكل حرية إلى بلادهم وتعهد بحمـايتهم من جنده لكن قائد الحامية ومن بقي معه رفضوا ذلك، وأجابوا بأنهم يفضلون الموت على الاستسلام[(148)]. وحينها صمم خير الدين على مهاجمتهم.

وفي ليلة الخميس إلى الجمعة 27 من ماي 1529 اقتربت سفن الجزائـريين مـن القلعة وحاصرتها، بعدها قفز الجزائريون إلى الأرض، وانقضوا على من بقي بالقلعة، وقد تمكنوا من أسرهم جميعا ،وقد قتل 11 تركيا و35 عربيا أما الإسبان فقد فقدوا 65 قتيل، أما

---

(144) - ALBERT PRIEUR, **Les Barbarousses,Corsaires Et Rois D'Alger**, édition ARC – EN – Cie, Paris, S.D., P. 111.

(145) -DE GRAMMONT, op. cit ., P. 34.

(146) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص.215.

(147) – PRIEUR, op. cit., P. 112

(148) -Ibid .P.114.

عدد الأسرى الإسبان فكان 90 جنديا، بالإضافة إلى 25 طفلا و إمرأة[149]، أما قائد الحامية مارتن دي فيرغاس فكان ضمن الأسرى، حيث أخذ إلى خير الدين فعامله هـذا الأخيـر معاملة تليق بمقامه كقائد عسكري، و قد عرض عليه الإسلام في البداية، لكنه رفض ذلك و هنا قرر خير الدين أن يتولى قتله بنفسه، و قد لجأ إلى ذلك لكي لا تستطيع إسـبانيا أن تجعل من هذا القائد بطلا قوميا.

بعد ذلك مباشرة أمر خير الدين بتهديم القلعة و السور المحيط بها، وأقـام علـى أنقاضها رصيف طوله 200متر وعرضه 25 متر وارتفاعه أربعة أمتار،مكن من ربـط الجزيرة بالأرض، وبهذا صار لمدينة الجزائر ميناء يحمي سفنها الراسية مـن الريـاح الشمالية الغربية[150].

و بهذا تكون الدولة الجزائرية قد تأسست بشكل نهائي[151].ومنذ ذلك الحين وعلى مدى ثلاثة قرون، ظلت الجزائر تثير الرعب في منطقة البحر الأبيض المتوسـط. ومـن حينها أيضا صارت الجزائر معقلا قويا للنشاط البحري في البحر المتوسط.

المبحث الرابع: تنامي قوة الجزائر واشتداد الصراع الإسـلامي – المـسيحي (1530-1540).

1-الحملة الإسبانية على شرشال سنة 1531 وفشلها:

أدى تحرير قلعة البنيون و طرد الإسبان منها إلى إثارة موجة من الغـضب فـي الأوساط الإسبانية وخاصة لدى سكان السواحل، الذين أرسلوا عـدة شـكاوى للـسلطات الإسبانية يطلبون منها تخليصهم مما هم فيه من رعب تحت تهديد الأتراك[152]. لذلك قرر شارلكان توجيه حملة إلى الجزائر عام 1530 بهدف الانتقام من الدولة الجزائرية و إبعاد خطرها عن البحر المتوسط. وقد أسند قيادة هذه الحملة إلـى أنـدري دوريـا (Andre

---

(149)- DE LA PRIMAUDAIE, Documents ..., " Lettre écrite d'Alger par un espion juif", R. A., tome 19, 1875, P. 165.

(150) -DE GRAMMONT, op.cit., P. 35.

(151) - DE GRAMMONT, op.cit., P.36.

(152)- عزيز سامح إلتر،**الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، ترجمة محمود علي عـامر، الطبعـة الأولـى، دار النهضة العربية، بيروت، ،1989، ص. 94.

Doria).الجنوي الذي صار في خدمته منذ سنة 1528، بعد ما كان في خدمـة الملـك الفرنسي فرانسوا الأول.

شرع أندري دوريا في إعداد الأسطول وتجهيزه، وقد اختار شرشال كنقطة لإنزال قواته وهذا نظرا للموقع الإستراتيجي لهذه المدينة، لقربها من جزر البليار والرجوع منها إلى إسبانيا لا يتطلب سوى بضع ساعات، أما هايدو فيذكر بأن إختيار دوريا لشرشال جاء تلبية لنجدة المساجين المسيحيين، الذين كان عددهم أكثر من ثمانمائة شخص(153). لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مدينة شرشال قد استقبلت أعدادا كبيرة من المهاجرين الأندلسيين، والذين استقروا بها وساهموا في مختلف الغارات التي شنها الجزائريون ضـد الـسواحل الإسبانية، فلا يستبعد أن تكون من بين دوافع اختيار شرشال هو الإنتقام من الأندلـسيين وتشتيتهم.

كان خير الدين قد عزز التحصينات التي أقامها أخوه عروج بمدينة شرشال و أقام بها رصيفا مماثلا لذلك الذي أقامه في مدينة الجزائر مستخدما الأسرى المسيحيين(154).

إستمر إعداد الحملة الإسبانية قرابة سنة، وفي شهر جويلية 1531 تحرك الأسطول الإسباني من جنوة باتجاه شرشال، وكان يتكون من عشرين سفينة جيدة التـسليح تحمـل على متنها ألف و خمسمائة شخص(155)، وعند وصول الأسطول الإسباني إلـى شرشـال أضطر سكان المدينة إلى إخلائها فيما اضطرت الحامية إلى الاحتماء وراء أسوار القلعة، و الدفاع عنها، في انتظار وصول المساعدات من الجزائر وقدوم التعبئة العامة من داخل البلاد(156).

وقد تمكنت القوات الإسبانية من دخول مدينة شرشال دون مقاومـة تـذكر. وتـم تحرير المساجين النصارى، وقد أعطيت الأوامر للجنود الإسبان بالعودة إلى السفن عنـد

-(153)HAEDO, op. cit., P. 52.

-(154) PRIEUR , op. cit., P. 120.

(155) – DE GRAMMONT, op.cit., P.37.

(156) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 234.

تلقيهم الإشارة المتفق عليها[157]، وعدم الانغماس في سلب المدينة خوفا من وصول الأسطول الجزائري.

وفيما اتجه الأسرى إلى السفن، انشغل الجنود بنهب المدينة وجمع الغنائم وكان الجنود المسلمون المعتصمون بالقلعة يراقبون تحركات العدو، وعندما لاحظوا تلك الفوضى التي آل إليها الجيش الإسباني،إنقضوا عليه ومعهم المهاجرين الأندلسيين و سكان المناطق المجاورة، بينما كانت مدفعية القلعة تقذف سفن الأسطول الإسباني، فانتهى ذلك اليوم بمقتل ألف و أربعمائة إسباني حسب المصادر الإسلامية[158]، وأربعمائة حسب المصادر الغربية[159].

أما دوريا عندما أدرك خطورة الموقف جرّاء تعرض أسطوله للقصف المدفعي، قرر الانسحاب بسرعة تاركا ستمائة أسير في قبضة الجزائريين[160]. أما خير الدين فقد حل بشرشال، و تمكن من الاستيلاء على سفينتين محملتين بالأسلحة والمؤن تابعتين لأسطول دوريا[161].

كانت لهذا النصر الجزائري نتائج هامة داخليا وخارجيا. أما على المستوى الداخلي فقد ازدادت هيبة الدولة و أمتد سلطانها، بفضل إلتحام الشعب مع السلطة الحاكمة، أما على المستوى الخارجي فقد تراجعت مكانة دوريا بعد فراره أمام أسطول خير الدين، وبالمقابل زادت شهرة هذا الأخير، وخاصة لدى الدوائر السياسية في إستانبول، التي أرادت أن تستثمر كفاءة خير الدين في دحر أعداء الإسلام، وذلك بمنحه فرصة أكبر وأوسع.

2-خير الدين يتولى قيادة الأسطول العثماني:

إثر هذه النجاحات البطولية التي أحرزها خير الدين ضد القوات الإسبانية منذ تحريره لقلعة البنيون، وكذا الدور الهام الذي لعبه في نجدة مسلمي الأندلس المضطهدين،

---

(157)-HAEO, op. cit., P. 53.

(158) - غزوات، المرجع السابق، ص. 72.

(159)-PELLISSIER, op.cit., P. 43 .

(160)-HAEDO, op. cit ., P. 53.

(161) -PRIEUR ,op. cit., P. 121.

حيث تمكن من إنقاذ حوالي سبعين ألفا منهم بنقلهم إلى السواحل الجزائرية[162]، ذاعـت شهرته في الآفاق، وهذا ما دفع بالسلطان العثماني سليمان القانوني، الذي كانـت بـلاده تخوض مواجهات بحرية ضد القوى الأوربية، بقيادة آندري دوريا[163]، إلى البحث عـن شخصية بحرية إسلامية في مثل كفاءة و خبرة هذا الأخير. فلم يجد سوى خير الدين الذي أثبت أنه يفوق دوريا خبرة وبراعة. لذلك قرر السلطان سليمان إستدعاءه إلـى إسـتانبول بهدف تعيينه قائدا للبحرية العثمانية، لمواجهة أندي دوريا. لذلك أرسل السلطان فرمانا إلى خير الدين خلال سنة 1533 جاء فيه: « رغبتي توجيه عمل ضد إسبانيا، ضـع مكانـك رجلا جيدا وعاقلا، وأسرع إلينا، وإذا لم تجد من تتوفر فيه المقدرة أعلمنا»[164].

وعند وصول الفرمان إلى خير الدين جمع علماء، مشايخ و أعيان مدينة الجزائـر وأطلعهم على الأمر، وأخبرهم عن عزمه على تلبية الدعوة.

استخاف خير الدين على الجزائر حسن آغا[165]،أحد مساعديه وأكثـرهم كفـاءة، وتوجه إلى إستانبول على رأس أسطول يتكون من نحو عشرين سفينة[166]، وفي طريقـه هاجم بعض المواقع المسيحية التي كانت تؤذي المسلمين، منها سواحل سردينيا، صـقلية وجزيرة آلبا، استولى خلالها على العديد من السفن و الأسرى[167].

وصل خير الدين إلى إستانبول في سنة 1534[168]، على رأس أسطول من أربعين سفينة جيدة التسليح، يحمل معه غنائم معتبرة، وقد حظي بإستقبال حار[169].

شرح خير الدين خطته للسلطان سليمان، والتي تعتمد على تضييق الخنـاق علـى الإسبان في عقر دارهم، بعد طردهم من المغرب الإسلامي، ثم مهاجمـة جـزر البحـر المتوسط وسواحل إيطاليا في نفس الوقت بحيث لا يترك لأندري دوريا أي ملجـأ ولا أي

---

(162) - غزوات، المرجع السابق، ص.82.

(163) - تمكن دوريا من إحتلال كورون (Koron) الواقعة بالساحل الغربي من خليج مسينا جنوب غرب المورة سـنة 1532 كما إحتل باطراس (Patras) بشمال غرب المورة وبالتالي صار الخطر المسيحي يهدد جزر البحـر المتوسـط التابعة لسلطة الدولة العثمانية، أنظر: محمد فريد بك، المرجع السابق، ص. 219.

(164) – إلتر، المرجع السابق، ص.100. نقلا عن تحفة الكبار.

(165) - الذي قاد المقاومة الجزائرية ضد قوات التحالف الأوربي عام 1541.

(166) - أحمد توفيق المدني،المرجع السابق، ص. 229.

(167)-GALIBERT,op. cit ., P. 177.

(168) – إلتر، المرجع السابق، ص. 103.

(169)-PRIEUR, op. cit., P. 135.

مكان للتموين[170]. يبدو من خلال هذه الخطة أن خير الدين يملك خبرة واسعة بـشؤون البحر المتوسط، وهذا ما مكنه من التصدي للمشاريع الصليبية في المنطقة.منح الـسلطان سليمان خير الدين لقب قابودان باشا، أي قائد الأسطول العثماني، و أعطـاه صـلاحيات واسعة فيما يخص صناعة السفن وتجهيز الأسطول، كما زوده بثمانين سفينة وثمانية آلاف جندي مع ما يلزمه لإنجاز هذه المهمة[171].

وبهذا تحالفت البحرية الجزائرية مع البحرية العثمانية لتشكل جبهة إسلامية قويـة في مواجهة الجبهة المسيحية الأوربية بقيادة إسبانيا. وبذلك أشتد الصراع بين الجبهتين في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد كانت أول مواجهة بينهما في تونس.

3- تونس بين خير الدين و شارلكان 1534-1535:

نظرا للموقع الإستراتيجي الذي تحتله تونس في منطقة البحر الأبـيض المتوسـط حيث تشرف على مضيق صقلية كما تتوسط الساحل الشمالي لإفريقيا، و بالتـالي فالـذي يسيطر عليها يتمكن من قطع المواصلات بين حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربـي فضلا عن كونها قريبة من مالطة، نابولي وصقلية، وهي مراسي تسمح للسفن الإسـبانية بالتزود بالمؤونة والخشب، كما أن موانئها تسمح بالتحكم في المواصلات البحريـة فـي البحر المتوسط، ونظرا لكل هذه الاعتبارات صارت تونس محل صراع عنيف بين الدولة العثمانية و إسبانيا طيلة القرن السادس عشر.

كانت تونس تعيش إضطرابات داخلية سببها الصراع على السلطة، إذ لمـا تـولى الحكم مولاي حسن سنة 1526 فتك بكل إخوته، ولم ينج منهم سوى الرشيد الذي إلتجأ إلى خير الدين، فوجدها هذا الأخير فرصة، فأصطحبه معه إلى إستانبول. وتمكن مـن إقنـاع السلطان سليمان بمهاجمة تونس، خاصة وأن فتحها يمكن الدولة العثمانية من بسط نفوذها على شمال إفريقيا[172].

(170) -MERCIER, op. cit., P. 34.
(171) - Ibid.
(172) - إلتر، المرجع السابق، ص. 110.

أذن السلطان لخير الدين بتجهيز الأسطول لمهاجمة تـونس وأمـده بثمانيـة آلاف جندي ، وفي 15أوت1534 وصل خير الدين بأسطوله إلى بنزرت، وعندما علم مـولاي حسن بذلك إنطلق يجول في الشوارع يطلب نجدة الأهالي. لكن الشعب التونسي كان ناقما عليه فلم يستجب لندائه، و في اليوم الموالي دخل خير الدين حلق الوادي دون عناء، بعدها توجه إلى مدينة تونس حيث فتحت له أبوابها و إستقبله أهلها الذين كـانوا يعتقـدون أنـه أحضر معه الأمير الرشيد لينصبه على العرش، لكن خير الدين كان ينوي إلحاق تـونس بدولة الخلافة العثمانية مباشرة، فلما علم الأهالي بذلك إتصلوا بمولاي حسن وطلبوا منـه العودة إلى تونس ووعدوه بالمساعدة على طرد الأتراك[173]، فتشجع لذلك وخـرج إلـى تونس يرافقه أربعة آلاف فارس، وبعد مواجهات عنيفة بين الطرفين في باب الجزيـرة، كانت الغلبة فيها لمولاي حسن، إضطر خير الدين إلي طلب إمدادات جديدة تمثلت في ألف و ثمانمائة مقاتل مزودين بأسلحة نارية، أرغم مولاي حسن على الفرار، أما الأهالي فقـد أعلنوا ولاءهم لخير الدين[174]، وبذلك دخل هذا الأخير إلى تونس وألحقها بالباب العالي.

وبدخول تونس تحت السيادة العثمانية يكون خير الدين قد بـسط سـيطرته علـى الحوض الغربي للبحر المتوسط، وبالتالي صار بإمكانه أن يتحكم في طرق مواصلاته، بل صار يشكل خطرا على إسبانيا نفسها، الشيء الذي دفع شارلكان إلى القيام برد فعل حاسم و سريع.

أمام تزايد الخطر الإسلامي على إسبانيا، قرر شارلكان القيام بحملة عسكرية على تونس كان يهدف من ورائها إلى عزل العثمانيين عن المشرق وعـن القـسطنطينية[175]، خاصة وأن السواحل التونسية كانت تتحكم في الطريق الرئيسي الواصل بين الحوضـين الشرقي و الغربي للبحر المتوسط.

---

(173) –DE LA PRIMAUDAIE, Documents**...**, **"Relation du frère JUAN DE IRIBES sur Les événements du Tunis, 4 janvier 1535"**, R. A., tome 19, 1875, PP. 345-346.

(174) – DE LA PRIMAUDAIE, Documents**...**, **"Relation du frère**…" ,op.cit., PP. 345-346.

(175) – BRAUDEL, Les Espagnols..., op. cit., P. 353.

كما أن شارلكان قد أدرك أنه إذا لم يتدخل بسرعة فإن دولة إسلامية كبيرة يمكن أن تظهر في شمال إفريقيا، وبدعم من العثمانيين ستشكل تهديدا خطيرا على إسبانيا، وربما تعيد شبح إعادة فتح إسبانيا[176].

إستغل شارلكان فرصة إنشغال الدولة العثمانية في حربها ضد إيران[177]، كما استغل فرصة إستنجاد مولاي حسن بإسبانيا لإسترجاع عرشه، وأمر بتجهيز حملة ضخمة لمهاجمة تونس تولى قيادتها بنفسه.

إنطلقت الأرمادة الإسبانية من برشلونة في 31 ماي 1535، وقد كانت مؤلفة من عدة عناصر إسبانية، إيطالية، ألمانية و برتغالية[178]، بالإضافة إلى فرسان مالطة، أما تعدادها فكان أربعمائة سفينة على متنها خمسة و عشرون ألف شخص[179].

لم يكن مع خير الدين في مواجهة هذه الحملة سوى سبعة آلاف جندي من الأتراك ونحو خمسة آلاف من التونسيين [180]، ورغم ذلك فقد أراد منازلة أقوى ملوك المسيحية[181].

وفي 14 جوان 1535 وصلت الأرمادة إلى حلق الوادي، وبعد مواجهات عنيفة فقدت فيها القوات المعتدية ستة آلاف جندي[182]، تمكن الإسبان بعد تلقيهم نجدة تتألف من ألف و مائتي جندي[183] من الإستيلاء على حصن حلق الوادي في 14 جويلية 1535، لتنتقل المعركة إلى مدينة تونس.

وبينما كان خير الدين وجنوده منشغلين في إيقاف زحف القوات الأوربية، تمكن الأسرى المسيحيون في مدينة تونس، وكان عددهم إثنى عشر ألف شخص من فك قيودهم وانقضوا على قوات خير الدين من الخلف، وأمام هذه الوضعية الحرجة اضطر هذا

---

(176) - أندري كلو، المرجع السابق،ص، 173.

(177) - حول هذا الموضوع أنظر: محمد فريد بك، المرجع السابق، ص. ص. 222 -223.

(178) – جون ب. وولف، المرجع السابق، ص.47.

(179) - GALIBERT, op. cit., P. 178.

(180) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص.231.

(181) - GALIBERT, op.cit., P. 178.

(182) - غزوات، المرجع السابق، ص.96.

(183) - DE LA PRIMAUDAIE, Documents ..., "**Compte Rendu d'une Lettre de l' Empereur Ecrite du Camp Devant la Goulette 29 Juin 1535**". R.A., tome 19, 1875, P. 357.

الأخير إلى الإنسحاب إلى مدينة عنابة[184]، حيث كان قد ترك بها جـزء مـن أسـطوله لتأمين خطوطه الخلفية.

إستقبل العالم المسيحي نبأ إنتصار شارلكان في تونس بإبتهاج عظيم، حيث إعتبـر يوم 14 جويلية 1535 يوما مشهودا في تاريخ المسيحية، قال عنـه بريـور (Prieur):« كان اليوم شديدا، وكان يوم الإنتقام، يوم الموت، العز، و الآمال الروحية، يوما مـشهودا في تاريخ المسيحية، حارب أثناءه فكر ضد فكر [أي المسيحية ضد الإسلام]، وكان يُحس بكل التصادم بين جنسين عدوين» [185]، فهذا القول يعبر عن درجة الحقد الصليبي علـى المسلمين ، هذا الحقد الذي عبر عنه جنود الحملة على أرض الواقـع بتلـك التـصرفات المشينة التي مارسوها ضد المسلمين التونسيين، فقد أبيحت مدينة تونس لمدة ثلاثة أيـام، عانى خلالها المسلمون من مختلف عمليات السلب، النهب، انتهاك الحرمـات، الاعتـداء على المقدسات وإحراق الكتب القيمة، وقد تجاوز عدد القتلى سبعون ألفا[186]« ويقال فـي هذه الواقعة مات الثلث من أهل تونس، ونجا الثلث، و أسر الثلث»[187].

وإذا كان بعض المؤرخين الأوربيين قد حاول تبرئة ذمة شارلكان من هذه الفظائع بقولهم بأنه وافق على ذلك تحت ضغط جنوده، فإن ما جاء في الرسالة التي بعـث بهـا شارلكان نفسه إلى حاكم بجاية يوم 23 جويلية 1535 تؤكد مسؤوليته عما حدث، حيـث جاء فيها:«بما أن سكان مدينة تونس لم يقابلوا ملكهم كما يجـب أن يكـون، وكمـا هـو واجبهم، فقد ارتأينا معاقبتهم لعنادهم والسماح بنهب المدينة»[188]. فهذا القول يعتبر حجـة دامغة ضد كل من يحاول تبرئة ذمة شارلكان من فضائع تونس.

---

(184) – DE GRAMMONT, op.cit., P. 39.

(185) - Le 14 juillet la journée est très dure, c'est une journée de vengeance, de mort, de gloire, d'espoir mystique, journée mémorable dans les fastes de chrétienté. Et au cours de laquelle l'idée lutte contre l'idée on y sent tout l'acharnement de deux races antagonistes ».voir: Prieur. op. cit. P.160.

(186) - PELLISSIER , op.cit., P.55.

(187) - ابن أبي الضياف، المرجع السابق، ص. 14.

(188) - «Comme les habitants n'ont pas accueilli leur souverain, ainsi qu'ils devaient le faire ,et qu'il avait le droit de l'être. Nous avons cru devoir pour les punir de leur obstination, permettre le pillage de la ville». Voir:DE LA PRIMAUDAIE. Document..., "**Lettre de sa majesté au commandant de Bougie, Tunis, 23 juillet 1535",R.A., tome 19, 1875,** P. 496.

رغم إحتقار شارلكان لمولاي حسن، ورغم أنه كان يعلم بأن التونـسيين يمقتونـه أيضا، إلا انه أعاد تنصيبه ملكا على عرش تونس تحت التبعية الإسبانية، وفي الثامن أوت 1535[189] وقع مولاي حسن على معاهدة مع شارلكان تضمنت بنودا قاسية منها:

-إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين في تونس.

-أن يتنازل مولاي حسن للإمبراطور عن حلق الوادي، عنابة و المهدية.

-أن يلتزم بدفع ضريبة سنوية لشارلكان قدرها 12 ألف دوكة.

-أن يلتزم بعدم السماح للبحارة المسلمين بالرسو في الموانيء التونسية، وألا يدخل بـلاده أحد من مهاجري الأندلس.

استمر شارلكان على نهج فرديناند الكاثوليكي، حيث أعاد بناء حصن حلق الـوادي وترك به حامية من ألف جندي إسباني، وعاد إلى إسبانيا في 17 أوت 1535[190].

و بإحتلاله لتونس يكون شارلكان قد دعم مركزه في البحر المتوسط، حيث صـار يملك عدة نقاط ارتكاز مثل: مالطة، صقلية، نابولي، تونس وطرابلس، غير أن ذلـك لـم يمنع من تلقي إسبانيا لضربات مؤلمة على يد البحارة الجزائريين، الذين ظلـوا يثيـرون الرعب لدى سكان السواحل الإسبانية، الشيء الذي جعل شارلكان يقر بأن أمن إسـبانيا لا يتحقق إلا بتحطيم القوة الجزائرية، فبدأ يعمل على تحقيق هذا الهدف.

4- معركة بريفيزا1538:

قرر خير الدين الرد على احتلال الإسبان لتونس، بتوجيه ضربة عنيفة، تحدى بها الإسبان في عقر دارهم، وقد اختار مدينة ماهون، عاصمة جزر البليار هدفا لذلك فجهـز أسطولا ضخما و انطلق به نحو المدينة المذكورة، وقد كان أهلها يحتفلون بانتصارهم في تونس.لكن خير الدين انقض عليهم فجأة فأحتل المدينة واستحوذ على غنائم كثيـرة، ثـم

---

[189] – إلنر، المرجع السابق، ص.119.

[190] - محمد فريد بك، المرجع السابق، ص. 233.

أحتل مينوركة بأكملها ثم عاد إلى مدينة الجزائر محملا بالغنائم مع ستة آلاف أسير[191]، وبعدها عاد إلى استانبول في 15 أكتوبر 1535 [192] تلبية لطلب السلطان.

لقد أحدثت هذه النكبة التي حلت بجزر البليار هلعا كبيرا في أوساط البلاد المسيحية ومحت آثار انتصار شارلكان بتونس، وجعلته يتأكد بأن صفحة الـصراع المريـر ضـد المسلمين لم تنته بعد.

فقد ترتب عن احتلال الإسبان لتونس عدة نتائج منها دخول الدولة العثمانيـة فـي تحالف رسمي مع فرنسا سنة 1536، وهذا ما أدى إلى تطويق الإمبراطورية الرومانيـة المقدسة من قبل خصومها الفرنسيين و العثمانيين، نتج عنه استئناف الصراع بينهم مـن جديد.

ومن جهة أخرى فإن سقوط تونس قد أدى إلى انتقال مركز الصراع الإمبراطوري إلى الحوض الشرقي للبحر المتوسط. ونظرا للقوة التي صـارت تتمتـع بهـا البحريـة الجزائرية فقد قرر السلطان سليمان إقحامها في صراعه ضد الإسبان ليس في الحـوض الغربي للبحر المتوسط فقط، بل حتى في الحوض الشرقي كذلك.

تجددت الحرب بين فرنسا و إسبانيا سنة 1535، وفـي سـنة 1536[193] زحـف شارلكان على إقليم بروفانس (Provence) الفرنسي، على رأس جـيش يتكـون مـن خمسين ألف رجل وقد تمكن من عبور الوار (war)، و اكتساح منطقة بروفـانس، فلـم يتمكن فرانسوا الأول من المقاومة، لذلك أمر بإخلاء المدن الفرنسية ولم تبق سـوى آرل (Arles) و مرسيليا المحصنتين، وقد نجحت خطة فرانسوا الأول في إحراق المحاصـيل الزراعية حيث تسببت في حدوث مجاعة رهيبة وسط الجيش الإسباني أدت إلـى هـلاك أكثر من 25 ألف شخص، ورغم هذا النجاح الذي كلفه غاليا إلا أن فرانـسوا الأول قـد

---

[191]- إلتر، المرجع السابق، ص. 121.

[192] – DE GRAMMONT, op. cit., P. 40.

[193] – GARROT, op. cit., P. 403.

وجد نفسه مضطرا إلى طلب نجدة السلطان سليمان، لذا عجل بإرسال سفيره لافوري إلى إستانبول لطلب المساعدة[194].

لبى السلطان سليمان النجدة، وعبر مقدونيا متجها إلى البحر الأيوني على رأس مائة ألف جندي، وهناك التقى بأسطول خير الدين، وكان هذا الأخير قد كلف بمهاجمة السواحل الإيطالية بالإضافة إلى كورفو[195] التابعة للجنويين الذين كانوا يهاجمون السفن العثمانية.

وكانت الخطة تقضي باختراق العثمانيين لقناة أوترانت (Otrante) و إنزال الجند في إيطاليا، في حين تقوم الجيوش الفرنسية باختراق الألب ودخول الأراضي الإيطالية، لذا أمر السلطان سليمان بمهاجمة كورفو، حيث تمكن خير الدين في هذه العملية من أسر ستة عشر ألف مسيحي[196]، لكن البابا بول الثالث (Paul III) قد تمكن من التأثير على فرانسوا الأول، حيث وقع هذا الأخير هدنة مع شارلكان لمدة عشر سنوات، وذلك سنة 1538، وهذا ما سمح بتشكيل حلف مقدس لضرب العثمانيين[197]، ضم إسبانيا، البابوية، البندقية وفرسان مالطة، وذلك في فيفري 1538[198].

شكلت القوات المتحالفة أسطولا صليبيا ضم مائتي سفينة على متنها أكثر من 60 ألف رجل، بينما كان الأسطول العثماني يضم 130 سفينة على متنها 30 ألف رجل، وكان اللقاء في خليج آرتا (Arta)، وبالضبط في بريفيزا (Preveza)[199].

كان الأسطول العثماني بقيادة خير الدين بينما كان أندري دوريا يقود أسطول التحالف المسيحي، و قد أسفرت المواجهات الأولى عن تحطيم أربع سفن مسيحية،منها سفينتين إسبانيتين كانتا مملوءتين بالجنود، كما تمكن البحارة المسلمون من الإستيلاء على قطعة تابعة للبابوية وأخرى تابعة للبندقية، وأمام الخطر الذي يهدد أسطول أندري دوريا،

---

(194) – Ibid.

(195) - كورفو (Korfou): جزيرة تقع على الساحل الغربي لليونان،و هي إحدى الجزر الأيونية و أهمها، تبعد عن الساحل الإيطالي بنحو 100 كم.

(196) - Ibid.

(197) – C., BRANDI, **CHARLES-QUINT et son temps(1500-1558)**,Payot,Paris,1951, P. 404.

(198) - جون ب. وولف، المرجع السابق، ص.53.

(199) - بريفيزا (Preveza) تقع على الساحل الشرقي للبحر الأيوني، إلى الشمال من خليج آرتا، وهي حاليا تابعة لليونان.

فضل هذا الأخير الإنسحاب من المعركة، والذهاب إلى كورفو بعدما أطفا الأنوار وسـار تحت ظلام الليل وسقوط الأمطار الغزيرة[200]. ولم يجرؤ على مواجهة خير الدين، ولمـا كان الموسم متأخرا وانتهت فترة الإبحار، فقد قرر هذا الأخير العودة إلـى موقعـه الأول بخليج آرتا. أما أندري دوريا فقد حاول عبثا إصلاح ما أفسده في مياه بريفيزا، حيث هاجم كاستيل نوفو(Castel Nuovo) ووضع بها حامية إسبانية[201]، فلم يتمكن خير الدين مـن نجدتها لسوء الأحوال الجوية التي تسببت في غرق العديد من سفنه[202].

إنتهت معركة بريفيزا بانتصار الأسطول الإسلامي على قوات التحالف الـصليبي، وتصدع هذا الحلف بعد إنسحاب البنادقة، الذين سارعوا إلى طلب مهادنة الدولة العثمانية، ولم تقبل هذه الأخيرة بذلك إلا بعد سنة[203].

لم يطل بقاء الإسبان في كاستيل نوفو، ففي سنة 1539 جهـز الـسلطان سـليمان أسطولا من 120 سفينة على متنها 30 ألف شخص وكلف خير الدين بقيادته لاسـترجاع المدينة، وفي بداية شهر جويلية وصل درغوث[204] إلى الخليج ومعه 30 سفينة وفي نفس

---

(200) – PRIEUR,op.cit., P.175.

(201) – GARROT, op. cit., P. 405.

(202) - يحي بو عزيز، علاقات الجزائر...، المرجع السابق، ص. 44.

(203)- GARROT, op. cit., P. 405.

(204) - من أبرز رجال البحر العثمانيين الذين تكونوا على يد خير الدين وهو من القادة القلائل في البحرية العثمانيـة، ولد بجزيرة رودس حوالي سنة 1485 من أب مسلم تعرض للأسر سنة 1540 ثم فداه خير الدين سنة 1543 فكـرس حياته للانتقام من النصارى. عين حاكما على طرابلس سنة 1553 وبقي في هذا المنصب إلى غاية وفاته فـي جـوان 1565 أثناء حصار مالطة، بعد إصابته بشظية في رأسه.

الشهر هاجم المدينة بينما عاد خير الدين إلى إستانبول[205]، وقـد تمكـن درغـوث مـن الإستيلاء على المدينة بعدما حطم كل دفاعاتها[206].

لقد تجاهل الكثير من المؤرخين الحديث عن معركة بريفيزا، صحيح لم تسجل بها مواجهات عسكرية عنيفة، لكن تأثيرها البسيكولوجي و السياسي كان أكثـر مـن التـأثير العسكري[207]. فقد أحدثت صدمة نفسية لدى العالم المسيحي، جعلته يعاني من عقدة نقص استمرت لأكثر من ثلاثين سنة، ولم يتخلص منها إلا بعد معركة ليبانت سنة 1571، أمـا بالنسبة للمسلمين فقد زادت في إحساسهم بعزة التفوق وهذا ما أعطى للبحـارة المـسلمين جرأة لا نظير لها، ففي سنة 1539 تحرك أسطول جزائري يتكون من 16 سـفينة علـى متنها 1300 رجل نحو جبل طارق، وأغار على المدن الواقعة في محيطه، وعاد محملا بالأسرى حيث تم بيعهم في مدينة تطوان المغربية[208]، وهذا ما جعل سـكان الـسواحل الإسبانية يئنون تحت وطأة التهديد الإسلامي، لذا راحوا يستصرخون شارلكان لتخليـصهم مما هم فيه من رعب، فكان ذلك من بين الدوافع التي جعلت هذا الأخير يدعو إلى تشكيل تحالف صليبي تولى قيادته هو نفسه وكان هدفه القضاء على الدولة الجزائرية، وهذا مـا سيأتي توضيحه في الفصل الموالي.

استنتاج جزئي:

من خلال ما سبق يمكن استخلاص النتائج التالية :

- أن الأحداث الدولية بمنطقة البحر الأبيض المتوسط خلال النـصف الأول مـن القرن السادس عشر كانت تخضع لتأثير قوتين كبيرتين متنافرتين، بل متصارعتين، همـا القوة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية من جهة، و القوة المـسيحية الأوربيـة بزعامـة الإمبراطورية الإسبانية من جهة أخرى.

---

[205] يحي بوعزيز، علاقات الجزائر ...، المرجع السابق، ص. 45.

[206] – HAEDO, op .cit., P. 64.

[207] –BELHAMISSI, op. cit., P. 137.

[208] – GARROT, op. cit., P. 406.

- أن الصراع بين القوتين السابقتين قد بدأ بالحوض الشرقي للبحر المتوسط ، لكنه سرعان ما امتد نحو الحوض الغربي له.

- أن سـقوط غرناطـة عـام 1492 قـد أدى إلـى انتقـال جبهـة الـصراع الإسلامي – المسيحي إلى المغرب الإسلامي، حيث ستكون المواجهات أكثر عنفا.

- أن حالة الضعف و التشتت التي آلت إليها منطقة المغرب الإسلامي قد جعلتهـا عرضة للأطماع الاستعمارية الأوربية، و خاصة إسبانيا التي كانت تحلم بتحقيق مـشروع استعماري ضخم يهدف إلى ابتلاع المنطقة بكاملها.

- أن ظهور الدولة الجزائرية الأولى كقوة فتية متحالفة مع الخلافة العثمانيـة قـد جعل منها قلعة إسلامية حصينة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، و هـذا مـا جعـل الإمبراطورية الإسبانية و من ورائها الأمم المسيحية الأوربية تدرك خطورة ذلـك علـى مستقبل الصراع الإسلامي – المسيحي في منطقة البحر المتوسط و هذا ما يفسر استجابة مختلف القوى الأوربية لدعوة شارلكان لتحطيم الدولة الجزائرية الفتية كما سـنرى فـي الفصل الموالي.

الفصل الثاني

التحالف الأوربي ضد الجزائر عام 1541م

المبحث الأول: ما قبل المعركة

1- الجزائر تحت حكم حسن آغا.
2- المفاوضات الإسبانية- الجزائرية.
3- دوافع التحالف الأوربي ضد الجزائر.
4- الاستعدادات من الجانبين.
أ – استعدادات الجانب الأوربي.
ب – إستعدادات الجانب الجزائري.

المبحث الثاني : التطورات العسكرية و هزيمة قوات التحالف.

1- وصول الأسطول الأوربي إلى مشارف مدينة الجزائر و بداية المناوشـات بين الطرفين.
2- المعركة الحاسمة.
3- انسحاب قوات التحالف .

المبحث الثالث: نتائج المعركة و أسباب هزيمة التحالف الأوربي.

1- خسائر التحالف الأوربي و مغانم الجزائريين.
2- النتائج المعنوية للمعركة.
3- أسباب هزيمة التحالف الأوربي.
أ – في نظر الأوربيين.
ب- في نظر المسلمين.

استنتاج جزئي.

رغم الأهمية التي أعطيت للتحالف الأوربي ضد الجزائر عـام 1541، و رغـم النتائج الهامة التي ترتبت عنه إلا أن هذا الموضوع ظل يكتنفـه الغمـوض مـن عـدة جوانب.إن الهدف من هذا الفصل هو إبراز هذه الجوانب التي بقيت غامضة، و خاصـة طبيعة هذا التحالف، و دوافعه الحقيقية، و أبرز المواجهات العسكرية بين الطـرفين و مدى فعالية المقاومة الجزائرية في إفشال هذا التحالف لنخاص في النهاية إلـى اكتـشاف عوامل النصر الجزائري و أسباب الكارثة التي حلت بالأسطول الأوربي.

المبحث الأول: ما قبل المعركة.

1- الجزائر تحت حكم حسن آغا:

عندما عزم خير الدين على السفر إلى استانبول سنة 1534 لتولي منصب قابودان باشا، بادر إلى استخلاف حسن آغا على الجزائر، لما كان يتصف به من بطولة حربيـة و دهاء سياسي.

ولد حسن آغا في سردينيا، و كان قد أسر في إحدى غزوات البحارة الجزائريين و هو لا يزال طفلا، و لدى توزيع الغنائم كان من نصيب خير الدين[209]، فتبناه هذا الأخير و أعتقه و أحسن تربيته كأحد أبنائه. أظهر حسن نباهة و لباقة في خدمة سيده، فلاحظ فيه خير الدين هذه الخصال الحميدة، فقربه إليه و صار يكلفه بالمهمات ، ويسند إليه أمـوره الشخصية.

تقلد حسن آغا مناصب عسكرية بداية بمشاركته في الخروج مع المحـلات التـي كانت تتجه نحو المناطق الداخلية للبلاد لجمع الضرائب، فكانـت فرصـته فـي إظهـار الشجاعة و حسن القيادة [210]، لذلك إختاره خير الدين ليخلفه فـي الإمـارة علـى الجزائر لاعتقاده الأكبر بأنه جدير بهذه المهمة.

كان حسن آغا كريما، متسامحا، عادلا، محبا للعلم، و هي خصال جعلتـه يكـسب محبة الشعب، و قد قال عنه صاحب غزوات:« كان رجلا عاقلا حازما سديد الرأي جيـد التدبير، و كان له حظ من العلم و الصلاح، كريم النفس، سخيا بالمال باذلا للمعـروف،

---

(209) - DE GRAMMONT, op. cit., P. 56.
(210) - HAEDO, op. cit., P. 67.

يراعي العلماء و الصلحاء و أهل الخير مع العدل الشامل و الاهتمـام بـأحوال الرعيـة الكامل. و لذلك تفرس فيه خير الدين فجعله نائبا عنه »[211]. فكل هذه المؤهلات قد مكنته من إدارة شؤون الجزائر لمدة ست سنوات دون تسجيل أي حادث [212]، و هو الذي تمكن من دحر قوات التحالف الأوربي ضد الجزائر سنة 1541(948 هـ).

لقد تمتع حسن آغا بمكانة مرموقة لدى شعبه حيث قال عنه هايدو:« مـازال إلـى يومنا هذا كثير ممن عرفوه يثنون عليه و يعترفون له بالعـدل و الإنـصاف »[213]. إن رجلا بتلك الأخلاق الحميدة، قلما وجد مثله في ذلك العهد الذي امتاز بفـساد الـسيرة و التجبر، ليس في إفريقيا فحسب، بل حتى في أوربا التي كانت ترى نفسها راقية متحضرة.

لقد تولى حسن آغا حكم الجزائر في ظروف صـعبة، تميـزت بتزايـد الخطـر الإسباني، خاصة بعد نجاح شارلكان في احتلال تونس عام 1535. و بذلك لم تبق سـوى الجزائر تشكل حصنا منيعا يعيق تنفيذ المشروع الاستعماري الإسباني في شمال إفريقيا.

و إدراكا منه لصعوبة الوضع، فقد عمل حسن آغا على تعزيز قدراته الدفاعية ضد أي هجوم مرتقب من جانب الإسبان، لذلك أنشأ إحدى و ثلاثين سفينة حربيـة[214]، بعـد مغادرة خير الدين للجزائر، و بدأ في مهاجمة السواحل الإسبانية بـشجاعة خارقـة[215]، فزرع الرعب وسط سكان هذه المناطق و فعل بهم ما كان يفعله خير الدين[216]، و أهـم العمليات البحرية التي قام بها حسن آغا معركة جبل طارق ببلاد الأندلس فـي سـبتمبر 1539[217]، لذلك جاءت الكثير من الشكاوى إلى شـارلكان تستـصرخه ضـد البحـارة الجزائريين، و كان ذلك من العوامل التي دفعته إلى اتخاذ القرار بتوجيه حملة صليبية ضد الجزائر، يتولى الإشراف عليها بنفسه.

---

(211) - غزوات، المرجع السابق، ص. 115.

(212) - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص. 105.

(213) - « Aujourd'hui encore, beaucoup de ceux qui l'ont connu disent que jamais pacha ne fut plus équitable ».Voir: HAEDO, op. cit ., P.70.

(214) - غزوات، المرجع السابق، ص. 115.

(215) - GALIBERT, op.cit ., P.179.

(216) - غزوات، ص. 115.

(217) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 279.

من خلال ما سبق يمكن القول بأن اختيار خير الدين لخليفته على الجزائر كان اختيارا حكيما، كشف مرة أخرى عن عبقرية هذا الرجل، و من جهة أخرى فإن حسن آغا، بحسن سيرته، و كفاءته العالية، و شجاعته النادرة قد أثبت هو الآخر بأنه جدير بأن يكون خليفة لشخصية فذة مثل شخصية خير الدين.

2- المفاوضات الإسبانية - الجزائرية:

من القضايا الحساسة التي ظلت محل جدل بين المؤرخين، قضية المفاوضات الإسبانية الجزائرية. فقد ذكرت بعض المصادر الأوربية، و الإسبانية منها على وجه الخصوص[218]، أنه خلال الفترة بين 1538 – 1540 جرت مفاوضات بين شارلكان و خير الدين، كما جرت أخرى بين حاكم وهران، الكونت دالكوديت و حسن آغا خليفة خير الدين على الجزائر. بينما لم تذكر المصادر الإسلامية مثل:« غزوات»،« الزهرة النيرة » و لو من باب الإشارة حدوث مثل هذه المفاوضات. و السؤال المطروح ما حقيقة هذه المفاوضات؟ و أي من الطرفين كان يرغب في مفاوضة الآخر؟ و ما أسباب فشلها؟.

لقد كان شارلكان يحلم بالسيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط. و لم يكن احتلال تونس سنة 1535 سوى جزء من هذا المشروع. و منذ هذه الفترة كان شارلكان يرغب في توجيه حملة ضخمة يقضي بها على الجزائر. لكن جيشه كان منهكا و يعاني من نقص التمرين[219]، لذلك كان على شارلكان أن ينتظر حتى تحين الفرصة لتحقيق ذلك. كما أنه كان منشغلا بحربه ضد الملك الفرنسي فرانسوا الأول، فظن بأنه يستطيع أن يصل إلى هدفه بوسائل أخرى، و هي اللجوء إلى أسلوب الخديعة و المناورات السياسية، و قد اشتهرت الدبلوماسية الإسبانية في هذه الفترة بالمهارة و حبك الدسائس، و قد كانت تستعمل في ذلك المكر، الرشوة، الإغراءات، و تشجيع الخيانة[220]، و قد كانت ترى في ذلك وسيلة هامة لنجاح مشاريعها.

---

[218] - أول من تحدث عن هذه المفاوضات هو المؤرخ لافوينتي (La Fuenté) في كتابه تاريخ إسبانيا. الجزء 12 و كذلك - FRANSISCO LOPEZ DE GOMARA : «Cronica de Los Barbarojas » :

[219] - DE GRAMMONT, op .cit ., P. 56.

[220] - WATBLED et MONNEREAU, **" Négociations entre Charles – Quint et Kheir – Eddin (1538 – 1540)"**, R.A., Tome 15, 1871, P.139.

و من هذا المنطلق حاول شارلكان استغلال طموحات خير الدين، الذي كان يرغب في حكم إفريقيا و البقاء فيها[221]، و عرض عليه التفاوض، و كان هدف شـارلكان مـن وراء ذلك هو دفع خير الدين إلى قطع صلته بالسلطان العثماني، تماما مثلما جعل أسطول جنوة بقيادة أندري دوريا يقطع صلته بفرانسوا الأول. و إذا حدث ذلك مع خير الدين فإن إسبانيا ستحقق أهدافا هامة جدا، منها القضاء على القوة البحرية العثمانيـة فـي البحـر المتوسط، و ضمان سلامة السواحل الإسبانية، ثم التفرغ لضرب الجزائر بعد عزلها عن الدولة العثمانية.

و حسب المصادر الأوربية فإن المفاوضات بين شارلكان و خير الدين قد بدأت في سبتمبر 1538، و قد أشرف عليها من الجانب الإسباني أندري دوريا الذي أرسل إلى خير الدين ألونسو دي ألاركون (Alonso De Alaracon)، و خوان قاليقو (Juan Gallego) مستشار البحرية الإسبانية. ثم تواصلت المفاوضات في العاصمة العثمانيـة نفـسها عـن طريق الدكتور روميرو (Romero)، و الضابط دي فارقـارا (De Vergara)[222]، و مما جاء في تلك المصادر أن المفاوضين الإسبان عرضوا على خير الدين الاعتراف بـه كملك على الجزائر، و التنازل له عن عنابة، بجاية و طرابلس، و حتى تـونس إذا قبـل بتبعيته لإسبانيا، و أن يتخلى عن موالاته للسلطان العثماني[223]. و قد اسـتمرت تلـك المفاوضات ثلاث سنوات.

أظهر خير الدين في البداية استعداده للتباحث مع ممثلي شارلكان، و تـسلم مـنهم الهدايا، و ناقش معهم المسألة في مختلف تفاصيلها، إلى درجة أن دوريا كتب للإمبراطور يخبره:« إن رغبة بربروسة كبيرة لأن يكون الخادم المطيع لجلالتكم»[224].

---

[221] - إلتر، المرجع السابق، ص. 155.

[222] – PAUL RUFF , **La domination Espagnole à Oran sous le gouvernement du comte D'Alcaudète (1534 – 1558),** Paris, 1900,P.69.

[223] - WATBLED et MONNEREAU, op. cit. P., 140.

[224]-« Barbarousse a le plus vif désir de complaire et d'être Le perpétuel serviteur de V.M ». Voir: Nicolas Durand de Villegaignon , **Relation de L'expédition de Charles – Quint Contre Alger**,publiées avec avant propos; notice biographique, notes et appendice par: H. De Grammont Paris, 1874, P. 87.

و طوال تلك المدة كان خير الدين يطلع السلطان سـليمان علـى كـل تفاصـيل المفاوضات[225]. و في الأخير قرر السلطان وضع حد لتلك المكيدة عندما ألقى القـبض على روميرو و وضعه في سجن« السبعة أبراج » بتهمة تحريض أحـد رعايـاه علـى الخيانة.

يُرجع المؤرخون الأوربيون فشل هذه المفاوضات إلى الدور الذي لعبـه مبعـوث الملك الفرنسي، المدعو رينكون (Rincon)، الذي أطلع السلطان العثمـاني علـى تلـك المؤامرة[226].محاولين بذلك التشكيك في نية خير الدين و إخلاصه للسلطان. لكن يبدو أن هذا الرأي يحتاج إلى إعادة نظر. إذ هل يمكن لخير الدين أن يخون السلطان و ابنه و بنته يعيشان بالقسطنطينية[227]، دون أن يخشى على مصيرهما إذا اقبل على مثل هذا العمـل؟ ثم أن أصحابه و مساعديه هم أرباب عائلات تعيش في العاصمة العثمانية، فهل يجازفون بمصير ذويهم أيضا؟، بالإضافة إلى هذا ألا يمكن أن يكون تظاهر خيـر الـدين بقبـول التفاوض هو مجرد حيلة لإرباك شارلكان الذي ربما يتنازل له عن المناطق المحتلة مـن طرف الإسبان، أو هي محاولة من خير الدين لكسب الوقت للاستعداد لمواجهة التهديـد الإسباني للجزائر؟

و رغم البراعة التي أظهرها المفاوضون الإسبان إلا أنهم اعترفوا في النهاية بأنهم خدعوا من طرف خير الدين، و أدركوا بأن إيمان هذا الأخير لا يتزعزع و أن إخلاصـه غير قابل للمساومة. و هذا ما أكده روميرو في رسالة بعث بها إلى دوريـا سـنة 1540 جاء فيها: « فيما يخص القيام بأي شيء على حساب الأتراك، فبربروس سوف لن يفعـل ذلك، لأنني أؤكد لفخامتكم بأنه أقوى إسلاما من محمد »[228].و بعد هذا الاعتراف لم يعد هناك مجال للشك في إيمان خير الدين و إخلاصه في خدمة الإسلام و الذود عن حرمته.

---

(225) - DE GRAMMONT,op.cit., p. 75.

(226) - RUF,op. cit., P. 69.

(227) - مولاي بلحميسي، "**غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر 1541 م 948 هـ، بين المـصادر الإسـلامية و المصادر الغربية**"،« الأصالة »، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 8، مـاي – جوان 1972، ص. 96.

(228) - « Quant à faire quelque chose au préjudice des turcs , Barbarousse ne le fera pas , car je certifie à V.E. qu'il est plus musulman que Mohamed ».voir:WATBLED et MONNEREAU , op . cit., P. 145.

إلى جانب المفاوضات السابقة، هناك مفاوضات بقيت محل جدل بين المـؤرخين، و هي التي كانت بين الكونت دالكوديت (Le Comte D'alcaudète)[229] و حسن آغا خليفة خير الدين. فقد ذكرت بعض المصادر الأوربية أنه بعدما يئس الإسبان في اسـتمالة خير الدين لجانبهم، أي سنة 1540، حاولوا من جهة أخرى كسب حسن آغا.

فقد أجرى عملاء شارلكان اتصالات مع حسن آغا بواسطة حاكم وهران. و بنـاء على هذه الاتصالات اعتقد أولئك العملاء أن حسن آغا سيسلم المدينة للإسبان[230]، بشرط أن يهاجمها شارلكان بقوة معتبرة جدا لتغطية هذه الخيانة، غير أن الذي تسبب في إفشال هذه المفاوضات حسب« باربروجر » هو القائد محمد[231]، الذي اتصل بحسن آغا علـى رأس وفد من الجنود و أخبروه بأنهم على علم بتلـك المفاوضـات التـي يجريهـا مـع الإمبراطور، و بفحواها. و عندئذ أدرك حسن آغا الخطر الذي قد يلحق بـه فـي حالة الاستمرار في تلك المفاوضات. فأعلن عن رفضه الاستمرار فيها للمندوب الإسباني الدون لورينزو مانويل Don Lorenzo Manuel [232]، و قد حاول باربروجر إثبات تلـك المفاوضات عبر ثلاث رسائل تم تبادلها بين الإسبانيين أنفسهم تحتوي إحداها على عبارة « مباحثات حسن آغا »[233]. لكن المصادر الأوربية تجاهلت في كل هذا الحـديث عـن الدهاء السياسي الذي عُرف به حكام الجزائر.

و بعد هذا العرض عن طبيعة تلك المفاوضات، التـي تحـدثت عنهـا المـصادر الأوربية دون المصادر الإسلامية، يمكن القول بأنه بالإمكان أن تحدث أي اتصالات مهما كان نوعها بين الخصوم، و لكن السؤال المطـروح: هـل حـصلت تلـك المفاوضـات المزعومة فعلا؟ و ماذا كان موقف خير الدين و خليفته حسن آغا منها ؟ إنهـا تـساؤلات تبقى مطروحة في غياب الوثائق التي يمكنها تسليط الضوء على هذا الموضوع.غيـر أن

---

(229) - من سادة اسبانيا حكم وهران من 1534 – 1558، قتل بمستغانم أثناء غارته الثالثة على المدينة سنة 1558.

(230) - DE GRAMMONT, op. cit., P.58.

(231) - أصله من يهود الأندلس الذين هاجروا إلى الجزائر، و هو الذي أصبح فيما بعد قائدا على تاجورة .

(232) - BERBRUGGER A.**"Négociations entre Hassan aga et le comte D'Alcaudète gouverneur d'Oran, 1541 – 1542"**, R. A., Tome 09 , 1865 , P. 380.

(233) - أنظر النص الكامل للرسائل في: Ibid . PP . 380 – 385

سيرة الرجلين و تفانيهما في مقاتلة الأعداء، بشهادة الأوربيين أنفسهم تنفي عنهما مثل هذه السلوكات المريبة.

3- دوافع التحالف الأوربي ضد الجزائر:

منذ احتلاله لتونس سنة 1535، كان شارلكان يفكر في توجيه حملة ضخمة ضد مدينة الجزائر يقضي بها على الدولة الجزائرية الفتية، و يفرض سيطرته على الحوض الغربي للبحر المتوسط. لكن انشغاله بالمشاكل الأوربية حال دون تنفيذ هذا المشروع.

و ما إن استتب الوضع بأوربا حتى راح شارلكان يدعو إلى ضرورة القيام بعمل عسكري حاسم ضد الجزائر، خدمة لكل الأمم المسيحية، و قد لقيت دعوته استجابة واسعة لدى الأوساط الأوربية. الشيء الذي مكنه من تكوين تحالف أوربي كان وراء تجهيز أكبر حملة عسكرية عرفها البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر. و التي استهدفت القضاء على الدولة الجزائرية. فيا ترى ما هي دوافع هذا التحالف؟

لقد تباينت أراء المؤرخين بشأن هذه الدوافع، غير أنه يمكن حصرها في النقاط التالية:

- رغبة الممالك الأوربية، و على رأسها إسبانيا في تحطيم الجزائر، باعتبارها أخطر قاعدة للقراصنة، و ما سببته من خراب و دمار للسواحل الإسبانية[234] منذ تحرير قلعة البنيون سنة 1529. ثم أنها الوحيدة التي لم تخضع للاحتلال الإسباني، فاحتلالها يعني السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط. خاصة و أن مدينة الجزائر كانت تراقب جميع الطرق الكبرى لهذا البحر[235].

- كانت إسبانيا ترى أن احتلال مدينة الجزائر، يمكنها من طرد الأتراك من الحوض الغربي للبحر المتوسط. و هذا من شأنه أن يعزل فرنسا، و يحرمها بعد ذلك من كل دعم من جانب حلفائها الأتراك في حربها ضد شارلكان[236]، خاصة و أن فرانسوا

---

[234] - CH ., FARINE, **Deux Pirates au XVI Siècle** , Paul ducroq . Libraire – éditeur , Paris , 1869, P. 286.

[235] - بلحميسي، المرجع السابق، ص. 94.

[236]- E., RAVENET, **"Un épisode de L'expédition de 1541 contre Alger"** , R.A.,Tome 80 , 1939, P.320.

الأول قد عقد حلفا مع السلطان سليمان القانوني كان هدفه التعاون ضد العدو المشترك - شارلكان –.

- محاولة إسبانيا تخفيف الضغط العثماني على أوربا، و خاصة المجـر، حيـث كانت ترى أنه إذا نشبت حرب في الحوض الغربي للبحر المتوسط فـإن ذلـك سـيدفع بالسلطان العثماني إلى توجيه اهتمامه نحو جبهة القتال الجديدة فيخف الـضغط العثمـاني على النمسا و المجر[237]، و في حالة نجاح شارلكان في حملته هذه ، فإن ذلـك مـن شأنه أن يعيد شيئا من الجاذبية للقوات الإسبانية، بعد ما منيت بهزائم فادحة على الجبهـة الشرقية أمام الأسطول العثماني– الجزائري.

- محاولة شارلكان رد الاعتبار للأسطول الإسباني الذي انكسر أمام مدينة الجزائر سنتي 1516، 1519.

- رغبة أوربا المسيحية في الانتقام من أعدائها المسلمين، خاصة بعد ما اسـتولى العثمانيون على جزيرة رودس سنة 1522 و طردوا فرسان القديس يوحنـا منهـا، ثـم حصار السلطان سليمان ليفيينا سنة 1529، و بعد الانتصارات التي حققها خير الـدين، و انهزام دوريا في معركة بريفيزا سنة 1538، و في كاستيل نوفو سـنة 1539، و كـان شارلكان قد هبّ لنجدة أخيه فريدريك الثاني،« فبلغه الكثير من أخبار خير الدين فاستحى أن يعود إلى بلاده بدون قتال المسلمين فقرر عندئذ مهاجمة الجزائر»[238]. خاصـة و أن شارلكان قد عُرف بنزعته الصليبية الحاقدة.

- محاولة شارلكان استغلال فرصة وجود خير الدين بالشرق، في اعتقاده أن ذلك قد ترك فراغا كبيرا في الدولة الجزائرية، و حرمها من تلك القوة المعنوية التـي كانـت تستمدها من شخصية خير الدين و سمعته[239]، و لكن يبدو أنه غاب عن أصـحاب هـذا الرأي بأن قوة الجزائر لا تكمن في شخص خير الدين فحسب، و لا حتى في قوة البحرية الجزائرية، إذ هل يعقل منطقيا أن يقوم شخص أو إثنان بمعية بضع مئات من الجنود بصد

---

[237] - بلحميسي، المرجع السابق، ص. 95.
[238] - بلحميسي، المرجع نفسه، ص. 96. نقلا عن تحفة الكبار.
[239] - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 271.

حملات صليبية ضخمة كتلك التي استهدفت الجزائر، دون مساهمة أكيـدة و فعالـة مـن جانب الأهالي، إذ كانت أعدادهم بالآلاف؟ .و عليه يبدو أن لجـوء بعـض المـؤرخين الغربيين لمثل هذه التفسيرات المغرضة، إنما يهدفون بذلك إلى تقزيم دور العنصر المحلي في الجزائر، و التشكيك في الطبيعة الجهادية لهذا الشعب.

- أما صاحب مخطوط المحكمة فقد ذكر بأن سبب هذه الحملة هو أن شارلكان قد أعد مركبا من مراكبه و وسقه بالمال و السلع و أرسله إلى وهران، فأخذه رئـيس مـن رياس الجزائر، و اسمه كجك علي، و دخل به إلى الجزائر. و قد وجد به رئيسا عظيمـا من جملة الرؤساء، فأحضره إلى حسن آغا، فسأله هذا الأخير عن الوضع فـي إسـبانيا، فأجابه بأن سفينة تركتها تريد الذهاب إلى بجاية. فعندئذ طلب حسن آغا بتجهيز عدة سفن بسرعة، و ساروا في طلبها في نواحي بجاية، و كمنوا لها بموقع يقـال لـه العـش والمنقار. و بعد قتال عنيف وقعت هذه السفينة في قبضة الجزائريين، الذين عادوا بها إلى الجزائر في فرحة كبيرة بهذه الغنيمة[240]، و كان أهل طاعة الإمبراطور قد اشتكوا إليـه مما يفعله بهم أهل الجزائر، « بحيث أنهم قالوا للطاغية إما أن تكفينا أمر الجزائر، و إلا نعطي الطاعة لصاحبها »[241]، لذلك قرر شارلكان مهاجمة الجزائر. و هذا قد يكون سببا مباشرا للعدوان الأوربي على الجزائر، لكن من الواضح أن الأسـباب الحقيقيـة كانـت تتجاوز ذلك بكثير.كما أن الظروف المحلية و الدولية كانت ملائمـة لتـشكيل التحـالف الأوربي ضد الجزائر.

فعلى المستوى المحلي، كان الجواسيس الإسبان يرسلون التقارير للإمبراطور حول الوضع في الجزائر، كان من بينها التقرير المؤرخ في 29 مارس 1536، الذي بعث بـه من بجاية فرانسيسكو بيريز دي إيدياكاييز (Francisco Pérez de Idiacayz)، و الذي يطلع فيه شارلكان على طبيعة القوات الموجودة فـي مدينـة الجزائـر، و عـن حالـة أسوارها[242]، و مما جاء في هذا التقرير: أنه يوجد في مدينة الجزائر و ضواحيها 2000

---

(240) - مجهول، « **المحكمة** »، مخطوط، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم، 1624.
(241) - المرجع نفسه.
(242) - أنظر النص الكامل للتقرير في:
DE LA PRIMAUDAIE , Documents …, R.A., tome 21,1877, PP. 83-86.

تركي و ما بين 7-8 آلاف عربي يمثلون الحامية التي وضعها خير الـدين، و الأهـالي قلقون جدا لأنهم يملكون معلومات مؤكدة حول الحملة التي تنوون القيام بها. كما ذكر بأنه نظرا للأمطار الغزيرة التي تساقطت في فصل الشتاء ، فإن أسوار المدينة قد تهدمت فـي ثلاث جهات مختلفة على مسافات واسعة، و الأهالي يعملون على ترميمها بسرعة، لكـن الأشغال تسير ببطء نظرا لقلة البنائين العارفين[243]، و لا شك بأن مثل هذه التقارير كانت تشجع شارلكان على حشد الدعم الأوربي لغزو الجزائر.

أما على المستوى الدولي، فإن الدولة العثمانية كانت منشغلة بحروبها في النمـسا و المجر، حيث وجدت مقاومة عنيفة من طرف المسيحيين، رغم الانتصارات التي حققها العثمانيين برا و بحرا[244]، أما في أوربا الغربية فإن الوضع كان مناسبا جـدا لنجـاح التحالف الأوربي ضد الجزائر. فقد تمكن شارلكان من مهادنة خصمه فرانسوا الأول، إثر الهدنة الموقعة بينهما سنة 1537، و التي تلتها معاهدة نيس 1538، التي أوقفت النـزاع بين الهابسبورغ و الفالوا، و التي لعب فيها البابا بولس الثالث دورا هاما، صونا للوحـدة المسيحية، و صدا للتقدم الإسلامي نحو بلاد ايطاليا. و في سنة 1539 عقد اجتماع مثيـر بين شارلكان و فرانسوا الأول فـي إيـغ – مـورث (Aig-Mortes)، دعّـم الـصداقة بينهما[245]، لدرجة أن شارلكان سافر عبر فرنسا، و زار باريس. أما فرانسوا الأول فقـد تعهد بأنه سيلتزم بالحياد. و هذا ما مكّن شارلكان من إعداد أسطول صليبي ضخم، جـاء على رأسه لمهاجمة الجزائر.

4- الاستعدادات من الجانبين:

أ- إستعدادات الجانب الأوربي:

قرر شارلكان القيام بعمل عسكري حاسم ضد مدينة الجزائر منذ احتلاله لتـونس سنة 1535، و لما أدرك بأن الوقت مناسب لتنفيذ هذا المشروع بـدأ فـي الاسـتعدادات المادية و البشرية، التي شرع فيها في أواخر سنة 1540، و قد أخفى هذا الأمـر، «

(243) – DE LA PRIMAUDAIE , Documents…,R.A.,Tome 21,1877,op.cit.,P.85.

(244) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 272.

(245) - BRAUDEL , Les Espagnols …, op . cit. , P . 367.

مكيدة منه و هي عادة باقية عنهم»[246] و ذلك بعدما علم بأن فرانسوا الأول – الذي كان على علم بالمشروع – قد أعطى ضمانات للبابا بولس الثالـث[247] بأنـه سـيبقى علـى الحياد[248]، و كان شارلكان قد حصل على موافقة البابا بإصدار أمر بابوي فـي الـبلاد الأوربية كلها، يعلن فيه بأن هذه الحملة هي حملة صليبية، و أنه من واجب كل مـسيحي أن ينضم إليها. و قد أرسل البابا إلى أساقفة كل من بلنسية، اشـبيلية، قرطبـة، و إلـى كاردينال طليطلة يطلب منهم المساهمة في الحملة على الجزائر. و في بداية أوت 1541 توجه شارلكان إلى راتسبون (Ratisbonne) أين ترأس مجلس الـدييت (Diete) ثـم أعطى الأوامر لكل حكام المقاطعات للتعجيل بالإعداد لتجهيز الأسطول. كما وجـه نـداء لكل ملوك النصرانية[249]، يدعوهم للمشاركة في هذه الحملة الصليبية الجديدة.

بعد ما راسل شارلكان ولاّته في كل من قطالونيا، بلنسية، جزر البليار، و اراغون موضحا لهم دوافع هذه الحملة، و داعيا إياهم للمشاركة فيها، عقد مجلسا ضـم الأسـاقفة و النبلاء[250]، حيث عبروا له عن رغبتهم في مساعدته دون تحفظ. و بذلك وجـد نـداء شارلكان استجابة واسعة « فانجاشت إليه جيوشه أفواجا أفواجا، و زخرت إليه عـساكره أمواجا أمواجا»[251].

حدد شارلكان في البداية مكان تجمع القوات في خليج سـبيزيا (Spezzia)[252]، ليلتحق بهم، بعد لقائه مع البابا في لوك (Lucques)[253]، و رغم أنه علم بسقوط بـودا (Bude) في يد السلطان سليمان، و رغم الخطر الذي كان يهدد أخاه فرديناند في فيينا، إلا أن شارلكان ظل مصرا على تنفيذ هذا المشروع. و لم يأخذ بنصيحة أندري دوريا الـذي حذره من أن الفصل متقدم جدا للقيام بحملة ضخمة، لأنه فـي فـصل الخريـف تـصبح

---

(246) غزوات، المرجع السابق، ص. 115.

(247) - اسمه الحقيقي، أليسوندرو فارنيز (Alessandro Farnèse) ولد سنة 1468، تولى البابوية فـي 13 أكتـوبر 1534، توفي سنة 1549.

(248) – جون ب . وولف، المرجع السابق، ص. 56.

(249) – FARINE, op. cit., P.288.

(250) – PRIEUR, op. cit., 191.

(251) - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.

(252) - يقع شمال ايطاليا.

(253) – ALFRED MOREL – FATIO, **Histographie de CHARLES – QUINT**, Paris , 1913 , P. 229.

الملاحة في السواحل الإفريقية خطيرة، و أشار عليه بتأجيل المشروع إلى الربيع المقبل. لكن شارلكان لم يكن يريد سماع هذه النصائح .

و في 15 أوت 1541، سافر شارلكان على سفينته (La Réale) متجها إلى لوك (Lucques) للالتقاء بالبابا، و أثناء اللقاء ترجى هذا الأخير شارلكان بتأجيل الحملة . لكنه بقي مصرا على ذلك، و حينها منحه البابا الموافقة[254]، و سمح لإبن أخيه الكاردينال أوكتاف فرناس (Octave Farnès) بمرافقته في هذه الحملة. و عندما وصل شارلكان إلى خليج سبيزيا (Spezzia)، حيث كانت التحضيرات تجري على قدم و ساق أشرف على تحميل ستة آلاف ألماني على متن ثلاث عشرة سفينة شراعية مكلفة بنقل الجنود، و أعطاها الأوامر بالذهاب إلى ميوركة (Mayorque)[255]. أما شارلكان و القوات التي ترافقه فقد اتجهت إلى كورسيكا حيث وصل يوم 29 سبتمبر 1541.

و في اليوم الموالي التحقت به ست سفن مالطية كان على رأسها جورج شيلينغ (Georges Schilling) القائد العام لسفن منظمة فرسان مالطة. و في مطلع أكتوبر تحركت هذه القوات متجهة إلى ميوركة، لكن شدة الرياح أجبرتها على الرسو في سردينيا[256].و أثناء ذلك التحق بها دون غارسيا دي طوليدو (Don Garcia de Toledo) مع 43 سفينة قادمة من نابولي. بعدها تحرك الأسطول الإمبراطوري قاصدا ميوركة، حيث ينتظره فرديناند دي قونزاق (Ferdinand de Gonzague) نائب ملك صقلية مع جنوده[257].

و هكذا تمكن شارلكان من أن يحشد في جزيرة ميوركة أكبر أسطول عرفه البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، قبل أن يتجه به لمهاجمة مدينة الجزائر.

لقد كان هذا الأسطول الضخم يتكون من مختلف السفن القتالية بالإضافة إلى سفن النقل. و قد اختلفت تقديرات المؤرخين في تحديد عددها. فحسب هايدو أن الأسطول كان

---

(254) – FARINE, op. cit., P. 291.

(255) - Ibid.

(256) - هنا قدمت عجوز للإمبراطور عجلا عمره خمسة عشر يوما، له رأسين، و هذا ما أُعتبر نبوءة شؤم!.

(257) – Ibid, PP.292 – 293.

مؤلفا من أكثر من خمسمائة سفينة[258]، فيما ذكر صاحب « غزوات » « كان عدد مـا فيها من الأجفان [السفن] أربعمائة، و قيل أربعمائة و خمسون جفنا»[259]. أما أعلى رقم فهو خمسمائة و ستة عشر سفينة الذي ذكره بيليسي[260]، أما أدنى رقم فهو مائـة سـفينة الذي ذكره صاحب « تحفة الكبار »[261]، و بمقارنة الأرقام التي أوردهـا الكثيـر مـن المؤرخين ، نميل إلى الاعتقاد بأن عدد سفن هـذا الأسـطول الأوربـي لا يقـل عـن الخمسمائة.

و قد شارك في هذا التحالف كل نـبلاء إسـبانيا، ألمانيـا، و إيطاليـا، بإرسـال متطوعين.أما البابا بولس الثالث فقد أرسل حفيده كولونا (Colonna) لمرافقة الحملة.

كما ساهمت منظمة فرسان مالطة بمائة و أربعين فارسـا مـن خيـرة فرسـانها بالإضافة إلى أربعمائة راجل[262].

و يختلف المؤرخون في تقدير حجم القوات التي شاركت في هذا التحالف. فحسب بعض المصادر الإسلامية أن عددهم كان تسعون ألفا[263]. بينما ذكرت بعض المـصادر الأوربية أن عددهم كان 12000 بحارا و 24000 جنديا[264]، فيكون المجموع هو سـتة و ثلاثين ألف رجل (36000) و هو العدد المرجح الذي ورد في الكثير مـن المـصادر الغربية. و عليه فالرقم الحقيقي لجنود الحملة يكون بين الرقمين المذكورين.

قرر الإمبراطور أن يتولى بنفسه قيادة هذا التحالف، فبعد إتمام الاستعدادات عـزم على مهاجمة الجزائر، و قد اصطحب معه القادة و الضباط المعروفين في أوربـا كلهـا أمثال: أنـدري دوريـا (Andre Doria)، برنـادينو دي مونـدوزا (Bernadino de Mondoza) حاكم حلق الوادي بتونس آنـذاك ، المـاركيز ديـل فاسـتو (Marquis Delvasto) حاكم ميلان، هيجودي مونكاد (Hugo de Moncada) أحد فرسان مالطة

---

(258) - HAEDO, op. cit., P. 70.

(259) - غزوات، المرجع السابق، ص. 116.

(260) – PELLISSIER, op. cit., P.61.

(261) - إلتر، المرجع السابق، ص. 157، نقلا عن تحفة الكبار.

(262) - DE GRAMMONT, op. cit., P. 58.

(263) - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.

(264) - MERCIER , op. cit., PP.50 -51.

المشهورين، فرديناند دي طوليد (Ferdinand de Tolède) القائد العام للجيش الملكـي الإسباني، الكونت دالكوديت (Comte D'Alcaudète) حاكم وهران، الـدون فرديناـد قونزاق (Don Ferdinand de Gonzague) نائب ملك صقلية، و فرنانـد كـورتيز (Fernand Cortez) المغامر الشهير ، فاتح المكسيك[265].

من خلال العرض السابق، و بالنظر إلى تلك الأهمية التي أعطيت لهذا المشروع، و الجهات التي ساهمت فيه، و حجم الإمكانات المادية و البشرية التي تم تسخيرها بهدف إنجاحه. كل هذا يوحي، بل يؤكد بأن هذا الحدث لم يكن مجرد حملة إسبانية عابرة كتلـك التي استهدفت الجزائر سنتي 1516، 1519. بل أن الذي حدث سنة 1541 كان تحالفـا صليبيا أوربيا دعت إليه إسبانيا و أيدته و ساهمت فيه كل الأمم الأوربية. و هذا ما يكشف عن النزعة الصليبية الحاقدة التي ميزت تاريخ أوربا خلال القرن السادس عشر.

ب- إستعدادات الجانب الجزائري:

لقد كان الجزائريون على علم بتلك الإستعدادات الأوربية، التي كان هدفها ضـرب الجزائر، حيث بلغت أخبارها حسن آغا « فوصل خبر عمارته إلى حسن آغا خليفة خيـر الدين، فصدق بذلك و لم يكذب »[266]. لذلك تولى حسن آغـا بنفـسه قيـادة المقاومـة الجزائرية حيث: « أدار وجهه إلى تحصين المدينة و الاستعداد لمقابلـة العـدو »[267]، حيث أضاف تحصينات جديدة لتلك التي أقامها خير الدين، و أمر ببناء أسوار المدينـة، و العمل على ترميم ما تهدم منها، و نصّب عليها و على الأبراج المدافع، و عين أربعمائـة من الأسرى النصارى لهذا البناء. و رغبة منه في الإعلان عن التعبئة العامة، طلب حسن آغا من شيخ المدينة سيدي سعيد الشريف أن يقدم إليه حـساب رجـال أحيـاء المدينـة لإشراكهم في الدفاع عنها. و يبدو أنه لجأ إلى هذا الأمر لأن عدد القـوات النظاميـة الجزائرية كان قليلا. حيث ذكر هايدو أنه لم يكن لدى حسن آغا ساعة وصـول الحملـة

---

(265) - PRIEUR , op. cit ., PP. 192 – 193.

(266) - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.

(267) – المرجع نفسه.

سوى ثلاثة آلاف جندي من أتراك ، أندلسيين و عرب[268]، بينما ذكر بعضهم أنه كـان لديه ألف و خمسمائة جندي، و خمسة آلاف من الأهالي القادرين على حمل السلاح، منهم ثلاثة آلاف أندلسي جاؤوا حديثا إلى الجزائر على متن سفن خير الدين[269].

يرجع بعض المؤرخين قلة عدد قوات حسن آغا لكون معظم الجيوش كانت مرابطة آنذاك بغرب البلاد الجزائرية[270]، لكن يبدو أن هذه الأرقام غير دقيقة، لأن حسن آغا كان على علم بقدوم تلك الحملة الأوربية الضخمة، و بالتالي من المستبعد أن يواجههـا بهـذا العدد القليل دون أن يطلب جمع المدد من مختلف أنحاء البلاد.

و مع توالي الأنباء بتحرك الأسطول الأوربي، واصـل حـسن آغـا اسـتعداداته لمقاومته، حيث أعطى الأوامر بقطع أشجار البساتين كلها خوفا من أن يستتر بها العـدو أثناء القتال[271]، و قد تمت هذه الاستعدادات وسط هدوء تام و انضباط محكم .

المبحث الثاني:التطورات العسكرية و هزيمة قوات التحالف:

1- وصول الأسطول الأوربي إلى مشارف مدينة الجزائر و بداية المناوشـات بين الطرفين:

بعد إتمام الاستعدادات، أقلع الأسطول الأوربي من مرسى ماهون (Mahon) يوم 18 أكتوبر 1541، و قد ذكرت بعض المصادر بأن هذا الأسطول قد أبحر من قرطاجنة (Carthagene) متجها إلى وهران، و هناك انضمت إليه قوات من الحاميـة الإسـبانية بالمدينة[272].

و بينما كان الجزائريون يستعدون لمواجهة الخطر المرتقـب، ظهـر الأسـطول الأوربي أمام مدينة الجزائر يوم الأربعاء 17 جمادى الثانية 948 هـ، الموافق لـ 19 أكتوبر 1541م.

---

(268) – HAEDO, op. cit., P.70 .
(269) – GARROT, op. cit .,P.407.
(270) – VILLEGAIGNON, op. cit., P. 89.
(271) – GALIBERT, op . cit.,P.180 .
(272) - RUFF, op. cit., P. 71.

لقد أثار منظر الأسطول دهشة الجزائريين، حيث وصفه صاحب الناظور – و هو الشخص المكلف بمراقبة البحر– بأنه « عمارة كبيرة أخذت وجه الماء كله، و سترته، و شرعت في عدها فلم اقدر، فتشوش نظري من ذلك لكثرتها»[273]. عيّن حسن آغا جملة من الخيالة صعدوا إلى جبل بوزريعة ليأتوا بتحقيق العمارة فرجعوا إليه و كل واحد منهم يقول: « لم أقدر على إحصاء ما رأيت ... العدد كثير لا يصل إليه الإدراك»[274].

و عندما لاحظ حسن آغا بأن الهلع قد نال من عقول الأهالي، سارع إلى اتخاذ التدابير اللازمة للرفع من معنوياتهم، و إعدادهم للمقاومة، حيث استدعى أهل المدينة و عقد اجتماعا حضره علماء البلد و صلحاؤهم و مشايخهم، و أخذ يهون عليهم الأمر و يسكن من روعهم، و يستشيرهم في الإجراءات التي يجب اتخاذها. و في نفس الوقت ينسق معهم أسلوب المقاومة. و بعد ذلك قام بتوزيع الأسلحة و الذخيرة على أهل المدينة[275]. ثم أمر حسن آغا شيخ المدينة سيدي سعيد الشريف بتوزيع الرجال من أهل المدينة على الأبراج و الأسوار، التي أصبحت تعج بالرجال مزودين بأسلحة مختلفة، و في أعاليها تم تنصيب الرايات الحربية. و من جهته قام حسن آغا بتعيين الضباط الذين يتولون مسؤولية قيادة حراسة أبواب المدينة. فعين على باب عزون الحاج مامي، و جعل على رأس باب الوادي القائد يوسف بمساعدة ثلاثة ضباط هم سافر و أرسلان و رمضان، و عيّن لحراسة باب الجزيرة ثلاثة ضباط هم كجك علي، حيدر و خضر قبطان السفن. و معهم مجموعة من رياس البحر[276].

أما حسن آغا فقد عاد إلى باب عزون، حيث كان يظن بأن الهجوم سيبدأ من هناك، و صعد إلى البطارية التي تحمي هذا الجزء من التحصينات، و من هذا المكان المرتفع يمكنه مراقبة تحركات العدو على طول الساحل. فأقام بهذا الحصن الذي تصل مدافعه إلى العدو برا و بحرا، و نصّب به مدفعا كبيرا تولى قيادته هو نفسه[277].

---

(273) - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.
(274) - المرجع نفسه.
(275) - المرجع نفسه.
(276) - غزوات، المرجع السابق، ص ص. 1 24 – 125.
(277) - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.

و في هذه الأثناء كان العلم الوطني الجزائري الكبير، المكوّن من ثلاثـة أشـرطة حريرية ذات الألوان، الأحمر، الأخضر، و الأصفر، يرفرف فوق باب عزون[278].

أما الأهالي من بلديه و أندلسيين و برّانية، فقد التفوا حول أسوار المدينة، حـاملين المكاحل، السيوف، الرماح و النشاب ينتظرون الأوامر[279]، و هذا ما يثبت بأنهم كـانوا مستعدين للمقاومة، و قد استرجعوا الثقة في أنفسهم[280].

و المؤكد أن حسن آغا قد لعب دورا هاما في إلهاب الروح الجهادية لـدى أهـالي الجزائر، من خلال الأقوال المؤثرة التي كان يبثها وسط شعبه و منهـا:« إن الأسـطول المسيحي ضخم ... لكن لا تنسوا نصر ا الذي يسديه للمسلمين ضد أعداء الدين »[281]، و منها أيضا « ... لقد وصل العدو عليكم ليسبي أبناءكم و بناتكم، فاستشهدوا في سـبيل الدين الحنيف... هذه الأرض فتحت بقوة السيف، و يجب الحفـاظ عليهـا، و بعـون ا النصر حليفنا، نحن أهل الحق... »[282]، و لكي يُهون عليهم كثرة العدو أمام قلّـتهم فقـد ذكرهم بقوله تعالى: « **كَـمْ مِّـنْ فِئَـةٍ قَلِيـلَةٍ غَلَبَتْ فِئَـةً كَثِيـرَةً بِـإِذْنِ اللهِ وَ اللهُ مَـعَ الصَّابِرِينَ** »[283]، و بهذا استجاب الجزائريون لنداء حاكمهم حسن آغا، حيث أظهـروا استعدادا كبيرا للدفاع عن الوطن و التصدي للغزاة الصليبيين.

يستنتج مما سبق بأن حسن آغا كان فعلا في مستوى التحديات التي تواجهه، و أنه كان يتمتع بشجاعة نادرة، و قوة إيمانية كبيرة، و رغبة في الجهاد لا تُقهر. ثم أن الشعب الجزائري الذي عُرف بصدق إخلاصه للدين و الوطن، ما كان يتأخر عن تلبية النداء، إذا كان يتعلق بواجب الدفاع عن حرمة الإسلام و الوطن.

و في يوم الخميس 20 أكتوبر 1541، على الساعة السابعة صباحا حلّ الأسـطول الأوربي بخليج تمانتفوس (Cap Matifou). و خلال يومين بقي شارلكان ينتظر إلتحاق

---

[278] - GALIBERT, op. cit., P. 181.

[279] - بلحميسي، المرجع السابق، ص. 102.

[280] - تذكر الكتب الأوربية أن ما عزز ثقة الجزائريين، هي تلك النبوءة التي كانت تتداول بينهم، و التي مفادهـا أن الاسبان سينكسرون في ثلاث حملات مختلفة، و خاصة في الحملة الثالثة، التي يقودها أمير مسيحي. أنظر : GALIBERT, op.cit., P.181.

[281] – جون ب. وولف، المرجع السابق، ص. 56.

[282] - علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص. 224.

[283] - قرآن كريم، سورة البقرة، الآية 249 .

الفرقة العسكرية الإسبانية التي تأخرت، فلم يسمح ببدء العمليات قبل وصولها[284]، و في صبيحة يوم الأحد 23 أكتوبر، بدأت عمليات الإنزال بمنطقة الحامة، على الضفة اليسرى لوادي الحراش، و على الساعة التاسعة صباحا نزل الإمبراطور إلى البرّ أيضا، محاطـا بالأشراف، النبلاء و رجال الحاشية ، فقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام و نـصّب مقـر قيـادة الجيش في منطقة الحامة، شرقي مدينة الجزائر، حيث حديقة التسلية الآن، و هي لا تبعـد عن مكان نزول الجيش سوى بألف خطوة. و قد حاول المسلمون منع قوات التحالف مـن النزول إلى البرّ، لكنهم اضطروا إلى التراجع إلى الوراء عندما رمى علـيهم النـصارى بالقذائف المدفعية من السفن[285]. و قد أنزلت القوات الغازية أسلحتها، و تركت الـزاد و الذخائر في المراكب، إذ كانوا يعتقدون أن احتلال المدينة سيتم خلال ساعات قليلة[286]، و لم يأمر شارلكان قواته ببدء الهجوم على المدينة، فربما كان يرغب في الظفـر بهـا دون قتال، و ذلك بإدخال الرعب في نفوس أهلها من خلال الجيوش الجرارة التي جاء بها.

و من جهته قرر حسن آغا مع أركان حربه تنفيـذ نفـس الخطـة التـي طبقهـا الجزائريون من قبل في مواجهة القوى المعتدية، و هي خطة أثبتت فعاليتها، و التي تعتمد على البقاء في التحصينات مع مراقبة تحركات العدو، بينما تقوم قوى الـشعب بمناوشـته لتحرمه بذلك من أخذ قسط من الراحة[287].

أرسل شارلكان إلى حسن آغا خطابا تهديديا مع أحد فرسان إسـبانيا المـشهورين وهو دون لورينزو مانويل (Don Lorenzo Manuel)[288]، يطلب منه تسليم المدينـة و خضوعها للإمبراطور، جاء فيه: « أيها الرجل أنت خديم من خدّام باربروسة و أنا ملك إسبانيا بأسرها، و جميع بلاد النصارى تحت طاعتي فكيف تحدثك نفسك بمقـاتلتي، أمـا تعرف أنني استوليت على مدينة تونس و أزعجت منها باربروسة ... و هي أعظم مـن الجزائر شأنا و أحصن منها »[289].

---

(284) – FARINE, op. cit., P. 301.
(285) - DE GRAMMONT, op. cit., P.59.
(286) - بلحميسي، المرجع السابق، ص. 102.
(287) – أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. ص. 282 - 283.
(288) – HAEDO, op. cit., P. 70.
(289) - غزوات، المرجع السابق، ص. 117.

يبدو من هذا القول أن شارلكان و رجاله قد نال منهم الغرور، فقد أعجبوا بقوة عددهم و عدتهم أمام قلة عدد المدافعين عن مدينة الجزائر، و ظنوا بأن الجزائريين لا يجرؤون على مواجهة هذه القوة الضخمة.

و بينما كان شارلكان و رجاله ينتظرون خضوع حسن آغا ، جاءهم الرد من هذا الأخير، بجواب ملؤه الثقة بالنفس و التحدي يقول فيه:« يا كلب النصرانية كيف حدثتك نفسك أنك ملك الملوك و أنك في مقام السلاطين العظام الذين دانت لهم الدنيا و هل أنت إلا كلب من كلاب النصارى أضعف ما في بلاد البربر من القلاع لا تقدر على أخذها فكيف بمدينة الجزائر »[290].

لكن بعض المؤرخين الغربيين يشككون في موقف حسن آغا، بل يتهمونه بالخيانة، و يزعمون بأنه هلع من خطورة الموقف، و لولا المعارضة الشديدة التي لقيها من بعض أعضاء مجلس الحرب و منهم بالخصوص الحاج بشير و القائد محمد لقبل بتسليم المدينة[291]. غير أن هذا الزعم لا يرتكز على أي أساس، و يناقض كل ما عُرف به حسن آغا من قوة الإيمان و رباطة الجأش و الشجاعة الكبيرة، و هو الذي قال هايدو عن شجاعته« لم يظهر ملك في أي موقف شجاعة أكثر من شجاعة حسن آغا»[292]، و أيده في ذلك فوربيكه (Forbige) بقوله:« إذا لم نذكر الشجاعة التي أظهرها حسن آغا أثناء الحرب على الرغم من الفرق الشاسع بين القوتين نكون قد ظلمناه »[293]، و بعد هذا لم يعد هناك مجال لاتهام حسن آغا بالجبن أو الخيانة.

و في ليلة 24 أكتوبر ، بينما كان الغزاة يقضون ليلتهم الأولى على أرض الجزائر، خرج إليهم الحاج باشا[294] على راس قوة من المجاهدين قوامها ستمائة مقاتل من الرجال مدعمين بألفي فارس و باغت معسكر الغزاة، و أدخل الرعب في صفوفهم، و على رأسهم الإمبراطور الذي صاح برجاله قائلا:« أهؤلاء الذين أخبرتموني عنهم أنهم لا

---

(290) - غزوات، المرجع السابق، ص. 118.
(291) - DE GRAMMONT, op .cit., P.60.
(292) - « Jamais dans un cas , un roi ne montre plus de courage , d'expérience ni de prudence qu 'il ne le fit en cette occasion », Voir : HAEDO, op. cit., P. 70.
(293) - إلتر، المرجع السابق، ص. 156. نقلا عن فوربيكه.
(294) - صاحب « غزوات »، ينسب هذا الخروج ليلا لحسن آغا.

يقومون لحربنا، أنظروا ما عملوا فينا هذه الليلة »[295]، و رغم أن قوات الإمبراطور قـد سارعت إلى إطفاء الأضواء تجنبا لضربات المجاهدين الجزائريين، إلا أن خسائرها فـي هذه الليلة كانت معتبرة[296]، و لا شك بأن نجاح هذه العملية يكون قد أحـدث اضـطرابا وسط القوات المعتدية، و من جهة أخرى رفع من معنويات المجاهدين الجزائريين.

و في صباح 24 أكتوبر قرر شارلكان التوجه نحو مدينة الجزائر لاحتلالها، فقسم جيشه على النحو التالي: في المقدمة الجنود الإسبان بقيادة فرناندو دي قونزاق، أما الوسط فقد تولى الإمبراطور مع أبناء النبلاء قيادة القـوات الألمانيـة، و فـي المـؤخرة نجـد الإيطاليين، فرسان مالطة و المتطوعين تحت قيادة كاميل كولونا[297]، و في نفس اليوم تم إنزال الخيالة و المدفعية مع كميات عديدة من الذخيرة، لكن بسبب العجلة فـي إنـزال الرجال و الأسلحة و الخيول، نسي القادة إنزال الخيام و المؤونة، فلم يأخذ كل جنـدي معه من الزاد سوى ما يكفيه ليومين[298]، و لكن في تقديرنا يـستبعد أن جيـشا ضـخما يشرف عليه اشهر قادة الحروب في أوربا، ينسى إنزال المؤونة و الخيام، و هذا ما يدفعنا إلى ترجيح احتمال أن شارلكان و رجاله كانوا يعتقدون أن العملية ستُحسم فـي وقـت قياسي، و بالتالي لا داعي لإنزال كل الحمولة، كما أنهم كانوا يرون أنه ليس هنـاك مـا يحول بينهم و بين سفنهم.

اقتربت القوات الغازية من المدينة، لكنها لقيت مقاومة كبيرة من طرف المـدافعين الذين خرجوا في أعداد كبيرة، حاولت منعهم من التقدم، و كان على رأس هذه القوة من المدافعين كل من الحاج بشير، الحاج مامي، خضر، و الحاج بكير، الذين ابدوا شـجاعة كبيرة في مقاومة الأعداء، أجبروهم على التراجع إلى رأس تافورة حيث واصـلوا فـي قصف المدينة، و كان أهلها يردون عليهم بالمثل[299]، بل كانوا يقصفون حتى سفنهم التي كانت راسية في الميناء.

---

[295] - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.
[296] - ذكر صاحب « الزهرة النيرة ... » أن عدد قتلى النصارى بلغ ثلاثة آلاف رجل، بينما اكتفت بعض المـصادر الغربية بذكر الهجوم الليلي فقط، أما البعض الآخر فلم يتطرق أصلا لهذا الهجوم.
[297] – MERCIER, op. cit., P. 51.
[298] – FARINE, op. cit. P., 304.
[299] - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.

و لما شعر الإمبراطور بخيبة الأمل في احتلال المدينة من تلـك المواقـع قـرر الإستيلاء على المرتفعات المشرفة عليها.

و لفهم استراتيجية العدو لاحتلال المدينة يجب تصور طبوغرافية ضواحي مدينـة الجزائر آنذاك. فمن المرتفعات الرئيسية لهضبة الأبيار يتشعب خطان، الأول ينفصل فـي أعلى وادي بئر درارية، و ينخفض 240 متر تقريبا حيث صخور البحر في رأس سيدي الكتاني مكونة من بروزين أساسيين و سطحين هما كدية الصابون أو حصن الإمبراطور (Fort L'empereur) و ينخفض 216 متر، و الآخر هو الذي يحمل القـصبة القديمـة للمدينة و ينخفض 120 متر، فمدينة الجزائر بنيت على نتوء صخري و يحيط بها مـن الجهتين مجموعة وديان تتجه من أعلى التل نحو البحر[300].

لذلك أعطيت الأوامر لمقدمة الجيش الغازي باحتلال كدية الصابون، فقامت فرقتـا عنابة وصقلية بقيادة كل من دون ألفارو دي سوند (Don Alvaro De Sand) و لويس بريز دي فرغاس (Luis Perez de Vergas) بالهجوم على كدية الصابون، منطلقة من وسط المروح، و تمكنت بعد مواجهات عنيفة مع المجاهدين من احـتلال هـذا الموقـع الاستراتيجي ، لذلك سارع الإمبراطور إلى اتخاذه مركزا عاما للقيادة، ثـم وسّـع خـط عملياته، فاحتل عدة تلال تصل بين مركزه العام و المكان المعروف بقنطـرة العفـرون، قرب البحر، غربي مدينة الجزائر، و قد استفاد الغزاة من الـواديين العميقـين كخنـادق طبيعية لهم، مما مكنهم من أخذ قسط من الراحة [301]. و في نفس الوقت كانـت الـسفن الشراعية و البواخر المسلحة بالمدافع تشكل خطا دفاعيا أمام الجزء الجنوبي من المدينـة لترد على مدفعية مدينة الجزائر[302].

و بهذا أصبحت الجيوش المعتدية في وضعية جيدة، إذ تمكنت من تطويق المدينـة من كل جهاتها برا و بحرا.

---

[300] - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص. 115.

[301] - DE GRAMMONT, op. cit ., PP . 59 – 60.

[302] - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.

و في مساء يوم 24 أكتوبر تقدم مبعوث من مدينة الجزائر إلى ساحة الإمبراطور، و طلب منه باسم الحامية أن يسمح بحرية الطريق نحو باب الوادي، لكي يتمكن كل مـن أراد من أهل الجزائر من مغادرة المدينة[303]، و هذا ما يعني أن الجزائريين قد قـرروا الدفاع المستميت عن مدينتهم مهما كانت التضحيات، و هذا رغم عدم تكافؤ القوتين.

و قد كانت خطة الجزائريين تقتضي خروج المجاهدين من أبواب المدينة في الوقت الذي يكون فيه المجاهدون خارج الأسوار قد أنهكوا القوات المعتدية، فيهاجمونها بـشدة، و يحولون بين الجيش المرابط بكدية الصابون بقيادة الإمبراطور، و بين البحر، ثم يحـيط كل فريق منهم بفرقة من الجيش الصليبي[304]، و بذلك يمكن دحر القوات المعتديـة فـي معركة حاسمة.و هكذا انتهى يوم 24 أكتوبر، بعد مواجهات شاقة بين الطرفين اسـتمرت حتى الليل، و إلى غاية الآن لا يزال الغزاة يأملون في السيطرة على المدينة، التي صاروا يرونها في متناولهم.

و في ليلة 24 – 25 أكتوبر، بدأت الأمطار تتساقط، و قد أخذت تزداد غزارة مع تقدم الليل، و خاصة بين الساعتين العاشرة و الحادية عشر، مـصحوبة بريـاح شـمالية غربية، أدت إلى اشتداد أمواج البحر، حيث أصبح الأسطول الأوربي الذي يحمل الأسلحة، العتاد و المؤونة في وضعية حرجة، أما الجيش فقد صار وضعه أسـوأ مـن وضـع الأسطول، حيث كان الجنود قد نزلوا إلى البرّ دون أن يأخذوا حذرهم بـأي نـوع مـن الوقاية، فلم تكن لديهم خياما يحتمون بها من الأمطار المتساقطة، و لا معاطف تقيهم مـن البرد، كما كانوا يعانون من نقص المؤونة[305]، و بذلك انهارت معنويات الجنود، و لـم يعودوا قادرين على حمل السلاح إذ :« خيّل لهم أن القيامة قد قامت من كثرة الريـاح و الأمطار و الصواعق و الرعود فلم يقدروا على الرمي بمدفع واحد و لا بمكحلـة »[306]،

---

(303) - يبدو أن شارلكان قد فهم هذا الالتماس على أنه مقدمة لاستسلام المدينة، و هذا ما جعله لا يبـادر بمهاجمتهـا، رغم أنه كان في وضعية مريحة.

(304) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 285.

(305) - PELLISSIER , op . cit., P. 62 .

(306) - غزوات، المرجع السابق، ص. 120.

أما الأسطول فقد أصبح مهددا بالغرق، حيث ساقت الأمواج بعض السفن إلى اليابسة فتحطم بعضها و أصيب البعض الآخر بالعطب.

2- المعركة الحاسمة:

أما حُماة الجزائر، و المدافعين عنها، فقد استغلوا تلك الوضعية الحرجة التي آلت إليها القوات المعتدية، و رأوا فيها عونا لهم على طرد هؤلاء الغُزاة، و في مطلع يوم الثلاثاء 25 أكتوبر، خرج الجزائريون بقيادة الحاج بشير، و انقضوا على ميمنة الجيش الأوربي، التي كانت مستقرة أمام رأس تافورة (بين إدارة البريد المركزي حاليا و البحر)، و كانت طليعة الفرقة الإيطالية هي التي تلقت الصدمة الأولى، فدبّ الرعب وسط الجنود ،فتقهقروا دون نظام، حيث التحقوا بالمعسكر الكامل للفرقة الإيطالية[307].

و مما ساعد الجزائريين على النجاح في هذه المعركة معرفتهم الجيدة بطبيعة الأرض، و نوعية الأسلحة المستعملة، و هي السهام، النبال، و الأقواس، التي كانت أكثر فعالية من الرصاص و البارود المبلل[308]، ثم طريقتهم في القتال التي تعتمد على السرعة و الخفة، الكر و الفر، و هي طريقة لم يتعود عليها الغزاة.

و بدورها لم تستطع الفرقة الإيطالية المتمركزة في قنطرة العفرون من الصمود أمام هجومات الأهالي، الذين شتتّوهم، و أعملوا السيف في رقابهم و لم تنج من الفناء إلا بتدخل فرسان مالطة.

كاد الهجوم الذي شنه الجزائريون أن يؤدي إلى هزيمة القوات المتحالفة ، لولا مقاومة فرسان مالطة، الذين سارعوا إلى نجدة الفرقة الإيطالية المتقهقرة تحت ضربات الجزائريين، حيث تمكن الفرسان من السيطرة على الممر المؤدي إلى كدية الصابون، و بعد عبورهم الجسر تمكنوا من صد المهاجمين الجزائريين بصعوبة كبيرة[309]، و قد أوقف الجزائريون زحفهم خوفا من أن يقطع عليهم خط الرجعة، أما كاميل كولونا و

---

(307) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ص. 286 – 287.

(308) - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص. 116.

(309) - إلتر، المرجع السابق، ص. ص. 160 – 161.

الأمير دي سالمون (Prince de Salmone) فقد تمكنا من إيقاف الفارين مـن الفرقـة الإيطالية.

أما الحاج بشير فقد أعطى الأوامر للجنود الجزائريين بالعودة حـالاً وراء أسـوار المدينة و حصونها[310]، و هي استراتيجية أراد بها استفزاز العدو، و استدراجه إلى حيث أراد. و قد اعترف احد فرسان مالطة بنجاح هذه الاستراتيجية عنـدما قـال:« إن هـذه الطريقة في الحرب قد أذهلتنا، لأننا لم نكن نعرفها من قبل»[311]. و بذلك وقع الفرسـان في الفخ الذي نصبه لهم الحاج بشير، إذ راحوا يلاحقون الجزائريين فـي تهـور، و لـم يضعوا في حسبانهم استراتيجية الخصم. فلما أصبحوا على مقربة من حصن باب عـزون سارع الجزائريون إلى فتح الأبواب و التحصن وراءها، ثم إغلاقها في وجه الفرسان[312]، الذين وجدوا أنفسهم في مكان مكشوف، عُرضة لضربات الجزائريين، الذين انهالوا عليهم بالنبال، السهام و الحجارة[313]، و بذلك أجبر الفرسان و من معهم على الفرار. و هذا ما دفع بانديني (Bandini.G.)، ممثل كوسم دي ميدسيس (Cosm de Medicis) في الحملة على مدينة الجزائر إلى القول بأنه في 25 أكتوبر « أساء كـل النـاس القيـام بواجبهم، لكن الإيطاليين كانوا أسوأ الجميع ...»[314]، و هذا ما يثبت نجاعة الاستراتيجية الدفاعية للجزائريين. لكن أغلب المؤرخين الغربيين يتجاهلون الحديث في كل مـرة عـن براعة الجزائيين و حسن تدبيرهم، و يبررون الانتكاسات الأوربية أمام الجزائر برداءة الأحوال الجوية، صحيح أن الأحوال الجوية ساعدت على نجاح الجزائـريين فـي هـذه المعركة، و لكن يجب الاعتراف ببراعة القيادة الجزائرية، و غرور قيادة الجيش الصليبي و سوء تقديرها. و بينما كان الفرسان يعانون نتيجة للأمطار الغزيرة المتساقطة علـيهم،

---

(310)- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 288.

(311) - المرجع نفسه، ص. 285.

(312) - تدعي بعض الكتب الغربية أن أحد الفرسان و هو من جنسية فرنسية، إسمه سافينياك (Savignac) قام بغرس علم الفرسان في باب عزون، قائلا :« سنعود ». لكن ليس هناك ما يؤكد هذا الزعم. و لتفاصيل أكثر حول هذه القضية أنظر:

RAVENET, op . cit ., PP.303-322 .

(313) - Ibid , P. 309.

(314) - Ibid . P. 308.

مما أدى إلى تبلل حشوة بنادقهم فتوقفت عن الانفجار، خرج حسن آغا ممتطيـا صـهوة جواده مع مجموعة من رجاله و شنوا هجوما على الفرسان، أجبروهم على التراجع لأكثر من نصف ميل عن أسوار المدينة[315]، و رغم شجاعة الفرسان إلا أنهم تكبـدوا خـسائر فادحة، حيث فني نصف جيشهم[316]، خاصة على يد المهاجرين الأندلسيين الـذين كـانوا يُحسنون الرمي بالسهام البعيدة المدى، من القسي الحديدية (Arbalètes)، فكانوا يصيبون أهدافهم بدقة، إلى جانب إخوانهم الجزائريين. و فيما كان الفرسان منسحبين أُصيب حامل رايتهم و هو سافيناك (Savignac) بسهم سقط على إثره و هـو يـضم الرايـة بـين يديه[317].

و أمام الكارثة التي حلت بالفرسان، اضطر الإمبراطور إلى التوجه لإنقاذهم بنفسه، حيث أمتطى صهوة جواده، رفقة النبلاء و رجـال خاصـته، و هـاجم ميمنـة الجـيش الجزائري ، التي اضطرت إلى التراجع، لكنها أعادت تنظيم صفوفها على شاطئ البحـر، ثم عادت إلى المعركة بضراوة، و أجبرت القوات الألمانية على الانسحاب. و أمام هـذا المشهد أسرع شارلكان نحو الجنود الفارين حاملا السيف بيده فعـاتبهم علـى جبـنهم، و حاول رفع معنوياتهم ببعض الكلمات الحماسية، آمرا بضرب الأبواق، و عـودة الجنـود الألمان إلى المعركة، محاولا ببرودة أعصابه اقتحام المخاطر[318]، و تقديم المثل لجنوده، و هكذا أسفرت معركة يوم 25 أكتوبر عن نصر جزائري عظيم، بفضل ثبات المجاهدين الجزائريين و استماتتهم في الدفاع عن المدينة.

و قد اختلفت المصادر بشأن عدد القتلى في هذه المعركة، فقـد ذكـر صـاحب« غزوات» أنه « ما ت في هذا اليوم من الكفار قتلا أزيد من أربعة آلاف و استشهد مـن المؤمنين مائتان»[319]، و هناك من ذكر بأن الخسائر كانت فادحة من الجانبين، فقتل ثلاثة آلاف مسيحي، و أصيب أكثر من مائتي جندي بجروح بليغة بينهم العديد مـن الـضباط،

---

(315) – HAEDO, op.cit., P.71.
(316) - DE GRAMMONT, op.cit., P.61.
(317) - FARINE , op . cit., P. 315.
(318) - Ibid . P. 316.
(319) - غزوات، المرجع السابق، ص.120.

مـنهم نيكـولاس دي فيليغينيـون (Nicolas de Villegaignon)[320]، و هـو أحـد الإخباريين الذين دونوا أحداث هذا التحالف الأوربي ضد الجزائر.

و في هذه الأثناء إشتدت العاصفة مما جعل الأسـطول الأوربـي فـي وضـعية خطيرة، حيث دفعت الأمواج بقطع الأسطول إلى الساحل، و خاصة سفن النقل التي أخذت تسقط الواحدة تلو الأخرى، و في خلال ساعات قلائل تحطمت منها 150 سفينة[321]، أما السفن الحربية الكبيرة فقد كانت اقل ضررا بفضل متانتها و حسن قيادتها، كما وجدت في الجذافين قوة إضافية، حيث عمل قباطنتها على السير بها عكس اتجاه الريـاح محـاولين منعها من الاصطدام بالساحل، و لكن كان عليهم أن يستمروا في التجذيف لمدة 24 ساعة دون انقطاع. و بما أنهم كانوا يفتقرون للقوة اللازمة، فقد أُرغموا على الرسو بالساحل. و أما البحارة الذين سلموا من الغرق فقد تم أسـرهم أو قـتلهم مـن طـرف المجاهـدين الجزائريين، الذين قدموا من المناطق الداخلية للبلاد، الذين كـانوا يركبـون خيـولهم و يجوبون بها طول الساحل، و قد غرقت في هذه الأثناء ستة عشرة سفينة كبيرة من نـوع غالية[322].

و مما زاد في معاناة قوات التحالف الأوربي، أن أغلبية الجذافين على هذه الـسفن كانوا من الأسرى المسلمين، و كانوا يراقبون سير المعركة باهتمام. لذا وجدوا أثناء هـذا الانسحاب فرصتهم الثمينة للتخلص من الأسر، فتركوا التجذيف و اندفعوا إلى الـساحل، و كان عددهم حسب بعض المصادر ألف و أربعمائة رجل[323]. « من تـرك و عـرب، بعضهم من أهل الجزائر و بعضهم من أهل تونس»[324]، و قد تمكنوا من الفرار بعـدما مال عرب الجزائر على أهل تلك الأجفان فاستأصلوهم قتلاً[325]، و لا شـك بـأن هـذه التطورات الجديدة قد زادت من عزيمة الجزائريين، و أحدثت إرتباكا كبيرا وسط قـوات التحالف الصليبي، و رغم محاولة الإمبراطور و قيادة أركان حربه إنقاذ ما يمكن إنقـاذه

---

(320) - FARINE ,op. cit., PP. 316 – 317.
(321) - GALIBERT ,op. cit., P.183.
(322) - DE GRAMMONT, op. cit., P. 62.
(323) – VILLEGAIGNON, op . cit., P. 101.
(324) - غزوات، المرجع السابق، ص. 120.
(325) - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.

مما ألقى به الأسطول إلى الساحل من سلاح و عتاد و جنود، إلا أن تلك المحاولة قد باءت بالفشل، فالأضرار و الخسائر التي لحقت بالأسطول كانت فادحة جدا، فما وصل إلى البر من عتاد أخذه المجاهدون غنيمة باردة، و ما بقي في السفن من مدفعيـة و آلات ذخيرة و مؤن فقد كان مآله الغرق، و حسب المؤرخين الأوربيين فإن الساحل الممتد مـن دلس حتى شرشال، على نحو مائتي كيلومتر، قد صار مغطى بجثث الجنود و قطع السفن المحطمة[326].

أما الغنائم التي حصل عليها الجزائريون، نظرا لكثرتها فقـد أصـبحت مـضربا للأمثال، و مقياسا للغنائم التي أصبحوا يحصلون عليها فيما بعد. و هنا تجدر الإشارة إلى حالة فرناند دي كورتيز، فاتح المكسيك، و هو يرى بأم عينيه سـفينته المحملـة بـذهب المكسيك و التحف الثمينة يبتلعها البحر مع بقية السفن المحطمة[327]، أما أندري دوريا فقد خسر إحدى عشر سفينة من أسطوله[328]، فـضلا عـن الأمـوال الكثيـرة التـي كـان الإمبراطور يغدق عليه بها، و أما شارلكان فقد شوهد، و لأول مرة في تاريخه يبكي على الخسائر التي حلت بجيشه و أسطوله[329]، و قد تأكد لديه بأنه أخطأ التقدير حين كان يعتقد بأن حسن آغا سيسلمه المدينة، و أن أهلها سيستسلمون بـدورهم أمـام القـوة الرهيبة التي تهدد مدينتهم.

لقد تأسف المؤرخون الأوربيون لتهاون إدارة التحالف الأوربي، و التي لم تـزود الجيش بما يحتاجه من ملابس دافئة و خيام، فلو أن شارلكان أقام مقـرا رئيـسيا لقيـادة جيشه، و أمر بإنزال المؤونة و العتاد قبل بدء العمليات، و ترك جيشه يـستريح أثنـاء هبوب العاصفة، لكان بإمكانه أن يتجاوز الكارثة التي حلت بجيشه، و يفسر أحد المؤرخين هذا التهاون بقوله:« إذا كان شارل الخامس قد جهز حملته معتمدا على أمله في الخيانـة فهذا هو الآن قد أُخبر بذلك »[330]، و إذا كان يعتقد بأن حسن آغا سيسلمه المدينـة، و أن

---

(326) - DE GRAMMONT, op. cit., P. 62.
(327) - Ibid. P. 63.
(328) - VILLEGAIGNON, op. cit., P. 135.
(329) - إلتر، المرجع السابق، ص. 162.
(330) - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص. 113.

قوات التحالف ستدخلها دون طلقة رصاص واحدة فها هو حسن آغا قد صار أكبـر قائـد عسكري، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

لقد آل جيش التحالف الأوربي إلى حالة إنهيار نفسي، رغم برودة الأعصاب التـي أبداها شارلكان الذي ظل ينتقل وسط المعسكر محاولا رفع معنويات الجنود[331].

وهكذا إنتهى يوم الثلاثاء 25 أكتوبر تحت تساقط الأمطار الغزيرة، بينما كان كـل مخيم أوربي يحصي خسائره والتي كانت ثقيلة جدا، أما الأهالي فقد باتوا تلك الليلة وكلهم أمل في أن ساعة النصر قد اقتربت.

لقد حاول شارلكان إخراج جيشه من هذه الورطة، لكنه وجد نفسه فـي مواجهـة ثلاث عقبات وليس من السهولة بمكان التغلب على واحدة منها: إصرار الجزائريين على المقاومة المستميتة واستعدادهم لدخول المعركة من جديد، وجيشه الذي أشرف على الهلاك بسبب الجوع والبرد، ثم الانهيار النفسي الذي أصاب جنوده والرعـب الـذي تملكهـم، وجعلهم عاجزين عن مواصلة المعركة، فلم يبق أمام شارلكان سوى التـضرع إلـى ا مرددا بين شفتيه :« لتنفذ إرادتك يا رب!»[332].

وبينما كان شارلكان يحاور مستشاريه في الإجراءات التي يجب اتخاذها إزاء هـذا المأزق، وهل يجب الانسحاب من الجزائر، أم الإنتظار ريثما تتحسن الأحـوال الجويـة ووصول المدد من أوربا ثم إعادة الكرة، وصلته رسالة من أندري دوريا يوم 25 أكتوبر، حملها إليه أحد السباحين المهرة، الذي قام بمغامرة بطولية[333]، وقد جاء في هذه الرسالة: « عزيزي الإمبراطور و ولدي ... المحبة التي في قلبي لكم تلزمني بإنذاركم أنه إذا لـم تغتنموا فرصة الهدوء الذي تمنحكم إياه السماء، لكي تنـسحبوا، فـإن الجـيش البحـري والجيش البري المعرضين للجوع والعطش، وشدة بأس العـدو يـضيعان بـدون زاد... أعطيكم هذا الرأي لأنني أعتقد بأنها آخر فرصة... أنتم مولاي، و إذا لم تتبعوا هذا الرأي

---

(331) - FARINE , op . cit., P. 319.

(332) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص.ص. 291 – 292.

(333) - اخترق برسالته عوما أمواج البحر، و تسرب خلال جمـوع المجاهـدين الجزائـريين، حتـى وصـل خيمـة الإمبراطور و سلّمه الرسالة.

فاستمروا في إصدار أوامركم إلي فإنني سأفقد بكل سرور عند امتثالي لأوامركم، ما بقـي لي من الحياة التي كرّستها في خدمة أسلافكم، و في خدمتكم شخصيا»(334).

فقد أخطر دوريا شارلكان بأن الأسطول لا يستطيع البقاء في البحر أكثر من ذلك، و إذا لم ينسحب حالا إلى جهة تمانتفوس، المواجهة لمدينة الجزائر، فإن بقية السفن سوف تتحطم، و أما من جهة البرّ فالوضع لا يسمح بالبقاء والانتظار، لذا فلا بد من الانسحاب.

3- انسحاب قوات التحالف:

بعد تلقيه هذه الرسالة فَقَدَ شارلكان كل أمل في احتلال مدينة الجزائـر، و أدرك « أن الغنيمة أن ينجو بنفسه »(335)، لقد تذكر الآن النصائح الحكيمة التي قدمها له هذا القائد المحنّك، وأكتشف الأخطاء الفادحة التي ارتكبها، والتي سيتحمل مسؤوليتها كاملـة أمـام الأجيال القادمة، لهذا أدرك بأن التضحية بآماله في احتلال الجزائر هي عقوبة لـه عـن كبريائه وعناده(336)، و احتقاره للآخرين، وبذلك قرّر الانسحاب.

و قد كانت آراء اغلب قادة الجيش تؤيد رأي دوريا، إلا القائـد الإسـباني فرنانـد كورتيز(337)، فاتح المكسيك الذي رأى وجوب البقاء والمقاومة، كما أيده في ذلـك حـاكم وهران الكونت دالكوديت.

يوم الأربعاء 26 أكتوبر أعطى شارلكان الأوامـر بالانـسحاب، وتكفـل باتخـاذ الاحتياطات اللازمة لإنجاح العملية، حيث خرج من خيمته لإعلان أوامره إلى ضباطه،و لكن البعض منهم تلقى هذه الأوامر بصمت كئيب، فتقدم منهم الإمبراطور قائلا: أتريدون أن تُقتلوا!(338).

---

(334) - « Mon cher Empereur et fils … L'amour que j'ai pour vous m'oblige à vous annoncer que, si vous ne profitez pour vous retirer de l'instant de calme que le ciel vous accorde, l'armée navale et celle de terre exposées à la faim, à la soif et à la fureur de L'ennemi , sont perdus sans ressources. Je vous donne cet avis par ce que je le crois de la dernière importance. Vous êtes mon maître; continuez à me donner vos ordres, et je perdrai avec joie, en vous obéissant, les restes d'une vie consacrée aux service de vos ancêtres et de votre personne ». voir:GALIBERT, op . cit., P. 184.

(335) - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.

(336) - أصر شارلكان على مهاجمة الجزائر، رغم تحذيرات دوريا بأن الفصل غير مناسب، و رغم تحـذيرات أخيـه فرديناند، و رغم توسل البابا بولس الثالث نفسه.

(337) - ربما لأنه لم يعد له شيء يخشى عليه، بعد ضياع كنوزه التي جاء بها من المكسيك.

(338) -« Fiat voluntas tua! ».Voir: FARINE, op .cit., P. 320.

عند بداية الانسحاب اضطر شارلكان إلى إعطاء الأوامر بقتل الخيـول، وتقـديم لحومها طعاما للجنود، لإسكات غضب المتطوعين خاصة، و قد ابتدأ بقتل خيوله الفارهة التي جاء بها لنفسه، فتم قتل عدد من الخيول ووزعت لحومها على الجنود، وقد استخدموا حطام السفن كوقود لطهيها[339].

و أثناء الانسحاب نظم شارلكان جيشه على النحو التالي: الجرحى فـي الوسـط، الألمان من الناحية اليمنى، الإيطاليين من الناحية اليسرى لحماية الجرحى، بينمـا تـولى الإمبراطور نفسه الإشراف على مؤخرة الجيش المتكونة من الإسبان وفرسان مالطة، وقد أخذ الجيش في الانسحاب محاذيا لساحل البحر، قاصدا تمانتفوس حيث كان دوريا هنـاك يهيأ مجيء الإمبراطور[340]، وقد كان السير شاقا بسبب الأمطار التي لـم تتوقـف عـن السقوط.

ما إن قطع الجـيش مـسافة حتـى أدركـه الليـل، فنـزل عنـد وادي خنـيس (Le Ruisseau)، حيث قضى ليلته هناك[341]، أما الأهالي الذين كانوا وراء الأسـوار، فقد لاحظوا بداية تحركات القوات الصليبية وهي تجر ذيولها منـسحبة، فكانـت الفرحـة تغمرهم.

يوم الخميس 27 أكتوبر، واصل الإمبراطور انسحابه مع قواته حتـى بلـغ وادي الحراش، وقد عانى هو وجنوده من متاعب البرد، الجوع وهجمـات الـسكان و القبائـل المجاورة، الذين كانوا يرشقونهم بالسهام، البنادق و الحجارة، وسـط اسـتمرار سـقوط الأمطار، و لم يتمكن الجيش المنسحب من اجتياز الوادي الذي كان في حالـة فيـضان، فاضطروا إلى قضاء ليلتهم في العراء، و لم يجدوا ما يسد رمقهم سوى خيـولهم، حيـث اضطروا إلى أكلها، و كان عددها أربعمائة فرس[342].

و في صباح يوم الجمعة 28 أكتوبر، بدأ الجيش في استخدام قطع السفن المتنـاثرة على الساحل في إنشاء جسر ليعبروا به إلى الضفة الأخرى لوادي الحراش، بينمـا قـام

(339) - FARINE, op .cit., P. 321.
(340) - VILLEGAIGNON, op. cit., p. 104.
(341) - بلحميسي، المرجع السابق، ص. 105.
(342) - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.

الفرسان العرب بالهجوم عليهم من الجهة الأخرى و قتلوا منهم عددا كبيرا، أما الخيالة فقد عثروا على ممر فوق الجسر عبروا منه، في حين عبر شارلكان بالقرب من مصّب النهر، فوق الرمال، و بغية جمع القوات اضطروا للبقاء في وادي الحميز حيث قـضوا ليلـتهم هناك. و في يوم السبت 29 أكتوبر، اضطروا إلى إقامة جسر جديد لإجتياز هذا الـوادي، و واصلوا سيرهم و لم يصلوا إلى تمانتفوس إلا في مـساء ذلـك اليـوم[343]، ذلـك لأن المجاهدين الجزائريين من أهالي مدينة الجزائر، و المناطق المجاورة لها، كانوا يلاحقون فلول الجيش المنسحب ليل نهار، حيث كانوا يفتكون بالمتأخرين مـنهم، و نتيجـة لهـذه المطاردة التي تعرضت لها مؤخرة الجيش اضطر الجنود إلى الغطس في الماء هربا مـن ضربات الجزائريين، و نظرا لجهلهم بالسباحة، و غزارة المياه فقد غرق بعضهم في تلك السواقي و لم يتوقف الجزائريون عن ملاحقة الجيوش المنسحبة على مدى أربعة أيـام، و لم ينته القتال إلا بوصول المنسحبين إلى تمانتفوس، حيث كان ينتظرهم دوريا مع ما تبقى من قطع الأسطول[344]، و خوفا من هجمات الجزائريين عليهم، استقروا بـأطلال مدينـة رسغونيا (Resgunia) الرومانية حيث مكثوا بها يومي الأحد و الاثنين.

لقد كانت حالة الجيش المنسحب سيئة جدا، ففي النهار جوع و تعب، و في الليـل برد و خوف دون نوم، في وسط الطين، و لم يعودوا قادرين على السير، فألقى الجنـود المنهكون أسلحتهم حتى في الطريق[345]، أما مـؤخرة الجـيش فكانـت غنيمـة سـهلة للجزائريين.

و لدى وصول ما تبقى من جيشه إلى تمانتفوس، عقد شارلكان مجلسا حربيا جمـع فيه الضباط و النبلاء للتشاور حول إعادة الهجوم على مدينة الجزائر أو تأجيل مهاجمتهـا إلى وقت آخر، و في هذه الأثناء كان دوريا منشغلا بإصلاح السفن التي أصيبت بالعطب، و كان يرى ضرورة الابتعاد عن هذه الشواطئ الخطيرة أثناء الاعتدال الخريفي، و بعـد مباحثات دامت يومين، كانت أغلبية الجيش تؤيد فكرة التأجيل، إستنادا على دلائل ثابتة، و

---

(343) - DE GRAMMONT, op. cit., P. 64.

(344) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 293.

(345) - إلتر، المرجع السابق، ص. 164.

منهم من أيد ذلك لأن الإمبراطور هو صاحب الفكـرة، فـي حـين عـارض، فرنانـد كورتيز[346]، الذي كان يرى ضرورة إعادة الكرة على مدينة الجزائر، بـل طلـب مـن الإمبراطور السماح له باختيار بعض العناصر القوية من الجيش و تزويدها بالمؤونـة و الذخيرة اللازمة،و تعهد بأنه سيحتل الجزائر[347]، و قد أيده في ذلك الكونـت دالكوديـت حاكم وهران، الذي كان يعيش منذ شبابه بإفريقيا، و هو محـارب عُـرف بـشجاعته و اندفاعه[348]، كما أنه كان يظن بأن حزم حسن آغا سوف لـن يـستمر طـويلا، إذا رأى أعداءه مستبسلين في مشروعهم هذا[349]، لكن شارلكان رفـض فكـرة مهاجمـة مدينـة الجزائر من جديد، و أيد فكرة دوريا لأنه الأكثر خبرة و معرفة بأمور البحر، و الذي كان يرى بأن هبوب العاصفة سيستمر مدة من الزمن، و حسب بعض المصادر الغربيـة[350]، فإن شارلكان رفض السماح لبعض قادته بإعادة الكرة على مدينة الجزائر، لأنـه كـان لا يرغب في ترك هؤلاء القادة ينالون شرف الانتصار فيما فشل فيه هو شخصيا.

لكن يبدو أن إعادة الكرة على مدينة الجزائر، لم يعد ممكنا من الناحيـة العمليـة، فالجيش قد نال منه التعب، بعدما ظل يعاني من الجوع، البرد و قلة النوم، ثـم أنـه فقـد الروح القتالية، و انهارت معنوياته، بعد الذي شاهده أثناء المعركـة الحاسـمة، كمـا أن استماتة الجزائريين في الدفاع عن مدينتهم بشجاعة لم يكن يتوقعها العدو، كل ذلك يؤكـد بأن أي محاولة للهجوم على مدينة الجزائر تعد ضربا من ضروب الانتحار.

لذلك قرر شارلكان الانسحاب في أقرب وقت، و في الأول من نوفمبر باشر الجنود بالصعود إلى السفن، و كان مجلس الحرب قد قرّر الانسحاب بشكل جماعي، لكن البحـر عاد إلى الهيجان من جديد مع مساء ذلك اليوم، بعد أن كان هادئا قليلا خلال النهار، لذلك اضطر المجلس الحربي إلى إصدار أوامر تسمح لقائد كل سفينة بالتحرك بعد انتهاء عملية

---

(346) – BRANDI, op. cit ., P. 456.

(347) - DE GRAMMONT, op . cit., P. 66.

(348) - كان يرى أنه من غير اللائق الانسحاب أمام جنس كثيرا ما حقق ضده انتصارات سابقة.لكن هذا الانـدفاع قـد كلفه حياته أثناء حملته على مستغانم سنة 1558 م كما سنرى في الفصل الموالي.

(349) – RUFF, op. cit., P. 72 .

(350) - FARINE , op . cit ., P. 324 , et voir aussi: RUFF. P. 72.

التحميل[351]، و كان الجيش الإيطالي هو أول من ركب البحـر، ثـم تـبعهم الألمـان ، فالإسبان، لكن العاصفة اشتدت عمّا كانت عليه، و هاج البحر، و خاصة عنـدما كانـت السفن تدور حول رأس تمانتفوس فاصطدم بعضها بالصخور فتحطمت، وغرقـت بينمـا سقط من فيها أسرى بيد الأهالي[352]. أما شارلكان، رغم أنه ركـب سـفينته يـوم أول نوفمبر، إلا أنه لم يغادر الجزائر إلا في اليوم الثالث من نفس الشهر[353]، بعـد أن هيـأ انسحاب كل الأحياء من بقايا جيشه.

وهكذا لم يدم بقاء هذه الحملة الصليبية الضخمة، التي اسـتهدفت تحطـيم الدولـة الجزائرية الفتية سوى إثنى عشر يوما، من الأحد 23 أكتوبر إلى الخمـيس 03 نـوفمبر 1541.

أتجه شارلكان و فلول جيشه إلى مدينة بجاية[354]، التي مازالت واقعة تحت نفوذه، وقد وصلوها في اليوم الرابع من نوفمبر، وكان البحر لا يزال مضطربا، بحيث تحطمـت لهم تسع عشر سفينة، وقد كان الإمبراطور يريد من وراء التوجه إلى بجاية، التزود منها بالطعام لأن الجيش كان يئن تحت وطأة الجوع، لكن المدينة كانت هي الأخرى تعاني من الجوع والبؤس نتيجة للحصار الذي ضربه المجاهدون الجزائريون على المدينة الأسيرة ، كما أن الأحوال الجوية قد أدت إلى قطع الاتصالات بين بجاية وجزر البليار، بالإضـافة إلى امتناع السكان المجاورين للمدينة عن بيع منتوجاتهم الزراعية، فأضطر الجنود إلـى أكل الكلاب والقطط والأعشاب[355].

و إزاء هذه الوضعية الصعبة، لجأ الإسبان إلى أمير بجاية ملتمسين منه تزويـدهم بالأرزاق، وكان أمير بجاية وسلطان كوكو، أحمد بـن القاضـي، قـد تعهـد للإسـبان

---

(351) - DE GRAMMONT, op.cit., P. 66.

(352) - بينما كانت السفن الأولى تتهيأ لمغادرة تمانتفوس أدت العاصفة إلى تحطم سفينتي نقل، على مسافة قليلـة مـن المدينة فسارع الجزائريون لقتلهم لكن هؤلاء النصارى أظهرو شجاعة كبيرة في الدفاع عن أنفسهم حيث توجهوا بجرأة نحو المدينة وعندما علم حسن آغا بأنهم يريدون الخضوع إليه خرج لملاقاتهم، فأحس بالشفقة اتجاههم فعفـى عـنهم. أنظر: FARINE, op.cit.,P.325.

(353) - تذكر كتب التاريخ أن شارلكان لما وضع رجله في السفينة سقط التاج من على رأسه، فألتقطه، وبما أنه لم يعـد لائقا لمثله حمله، إنتزعه عن رأسه و رماه في البحر.

(354) - PELLISSIER, op. cit., P. 65.

(355) - بلحميسي، المرجع السابق، ص. 105.

بمساعدتهم، والانضمام إليهم حال وصولهم إلى الجزائر، لكنه عندما علم بالكارثـة التـي حلت بالقوات الغازية اضطر للبقاء في منطقته، واكتفى بإرسال بعض المؤونـة للإسـبان ببجاية مقابل دفع ثمنها ذهبا[356].

ظل الأسطول الأوربي في ميناء بجاية إلى غاية يوم 16 نوفمبر، وأثناء هذه المدة تكالب الجنود على الجالية اليهودية المقيمة بمدينة بجاية، فشردوا أفرادها واستولوا علـى أموالها، كما أحرقوا كتبها المقدسة[357]. وهكذا صب الإمبراطور وجنوده جـام غـضبهم على اليهود.

وبعدما تم إسعاف الجرحى، وإصلاح السفن اهتم شارلكان بترميم حصون مدينـة بجاية وأسوارها ووعدها بالمدد السريع، ثم أمر بمغادرتها يوم 23 نوفمبر، حيث انطلقت سفن صقلية، جنوة ومالطة، أما الإمبراطور فلم يبحر إلا في يوم 23 نوفمبر، حيث توجه إلى جزيرة كورسيكا التي وصلها بعد ثلاثة أيام، وفي 02 ديسمبر حل بقرطاجنـة[358]. وهكذا عاد شارلكان إلى أرض إسبانيا منكسر القلب، محطم المعنويات، بعد رحلة شـاقة بقية راسخة في ذهنه إلى آخر يوم من حياته.

وقد عاد شارلكان إلى أوروبا مذموما، مخجولا، محتقرا مـن طـرف رعيتـه و عرضة لتهكمهم وسخريتهم وهجائهم الحاد[359]،وخاصة من جانب أعـداء نظامـه، ولـم يستطع إسكاتهم رغم التبرعات والهدايا التي ما برح يبذلها لهؤلاء[360].

وقد حفظ الشعر العربي ذلك الفشل الذي مني به شارلكان، الذي قيل فيه:

سلوا شرلكان كم رأى من جنودنـا فليس له إلا هـم مـن زواجـر

فجهـز أسطـولا وجيشـا عـرمـرما ولكنـه قـد آب أوبـة خـاسـر[361]

---

[356] – DE GRAMMONT, op. cit., P. 67.

[357] - بلحميسي، المرجع السابق، ص. 105.

[358] - MERCIER ,op. cit., P. 54.

[359] - جاء في وثيقة الوزارة الحربية الفرنسية عن هزيمة شارلكان أن هذا الأخير لم يعد مباشرة إلى إسبانيا بعد هـذه الكارثة خوفا وخجلا. بل ذهب إلى إيطاليا، حيث أرسل سلسلة ذهبية كهدية للهجاء الإيطالي الشهير آريتـان (Aretin) فوضعها هذا الأخير في راحة يده ليتحسس وزنها، ثم قال :« إنها لخفيفة نوعا ما بالنسبة لخطإ من هذه القداحة». أنظر: مولود قاسم نايت بلقاسم **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830**، الجزء الأول، دار البعـث، قـسنطينة، الجزائر،1985،ص. 143.

[360] – PELLISSIER, op.cit., P. 66.

لقد جاء شارلكان إلى مدينة الجزائر وهو أكثر ثقة في إحتلالها بأقل التكاليف، لكنه مني بهزيمة ساحقة، كادت أن تكلفه حياته، حقا، لقد نجا من خطر كبير كان يهدده، ولم يدرك ذلك إلا بعد عدة أشهر من رجوعه إلى إسبانيا ، فقد كان خير الدين، الخبير بشؤون البحر يعلم أن شارلكان يتجهز بصفة جدية لغزو الجزائر، لذلك إقترح منذ شهر جوان 1541 على السلطان سلميان تجهيز أسطول بحري من مائة سفينة يتوجه نصفها إلى الجزائر انتظارا لأسطول العدو، و النصف الآخر يهاجم الأسطول الأوربي الموزع بين صقلية، نابولي، جنوة، و إسبانيا، لكن رجال الديوان السلطاني اعترضوا على هذا الاقتراح بحجة أنه لا يمكن الاستغناء عن هذه القوة البحرية في هذه الظروف، بل يجب التريث إلى غاية التحقق من مسير الأسطول الأوربي نحو الجزائر، وحينها يتم إرسال المدد بسرعة. وما إن وصلت أنباء الحملة الأوربية على الجزائر إلى استانبول حتى جهز خير الدين أسطولا قويا، مدعما بالرجال والمعدات اللازمة قاصدا الذهاب لنجدتها، لكنه لم يتحرك إلا في شهر أكتوبر، وحالما وصل إلى السواحل الإفريقية، علم بأن الأسطول الأوربي قد انسحب منهزما[362]، ولم يصل أسطول خير الدين إلى الجزائر إلا بعد انسحاب آخر سفن الأسطول الأوربي من تمانتفوس، وبهذا أفلت شارلكان ومن بقي من جنده من قبضة خير الدين.

أما حسن آغا، فبعد هذا الإنتصار الباهر، أرسل إلى السلطان سليمان يخبره بالنصر الذي أحرزه المسلمون، فتلقى خير الدين هذه الرسالة وحملها بنفسه إلى السلطان، ففرح بذلك وأرسل إلى حسن آغا فرمانا يمنحه لقب« باشا»، وهي المرة الأولى التي يمنح فيها أحد حكام الجزائر هذا اللقب[363]. كما أرسل السلطان حلات لحسن آغا وأعوانه وخاصة رجال البحر منهم، أمثال، حيدر، كجك علي، و غيرهما[364].

حقا إن الشجاعة التي أظهرها حسن آغا في مواجهة التحالف الأوربي، وحسن تدبيره، وبراعة خططه، وحنكة مساعديه وبسالتهم وتفانيهم في الدفاع عن مدينة الجزائر،

---

(361) - علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص. 288.

(362) - DE GRAMMONT,op. cit., PP. 67-68 .

(363) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص.297.

(364) - بن أشنهو، المرجع السابق، ص. 203.

كل ذلك يجعله ورجاله، جديرين بالاحترام والتقدير، ومما زاد في مكانة حسن آغا لـدى الجزائريين هو أنه قدم مرة أخرى دليلا على سخاء نفسه وكرمها، إذا لم يحتفظ لنفسه من تلك الغنائم الهائلة التي نالها الجزائريون سوى بدبوس. بينما قام بتوزيع كل تلك الغنـائم قائلا بأن شرف هذا النصر يكفيني[365]. فقد نال حسن آغا شرف الجهاد فـي سـبيل ا ، وشرف حفظ الأمانة وشرف قهر الأعداء الصليبيين، بالإضافة إلى شرف البطولة، فكـل ذلك ليس بالشيء الهين .

- المبحث الثالث : نتائج المعركة وأسباب هزيمة التحالف الأوربي:

1-خسائر التحالف الأوربي ومغانم الجزائريين:

لقد تكبدت قوات التحالف الأوربي خسائر فادحة في الجزائر، وقد اختلفت تقديرات المؤرخين بشأن هذا الموضوع. أما الخسائر البشرية فيقدرها البعض باثنى عشر ألفا بين قتيل وجريح[366]، أما دي غرامون فقد ذكر بأنها تراوحت بين 15 إلى 18 ألـف قتيـل، منهم ألفي جندي قتلوا أثناء الانسحاب[367]. هذا رغم الحرص الذي أبداه الإمبراطور أثناء هذه العملية، أما الأسرى فقد كان عددهم كبيرا جدا، لدرجة أنه صار بالإمكان شراء أسير ببصلة[368].

أما الخسائر المادية فكانت فادحة أيضا تمثلت في مائتي سفينة، من بينها 30 سفينة حربية، و200 مدفع وكل الأسلحة والذخيرة و الأدوات[369]، وقد جاء الغزاة بأربعة آلاف من الخيل فلم يعودوا إلى بلادهم بفرس واحد.« مات بعضها برماح المـسلمين والـبعض أكلوها من الجوع الذي وقع بهم وقتلوا بعضها بأيديهم لضيق سفنهم »[370].

وجاء في تقرير بعث به أحد الجواسيس إلى الملك فرانسوا الأول، يصف فيه نكبة شارلكان حيث يقول:« فلم يعرف في حياته خسارة فادحة مثلما عرفها الآن، إذ خسر كل ما لديه من المدفعية والذخيرة والخيول ومات من الرجال والبحارة عـدد لا يحـصى ...

---

(365) - HAEDO, op.cit., P. 72.
(366)- GARROT, op.cit., P. 408.
(367) - VILLEGAIGNON ,op.cit., P .105.
(368) - DE GRAMMONT, op.cit., P. 68.

(369) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 297.
(370) – غزوات، المرجع السابق، ص. 121.

وهكذا تقدر الخسائر في الجملة أربعة ملايين قطعة ذهبية»[371]، وعليه يمكن وصف ما حل بالأسطول الأوربي أمام مدينة الجزائر بالكارثة الحقيقية.

أما مغانم الجزائريين من هذه العملية فقد كانت كثيرة جدا، لدرجة أنها صارت مضربا للمثل بشأن كثرة الغنائم، وقد تمثلت في كميات هامة من الأسلحة و الذخيرة والعتاد، كما تمكنوا من الإستيلاء على خمس سفن حربية ضخمة منها أربعة في حالة جيدة،والخامسة بها عطب خفيف، بالإضافة إلى 60 قطعة مدفعية من بينها 20 مدفع من العيار الكبير[372].

وهناك من ذكر بأن الجزائريين قد تمكنوا من انتشال مائة وخمسين قطعة مدفعية من البرونز من البحر، وكميات كبيرة من الأسلحة وأمتعة أخرى من مختلف الأصناف[373] إستعملوها في تعزيز تحصينات المدينة وتسليحها.

كما غنم الجزائريون كميات هامة من الأموال بالإضافة إلى الكثير من الرجال والنساء و الأطفال الذين جاؤوا لمرافقة قوات التحالف، وعدتهم ألفان[374] ،وهنا يمكن القول بأن حضور الأطفال والنساء دليل آخر على غرور قادة التحالف الأوربي و اعتقادهم بأن النصر سيكون حليفهم وبأقل التكاليف، لكنهم صدموا عندما وجدوا بأن الأمور قد سارت عكس ما كانوا يتوقعونه.

2- النتائج المعنوية للمعركة:

لقد ترتبت عن هزيمة قوات التحالف الأوربي نتائج معنوية لا تقل عن النتائج السياسية، فبالنسبة لشارلكان، فإن وقع الهزيمة كان عنيفا وغير متوقع، لذلك أصيب بإحباط شديد أدى إلى انهيار معنوياته،بل إلى تردي أحواله الصحية، حيث أصيب بعد عودته إلى أوربا بداء النقرس(La Goutte) للمرة التاسعة[375]، ولكن هذه المرة أجتاح

---

(371) - آندري كلو، المرجع السابق، ص. ص.192- 193.
(372)- DE LA PRIMAUDAIE, Documents..., **"Lettre De D.Alonso De Cordoba A Son Pere Le Comte D'Alcaudète, Oran, 25 Decembre 1541"**, R.A., Tome 21,1877,P.226.
(373) – DE GRAMMONT, op. cit., P.68.
(374) - بلحميسي، المرجع السابق، ص. 108.
(375)- كان شارلكان يعاني من مرض النقرس، وكان يشتد عليه خاصة في فصل الشتاء، حيث كان يضطر إلى ملازمة الغرفة، وقد أثر ذلك على نفسيته حيث كان كئيب المزاج.

هذا الداء كل أعضائه تقريبا[376]، ولا يستبعد أن تكون الظروف الصعبة التـي عاشـها شارلكان مع جيشه أثناء الحملة على الجزائر، من سوء التغذية، وبرد، و إضطرابات في برنامج النوم هي السبب في تدهور حالته الصحية.

كما أحدثت انتصارات الجزائريين على التحالف الأوربي هلعا كبيرا في الأوسـاط الأوربية، حيث خيم شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة، لدرجة أنهم صاروا إذا رأوا سفينة عن بعد نسبوها لخير الدين فيتعالى الصراخ ويفر الـسكان مـن ديـارهم وحقولهم[377]، وإذا حطمت الزوابع سفينة توهموا بان خير الدين هو السبب، بل ذهب بهم الأمر إلى حد الاعتقاد بأن خير الدين وأصحابه هم السبب في كل بلية تحل بـالأوربيين، « فإذا أغرقت العاصفة مركبا للصيادين، توهموا بأن خير الدين هو السبب الـذي أثـار البحر وأغراه على إغراق سفنهم، وحتى الجرائم، السرقات، انتهاك الحرمات، الأمـراض التي لا زالت العلوم الطبية عاجزة عن تفسير أسبابها، كل ذلك من عمـل خيـر الـدين بربروس »[378]. وكانوا يرددون في عويلهم « بربروسة، بربروسة أنت صاحب كل شر. ما كان من ألم أو عمل مؤذ وجهنمي مدمر إلا والسبب فيه هذا القرصـان الـذي لا نظير له في العالم »[379].

وعليه يمكن القول بأن اندحار أسطول التحالف الأوربي أمام الجزائريين قد ترتب عنه نتائج مادية ومعنوية وخيمة على أوربا، ظلت تعـاني مـن وطأتهـا طيلـة ثلاثـة قرون[380]. و بعد هذا النصر الذي حققته الجزائر أخذت صفة « الجزائر المحروسـة»، وصار يحسب لها ألف حساب.

---

(376) -FATIO, op. cit., P. 231.

(377) - بلحميسي، المرجع السابق، ص. 110.

(378)-«Lorsqu'une tempête a englouti pour toujours un barque de pécheurs : c'est Barbarousse qui est intervenue au près du démon. Les crimes . Les voles. Les sacrilèges et les maladies que la science médicale ne peut encore expliquer, sont l'œuvre de Barbarousse » , Voir : PRIEUR, op.cit.,P. 194 .

(379) - علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص. 228.

(380) – GALIBERT, op. cit., P. 184.

كان لهذا النصر صدى واسعا في أوساط الجزائريين، حيث أقيمت الأفراح، وتواصلت الاحتفالات، وعم الأمن والاستقرار حيث « بقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار و أمان الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه»[381].

وحتى اليهود المقيمين بالجزائر، احتفلوا بانهزام العدو المسيحي، رغم أنهم كانوا في أسفل درجات السلم الاجتماعي، وقد كان اليهود يكنون حقدا كبيرا للإسبان الذين أذاقوهم شتى أنواع الاضطهاد والاحتقار عندما كانوا في أوربا. لذلك كان اليهود بالجزائر يخشون من استيلاء الأسبان على المدينة، لأن ذلك سيجعلهم عرضة للاضطهاد الإسباني من جديد، وبمجرد ما علم اليهود بنكبة الأسطول الأوربي حتى عمتهم الفرحة، وصاروا يصومون اليوم الثالث من شهر ششوان، ويحتفلون في الرابع منه[382]، وكانوا ينشدون القصائد، يمدحون فيها الجزائريين، ويمجدون بطولاتهم. وقد بقي اليهود إلى غاية القرن التاسع عشر يحتفلون كل سنة بذكرى انتصار الجزائر عام 1541[383].

إن مدينة الجزائر المحروسة ستواصل مستقبلا تألقها وازدهارها، وستزداد مع ذلك عداوة الأوربيين لها، وسيهابها الجميع. وشيئا فشيئا فرضت سيطرتها وقوانينها على البحر المتوسط، وصار ينظر إليها على أنها المدينة التي لا تقهر.

3- أسباب هزيمة التحالف الأوربي:

أ- في نظر الأوربيين:

لقد حاول الكثير من المؤرخين الوقوف على أسباب الكارثة التي حلت بالأسطول الأوربي أمام مدينة الجزائر، وقد تباينت الآراء بشأن هذه المسألة، ويمكن حصر الأسباب التي ورد ذكرها من طرف المؤرخين الأوربيين في النقاط التالية:

- عناد شارلكان الذي صمم على غزو الجزائر، رغم تحذيرات أندري دوريا، الخبير بشؤون البحر، والذي أخطره بأن الفصل متقدم، و أن سواحل شمال إفريقيا تكون خطيرة في هذه الفترة، ورغم النصائح التي قدمها الملك فرديناند لأخيه شارلكان، وحتى

---

(381) - غزوات، المرجع السابق، ص. 122.

(382) - عرف هذا الانتصار عند اليهود باسم أبو ريم الجزائر. أنظر: كورين شوفالييه المرجع السابق، ص. 120.

(383) - بلحميسي، المرجع السابق، ص. 110.

التماس البابا بولس الثالث نفسه، إلا أن شارلكان لم يبال بكل هذه النصائح التي أسدى إليه بها مستشاروه الثقاة(384).

لكن يبدو أن شارلكان قد أصر على مهاجمة الجزائر في شهر أكتوبر، لكي يضمن عدم تدخل الأسطول العثماني لنجدتها، لأنه في هذه الفترة يكون هذا الأخير قد عاد إلى استانبول لقضاء فصل الشتاء. وفي انتظار فصل الربيع، وخروج هذا الأسطول من مشتاه يكون أمر الجزائر قد حسم، وإذا كان هذا الاحتمال صحيحا، فإن شارلكان قد أخطأ التقدير، حيث تجاهل بسالة المقاومة الجزائرية وغاب عنه بأن قوة الجزائر قد تنامت، بحيث أصبحت قادرة على رد أي عدوان دون استعانتها بالدولة العثمانية وهذا ما حصل فعلا.

- كان شارلكان متأكدا من خيانة حسن آغا، لذلك لم يتخذ الإجراءات الوقائية اللازمة لإنجاح المشروع، حيث أظهر المؤرخون الأوربيون حزنهم ورثاءهم للتهاون وعدم اكتراث إدارة التحالف الأوربي(385). لكن حتى و إن سلمنا فرضا بأن شارلكان قد حصل على معلومات تفيد بأن حسن آغا سيسلمه المدينة، ألم يكن في مقدور قوات التحالف الأوربي دخول مدينة مجموع المدافعين عنها لا يتجاوز ستة آلاف شخص؟. إن الدور البطولي الذي لعبه حسن آغا في تنظيم وقيادة المقاومة ينفي عنه كل سلوك مريب ويفند تلك الادعاءات التي أغلبها فرنسية، والتي تسعى دوما إلى تشويه تاريخ الجزائر وخاصة الفترة العثمانية، من خلال تشويه سمعة رموز المقاومة الجزائرية و تقزيم انتصارات الشعب الجزائري ضد الأوربيين منذ القرن السادس عشر.

- العاصفة التي هيجت البحر، بعد نزول قوات التحالف إلى البر، حيث لا تكاد تخلو كتب المؤرخين الأوربيين من الإشارة إلى أن العواصف و الأمطار هي سبب النكبة التي حلت بالأسطول الأوربي، لكن مثل هذه التفسيرات المغرضة، قد عودنا عليها الكتاب الغربيون، الذين يرجعون سبب الهزائم التي حلت بالأوربيين إلى العوامل الطبيعية، متجاهلين بذلك الحديث عن بسالة المقاومة وحنكة القادة الجزائريين، لكن في هذه الحالة

(384) -VILLE GAIGNON, op.cit., P. 84.

(385) - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص. 113.

بالذات، المعركة كانت برية، والإنزال تم فعلا، ومدينة الجزائر تمت محاصرتها بجـيش قدرته المصادر الأوربية نفسها ب36 ألف جندي من مختلف الجنسيات، والعاصفة حدثت بعد بدء المعركة. لذا لا ننكر بأن العواصف و الأمطار قد كانت من العوامـل المـساعدة على نجاح المقاومة الجزائرية، وإحرازها لهذا النصر. ولكنها مع ذلك لم تكن سببا رئيسيا في هزيمة قوات التحالف.

- كان الأسطول الأوربي قد وصل إلى تمانتفوس يوم الخميس 20 أكتوبر، لكـن شارلكان لم يأمر ببدء العمليات إلا في يوم الأحد 23 أكتوبر، فكانت الأيام الثلاثة حـسب بعض المؤرخين(386) بمثابة فرصة ضائعة للنصارى، أحسن الجزائريون استثمارها فـي إعلان التعبئة العامة، وتنظيم صفوف المقاومة.

- خطأ أندري دوريا – رغم معرفته الجيدة بشؤون البحر المتوسط – عندما جمع أعدادا كبيرة من السفن الحربية وسفن النقل في ساحل لا يحتوي على مأوى يمكن اللّجوء إليه، وفي مكان تزداد فيه خطورة الرياح الشمالية الشرقية(387).

وهناك من أشار إلى الكمية القليلة من المؤونة التي تم إنزالها إلى البر، والتي لـم تكن تكفي لتغذية الجيش الغازي سوى لمدة يومين أو ثلاثة أيام على أكثر تقدير.

ولكن يجب الإشارة هنا إلى تلك التقارير التي أرسل بها الجواسيس الإسبان حـول نظام دفاع مدينة الجزائر، وعدد المدافعين عنها، إضافة إلى غياب خير الـدين بأسـطوله هذه الفترة بالذات، كلها دلائل تؤكد بأن شارلكان ورجاله كانوا يعتقدون بأنهم سـيدخلون الجزائر دون مشقة وفي أقل وقت ممكن، بل هذه الحملة ستكون نزهة أكثر منهـا شـيء آخر، فحضور النساء و الأطفال(388)، رفقة قوات التحالف خير دليل علـى ذلـك، لكـن الشيء الذي لم يؤخذ في الحسبان هي المقاومة البطولية لسكان مدينة الجزائر والمنـاطق المجاورة لها، الذين أبدوا شجاعة نادرة في مواجهة أكبر أرمادة عرفها البحر المتوسط في ذلك الوقت.

(386)- FARINE, op. cit., P.301.

(387) – VILLEGAIGNON, op. cit., P.84.

(388) - اصطحب كبار أشراف الإسبان، الكتالون، الإيطاليون و الألمان زوجاتهم الدوقات، الماركيزات و الكونتيـسات وحضروا لمشاهدة انتصار إمبراطورهم، أنظر: أوزتونا، المرجع السابق، ص.298.

- الأخطاء المرتكبة في العمليات البحرية والبرية. فقد تعجب المؤرخون الغربيون من كثرة الأخطاء التي أرتكبها قادة التحالف، مثل ترك مدفعية الحصار في السفن وكذلك الذخائر و المؤونة، مع أن حيازة المخيم في الحامة كان يسمح بسهولة بإقامة مركز كبير للتموين، كما أن الحفاظ عليها كان يعني ضمان خط الرجعة، فليس من السهولة بمكان فهم كيف أن جيشا يقوده شارلكان، يضم في صفوفه ضباطا أمثال أنـدري دوريـا، فرنانـد كورتيز، كاميل كولونا، وغيرهم يقوم بالهجوم بطريقة غير سليمة، حيـث أنطلـق نحـو المدينة دون ترك احتياط، ثم توزع حول أسوار المدينة على امتداد واسع جـدا ، مجـددا بذلك العملية التي أحدثت الكارثة بحملة هوغودي مونكاد سنة 1519، ولا شك بأن قيـادة المقاومة الجزائرية قد تمكنت بفضل تجربتها ومعرفتها الجيدة بتضاريس المنطقـة مـن استثمار هذه الأخطاء الفادحة التي ارتكبتها قيادة التحالف الأوربي، التي نال منها الغرور مناله، وألحقت بها هزيمة ساحقة لم تكن تتوقعها.

- بالإضافة إلى الأسباب السابقة، فإن الكتب الأوربية لم تخل من الإشـارة إلـى الجوانب النفسية، وهنا تجدر الإشارة إلى تلك الحادثة التي تـسببت فـي التـأثير علـى معنويات الجنود النصارى، واعتبرت نبوءة شؤم، والتي تتمثل في سقوط شـارة الـسفينة الملكية (La Réale) في البحر على مشارف مدينة الجزائر[389]، أما الجزائـريين فقـد استبشروا بهذه الحادثة واعتبروها فأل خير[390]، وقد ذكر ساندر رونغ وف، دونيس فـي كتابهما (Fondation De La Régence D'Alger) بشأن هذه الحادثة:

« Nous n'en pouvons conclure qu'une seule chose : c'est que pour tirer un mauvais présage d'une rencontre si fortuite et d'un aussi mince intérêt. Il fallait nécessairement que les esprits fussent déjà en proie à une vague inquiétude [391].»

وما يؤكد لجوء المؤرخين الغربيين إلى التفسير الديني لأسباب فشل هذه الحملة ما أشار إليه جون ب. وولف حيث ذكر بأن المؤرخ الفرنسي برانتون الذي كـان معاصـرا

---

(389) – VILLEGAIGNON, op. cit., P. 90.

(390) - مخطوط « المحكمة »، المرجع السابق.

(391)- VILLEGAIGNON, op. cit., P. 90.

للحادثة، والكثير ممن شاهدوا أو سمعوا عنها ، تساءلوا:« لماذا لم ينـصر ا مـشروعا مسيحيا في مثل قداسة و عدالة هذا المشروع ؟» ، ثم علق قائلا:« فهل كان ذلـك لأن ا أراد أن يجعل الناس يؤمنون بأنه لا شيء مؤكد حتى تقع الواقعة ؟»[392].

وهنا يبدو أن جون وولف قد وقع تحت تأثير التفسيرات الدينيـة التـي أصـدرها الآخرون، رغم أنه عرف بمواقفه الليبرالية من الدين والعقيدة.

ب- في نظر المسلمين:

أما المصادر الإسلامية فقد أشارت بدورها إلى عدة أسباب يمكن حـصرها فيمـا يلي:

- عناد الإمبراطور وغروره، حيث ذكر صاحب مخطوط «المحكمـة»:« ونـزل الجلنار أنداريه[393] منها فوصل إلى الطاغية بمحلّته، فقبل يده وقال له أيهـا الملـك ألـم أحذرك من السفر إلى الجزائر، فانظر عاقبة الأمر الذي كنت حذرتك منه. والآن قم أطلب النجاة لنفسك»[394].

- أن ا سبحانه وتعالى قد خذل أعداء الدين، حيث شبه أهـل الجزائـر هزيمـة التحالف الأوربي بهزيمة أصحاب الفيل، حيث ذكروا في رسالة وجهوها للسلطان سليمان: أن ا سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده« بعقاب أصحاب الفيل وجعل كيـدهم في تضليل، وأرسل عليهم ريحا عاصفا وموجا قاصفا، فجعلهم بسواحل البحر بين أسـير وقتيل، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل»[395].

- قوة الإيمان لدى الجزائريين وتحمسهم للجهاد في سبيل ا ، ويبـدو ذلـك فـي الشجاعة النادرة التي أظهرها حسن آغا، وفي خطابه للناس ، يحرضهم فيه على الجهـاد قائلا :« يا أهل الجزائر فقد تعين الجهاد علينا معشر المسلمين لا لعرض الحياة الدنيا بـل نريد بذلك إعلاء كلمة ا وتحصيل درجات الشهادة»[396]. فاقتناع الجزائـريين بقداسـة

---

[392]- جون ب. وولف، المرجع السابق، ص.58.
[393] - يعني أندري دوريا.
[394] - مخطوط (المحكمة) المرجع السابق.
[395] - عبد الجليل التميمي، "**رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541**"، م.ت.م. العدد3، جانفي 1975، ص. 46.
[396] - غزوات، المرجع السابق، ص. 116.

العمل الجهادي، واستعدادهم للتضحية بالنفس والنفيس من أجل الفوز بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة جعلهم لا يهابون العدو، رغم قوته، وهذا ما جعل الفئة القليلة تغلـب الفئة الكثيرة.

- كما انتشرت بين العامة عدة روايات، تنسب هزيمة القوات المعتدية إلى كرامـة بعض الأولياء الصالحين، وهنا نكتفي بالإشارة إلى روايتين فقط، الأولى ترجـع هزيمـة النصارى إلى كرامة ولي دادا[397]، حيث زعموا أنه لما هلع السكان من تقدم الغزاة وفكر أغلبهم في الفرار أو الإستسلام، قام هذا الشيخ يشجع الناس على الثبات والصمود ثم نزل إلى المرسى و دخل في البحر وضرب بعصاه فحـدثت العاصـفة وحطمـت الأسـطول الأوربي[398]. أما الرواية الثانية، فتنسب ذلك النصر للشيخ سيدي أبو التقـى[399]، الـذي كان يتعبد في خلوته، ولما هاجم الغزاة الجزائر، أمر هذا الشيخ البحر بالهيجان، فحدث ما حدث. وقد ذهب هايدو إلى أبعد من ذلك عندما نقل رواية من يذكر أن أبو التقى كان قـد توفي قبل هذه الحادثة بسنوات، فعندما قدم النصارى سنة 1541 نهض هذا الولي من قبره فأقام الصلاة وتضرع إلى ا سبحانه فاستجيب لدعائه[400]. لكن في نظرنا إذا كانت مثل هذه الروايات تستطيع إقناع إنسان القرن السادس عشر ميلادي فإنهـا بالنـسبة لإنـسان القرون التالية – الذي صار يعتمد على التجربة والملاحظة – لم تعد قادرة على ذلك.

ومهما قيل عن أسباب الهزيمة التي حلت بالأسطول الأوربي، فإنه لابد من التنويه بالدور الفعال الذي لعبه حسن آغا في تنظيم صفوف المقاومة، والشجاعة النـادرة التـي أظهرها في مواجهة الغزاة، رفقة رجاله البواسل أمثال الحاج بشير، علي صاردو، الحاج مامي، القايد رمضان، وغيرهم. فقد استطاعت هذه القيادة العسكرية – بفـضل معرفتهـا الجيدة بالأرض وكفاءتها العالية- إدارة المعركة بشكل رائع، معتمدة على أسلوب الكـر و الفر، فتمكنت من إفشال خطط الخصم و كبدته خسائر فادحة. اضطرت شـارلكان إلـى

---

(397) - ولي دادا :متصوف من أصل تركي، توفي سنة 1554 دفن أول الأمر بمسجد يعرف سابقا بمسجد ولـي دادا، كان بنهج الديوان، ثم نقلت رفاته إلى جوار سيدي عبد الرحمان الثعالبي أثنـاء فتـرة الاسـتعمار الفرنـسي. أنظـر: بلحميسي، المرجع السابق، ص 110 .

(398) - بلحميسي، المرجع نفسه، ص. 110.

(399) - كان مسجد أبي التقى يوجد في الزاوية بين نهج قسنطينة و الساحة قرب باب عزون.

(400) – المرجع نفسه، ص. 111.

الإنسحاب مع ما تبقى من جنده، دون أن يجرؤ على إعادة الكرة على مدينة الجزائر، رغم إلحاح بعض قادته.

ومن جهة أخرى ،فإن القيادة الجزائرية الرشيدة قد وجدت شعبا استجاب لنـدائها، و التف حولها، مبديا استماتة كبيرة في الدفاع عن الجزائر، كيف لا وقد أصـبحت تمثـل رمزا لسيادته ومعقلا إسلاميا حصينا في مواجهة المشاريع الصليبية الأوربية، خاصة وأن الجزائر قد صارت آخر معقل إسلامي في شمال إفريقيا، وبالتالي فسقوطها كـان يعنـي تهديد مصير كل المسلمين بهذه المنطقة، ولعل هذا ما يفـسر تزايـد عـدد المجاهـدين باستمرار بفضل تدفق مقاتليهم من كل مكان، فبالإضافة إلى سكان المدينة مـن عـرب، أتراك و أندلسيين، هب سكان القبائل المجاورة لنصرة إخـوانهم المـسلمين فـي مدينـة الجزائر، غير مبالين بحجم الأخطار التي كانت تهددهم، ليصنع الجميع إحـدى الملاحـم البطولية التي عرفها القرن السادس عشر.

وربما هذا التلاحم في صفوف المقاومة الجزائرية هو الذي كانت تفتقر إليه قـوات التحالف الأوربي، التي كانت تتشكل من جنسيات مختلفة، كثيرا ما كانـت تعـاني مـن الصدامات فيما بينها، وخير مثال على ذلك فرسان مالطة، الذين كان ضمنهم عدد كبيـر من الفرنسيين، فرغم الهدنة التي تم توقيعها بين إسبانيا وفرنسا منذ 1538، إلا أن الفرسان الفرنسيين، الإسبان و الإيطاليين، الذين وجدوا أنفسهم في الجزائر جنبا إلى جنب، كـانوا يعلمون بأنهم في الربيع المقبل سيكونون وجها لوجه[(401)]، فالعبرة إذا ليـست فـي عـدد الجيوش وعدتها، إذا كانت تفتقر لما هو أهم من ذلك، وهي الروح القتاليـة، و الاقتنـاع بالمبدأ الذي تقاتل من أجله.

(401) – RAVENET, op. cit ., P. 320.

استنتاج جزئي:

بعد عرض و تحليل لحيثيات التحالف الأوربي ضد الجزائر عـام 1541 يمكـن استخلاص النتائج التالية :

- أن ما حدث سنة 1541 ضد الجزائر لم يكن مجرد حملة اسـبانية مثـل بقيـة الحملات السابقة، بل كان تحالفا أوربيا، صليبيا، و إنما اسبانيا تولت الدعوة إليه فقط.

- أن التحالف الأوربي ضد الجزائر عام 1541 كانت تحركه دوافـع اقتـصادية و دينية و استراتيجية لها علاقة متينة بتطور الأوضاع الدولية في منطقة البحر الأبـيض المتوسط و خاصة على صعيد المواجهة بين الجبهة المسيحية الأوربية بزعامـة اسـبانيا و الجبهة الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية.

- أن ادعاءات المؤرخين الغربيين بأن حسن آغا كان مستعدا لتسليم مدينة الجزائر للأعداء هي ادعاءات لا أساس لها من الصحة و لا ترتكز على أي دليل ، بل أن الشجاعة النادرة و الاستبسال في الدفاع عن المدينة التي أظهرها حسن آغا تفنـد تلـك المـزاعم و تحطمها تحطيما.

- أن قوات التحالف، و نظرا لضخامة عدّتها و عتادها، فقد أصيبت بداء الغرور، الشيء الذي جعلها تحتقر المقاومة الجزائرية و تعتقد بأنها لا تجرؤ على التـصدي لهـذه القوة الرهيبة، و من هنا كثرت أخطاء قيادة التحالف نتيجة لسوء تقديرها، و هذا ما مكـن المقاومة الجزائرية من استثمار هذه الأخطاء و إلحاق هزيمة ساحقة و غير متوقعة بقوات التحالف جعلتها تفاجىء إلى درجة الصدمة لهول الخسائر المادية و البشرية التي لحقـت بها.

الفصل الثالث

التأثيرات الإقليمية و الدولية لإنتصار الجزائر على التحالف الأوربي عام 1541.

المبحث الأول: توحيد جميع أراضي المغرب الأوسط تحت راية الدولة الجزائرية وتقويض الوجود الإسباني بها.

1- دخول منطقة القبائل بصفة نهائية تحت سلطة الدولة الجزائرية.

2- إشتداد الصراع الجزائري-الإسباني بالإقليم الوهراني.

أ- حسن آغا في تلمسان 1542 .

ب- حملة دالكوديت على تلمسان 1543.

ج- فشل حملة دالكوديت على مستغانم1543.

3- ضم تقرت و ورقلة للدولة الجزائرية 1552.

4- ضم تلمسان للدولة الجزائرية 1554.

5- تحرير بجاية من الإحتلال الإسباني وضمها للدولة الجزائرية 1555.

6- حملة دالكوديت على مستغانم ومصرعه في مزغران 1558.

المبحث الثاني : دور الجزائر في تحطيم المشروع الاستعماري الإسباني في العدوة المغاربية.

1- تحرير طرابلس وضمها للخلافة العثمانية 1551.

2- دور الجزائر في تحرير تونس وضمها للخلافة العثمانية 1574.

المبحث الثالث: بروز الجزائر كقوة مؤثرة في أحداث البحر الأبيض المتوسط وأثر ذلك في إضعاف القوة الإسبانية.

1- خير الدين يقود الأسطول العثماني – الجزائري لنجدة الدولة الفرنسية(1543-1544).

2- دور البحرية الجزائرية في حرب مالطة 1565.

3- مساهمة الجزائر في ثورة الموريسكيين1568.

4- دور البحرية الجزائرية في معركة ليبانت 1571.

- استنتاج جزئي:

لقد ترتبت عن انكسار التحالف الأوربي أمام الجزائر آثار هامة، استمر صداها طيلة ثلاثة قرون كاملة، فقد كانت سنة 1541 منعرجا حاسما في تاريخ الدولة الجزائرية ، فانتصارها على أكبر قوة عسكرية عرفها البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، جعلها تتبوأ مكانة دولية هامة، بل صارت قوة يحسب لها ألف حساب.

والهدف من هذا الفصل هو إبراز تأثيرات هذا الانتصار على مستقبل الدولة الجزائرية، و دور هذه الأخيرة في تحطيم المشروع الاستعماري الإسباني بالعدوة المغاربية. ثم إبراز المكانة الدولية التي صارت تتمتع بها الجزائر في منطقة البحر الأبيض المتوسط، و مساهمتها الفعالة في مختلف المواجهات الإسلامية – المسيحية بالمنطقة.

المبحث الأول: توحيد جميع أراضي المغرب الأوسط تحت راية الدولة الجزائرية وتقويض الوجود الإسباني بها.

1- دخول منطقة القبائل بصفة نهائية تحت سلطة الدولة الجزائرية:

كان من الطبيعي أن يؤثر الإنتصار الساحق الذي حققه الجزائريون ضد قوات التحالف الأوربي على الوضع الداخلي للدولة الجزائرية، فقد زاد هذا النصر في تعزيز مكانة النظام الجزائري لدى الشعب، وهذا ما شجع حكام الجزائر على توسيع مجال سلطتهم ليشمل المناطق التي مازالت غير خاضعة للحكم المركزي، وخاصة المناطق التي ظل زعماؤها مترددين في ولائهم بين الدولة الجزائرية والحكام الإسبان في وهران، الذين حاولوا عدة مرات عزل المنطقة الغربية من البلاد الجزائرية للحيلولة دون نجاح مساعي الدولة الجزائرية في توحيد أقاليم البلاد تحت سلطة واحدة.

فبعد ردها للعدوان الأوربي، وجهت الدولة الجزائرية اهتمامها نحو توحيد الجبهة الداخلية، وقد وجدت بأن ذلك يتطلب تحرير المواقع الساحلية التي كانت تحت الاحتلال الإسباني.

كان حسن آغا قد تلقى من الباب العالي فرمانا بترقيته إلى رتبة باشا كمكافأة له على دوره الفعال في الدفاع عن الجزائر وحمايتها، وهذا ما أكسبه قوة معنوية إضافية،

سمحت له بالمضي في توسيع مجال سلطته، وقد بدأ عمله هذا مع إمارة كوكو، التي كانت تحت حكم أحمد بن القاضي الذي أعلن ولاءه للإسبان[402]، ومن أجل تأديبه، خرج حسن آغا في أواخر شهر أفريل سنة 1542 على رأس قوة عسكرية مكونة من ستة آلاف رجل مسلحين بالبنادق، و إثنى عشر قطعة مدفعية أغلبها ذات عيار صغير، و اتجه نحـو الإمارة، وأمام هذه الوضعية أدرك أحمد ابن القاضي أن لا طاقة له بمواجهة هذه القـوة الزاحفة، لقلة رجاله، لذلك لجأ إلى طلب العفو، والقبول بالخضوع لسلطة حسن آغا، كما قدم له مبالغ مالية هامة وعددا من الأبقار والجمـال والماشـية وتعهـد بـدفع ضـريبة سنوية[403]، وكضمان بتطبيق تلك التعهدات اضطر أحمد بن القاضي إلـى تـسليم ابنـه كرهينة[404]، وكان عمره خمس عشرة سنة، وبذلك نال عفو حسن آغا الذي عـاد إلـى الجزائر العاصمة[405] دون قتال.

ومن بلاد القبائل اتجه حسن آغا نحو الحضنة ثم بسكرة وما جاورهـا مـن بـلاد الزيبان في محاولة منه لجمع الشمل، وقد أسفرت رحلته هذه عن دخول كل هذه المناطق تحت طاعته[406] دون عناء.

بعد أن دعم سلطته بشرق العاصمة، توجه حسن آغا نحو الجهة الغربية التي كانت إسبانيا تعمل على احتوائها، حيث كانت تحتل وهران والمرسى الكبير، لذلك عزم علـى تحرير المرسى الكبير نظرا لأهمية هذا الموقع البحري بالنسبة لإسبانيا، التي جعلت منـه إحدى نقاط الارتكاز الإسبانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

فقد أرسل حسن آغا في جويلية 1542 قوة عسكرية إلى وهران، بهـدف إفتكـاك المرسى الكبير من يد الإسبان بصورة فجائية بناء على معلومات حصل عليها من طرف رجل إسباني، كان قد انضم إلى صفوف الجزائريين واعتنق الإسلام[407]، ويبدو أنه فـر

---

(402)- ذكر هايدو أن أحمد ابن القاضي قد خرج على رأس قوة من ألفي جندي وعدد كبير من الفرسـان متجهـا إلـى الجزائر لمساعدة شارلكان، وفي الطريق وصلته أنباء هزيمة التحالف الأوربي، فعاد مسرعا إلى معقله، أنظر:
HAEDO,op. cit., P. 72.

(403) - Ibid.

(404) - DE GRAMMONT,op . cit., P .68.

(405) - HAEDO,op.cit., P.72.

(406) - MERCIER, op. cit., P. 55.

(407) -RUFF,op. cit ., P.74.

من المرسى الكبير، وقد وصلت القوات الجزائرية إلى المواقع المرتفعة المطلة على القلعة، وبعد اشتباكها مع حاميتها اضطرت إلى الانسحاب، وقد ذكرت المصادر الأوربية بأنه قتل العديد من الجزائريين على يد الإسبان، ومنهم من مات غرقا وهم يحاولون بلوغ سفنهم[408]. لكن رغم فشل حسن آغا في إفتكاك المرسى الكبير، إلا أن ذلك لم يثن من عزيمته من مواجهة الإسبان وطردهم من الغرب الجزائري، بداية بتقويض نفوذهم في تلمسان.

2- إشتداد الصراع الجزائري- الإسباني بالإقليم الوهراني:

أ- حسن آغا في تلمسان1542:

كان خير الدين باشا قد عين سنة 1529 أبا محمد عبد الله السرحاني حاكما على تلمسان، غير أن هذا الأخير ظل متذبذبا في ولائه بين سلطة الدولة الجزائرية والحكام الإسبان في وهران، فبعد إحتلال شارلكان لتونس سنة 1535، وانسحاب خير الدين منها، أعلن أبو محمد عبد الله ولاءه للإسبان، غير أن الإنتصار الكبير الذي أحرزه الجزائريون على قوات التحالف الأوربي سنة 1541 جعله يراجع موقفه، حيث أبدى ميولا للتعاون مع حسن آغا[409]، وفي هذه الأثناء كانت تلمسان تشهد صراعا على العرش بين أبي محمد عبد الله وولديه أبو عبد الله محمد وأبو زيان أحمد، مما أدى إلى إبعاد أبي محمد عبد الله عن العرش، لكن الصراع استمر بين الأخوين إلى أن تمكن الأخ الأكبر، أبو عبد الله محمد من الفوز بكرسي العرش[410] المتداعي.

وبهدف تضييق الخناق على الإسبان بالغرب الجزائري، توجه حسن آغا في أواخر سنة 1542 نحو تلمسان، على رأس قوة عسكرية مؤلفة من 14000 رجل[411]، ولما وصل إلى المدينة عسكر عند أسوارها. غير أن أبا عبد الله محمد لم يجرؤ على المقاومة، حيث تذكر بعض المصادر بأنه أرسل إلى حسن آغا بهدايا ثمينة، معلنا ولاءه له، كما فتح

---

(408) - RUFF,op. cit ., P.74.

(409) - MERCIER, op. cit ., P. 57.

(410) - GARROT, op.cit., P. 409.

(411) - RUFF, op.cit., 75.

له أبواب المدينة[412]، وتعهد بقطع التموين عن الإسبان في وهران.غير أن حسن آغـا، الذي ربما لم يثق في وعود أبي عبد ا ، فضل إبعاده عن العرش، وعين مكانه أخاه أبا زيان أحمد، ثم عاد إلى مدينة الجزائر، بعد أن ترك حامية مـن أربعمائـة جنـدي فـي المشور[413]، لدعم سلطة أبي زيان.

أما السلطان المخلوع أبي عبد ا ، فقد فر إلى وهران، يطلب المساعدة الإسـبانية من حاكمها الكونت دالكوديت لاستعادة عرشه، فسارع هذا الأخير لتلبية الطلـب، لأنـه أدرك بأن النفوذ الإسباني في غرب الجزائر قد تقهقر، حيث رفضت كل القبائل الخضوع للإسبان باستثناء قبيلة بني عامر[414]. وبذلك أصبح الإسبان محاصرين في الساحل. لـذا وجد الكونت دالكوديت في طلب أبي عبد ا حجة لمهاجمة تلمسان.

ب- حملة دالكوديت على تلمسان1543:

لقد ألح الكونت دالكوديت على إخضاع تلمسان لسلطته، ولأجل ذلـك سـافر إلـى إسبانيا في سبتمبر 1542، لتحضير المتطلبات المادية والبشرية للحملة، وقد استخدم فـي ذلك أبناءه و أصدقاءه، وقد وجد صعوبة كبيرة في تجهيز هذه الحملة لأن شارلكان، ومنذ الكارثة التي حلت به أمام مدينة الجزائر، لم يعد يفكر في إرسـال حملـة جديـدة إلـى إفريقيا[415].

وحسب بعض المصادر فإن الكونت دالكوديت قد أمد أبي عبد ا بقوة عـسكرية قوامها ألف جندي إسباني، وأربعمائة من العرب، اصطدم بها مع أخيه أبي زيان أحمد في شعبة اللحم قرب عين تيموشنت في جانفي 1543، لكنه انهزم رفقة القـوات الإسـبانية الحليفة[416]. وهنا قرر الكونت دالكوديت توجيه حملة ضخمة ضد تلمسان يتولى قيادتهـا بنفسه.

---

(412) - MERCIER , op. cit., P. 58.
(413) - DE GRAMMONT, op. cit., P. 69.
(414) - إلتر، المرجع السابق، ص.169.
(415) - RUFF, op. cit., P.76.
(416) - MERCIER ,op. cit., P. 58.

وبعد مساعي حثيثة لدى الحكومة الإسبانية حصل دالكوديت علـى الإذن بتجهيـز حملة عسكرية مكونة من أسطول يضم 22 سفينة، خرج بها من إسبانيا يوم 10 جـانفي 1543، ولم يصل إلى المرسى الكبير إلا يوم 15 جـانفي[417] بـسبب العاصـفة التـي اعترضته، وفي 27 جانفي خرج من هناك، متجها إلى تلمسان على رأس قوة عـسكرية تتكون من 14000 جندي[418]، يرافقه أبو عبد ا المدعي بالسلطة[419].

وتذكر بعض المصادر الأوربية بأن أبا زيان قد حاول التفـاوض مـع الإسـبان، وعرض عليهم أربعمائة ألف دوكة، مقابل تخليهم عن فكرة الزحف على المدينـة، لكـن دالكوديت رفض هذا العرض[420].

وفي الثاني من شهر فيفري 1543 وصلت القوات الإسـبانية إلـى وادي يـسّر، فوجدته في حالة فيضان نتيجة للأمطار المتساقطة. وكان قائد قبيلة بني راشد المنـصور بن بوغانم قد كمن للعدو بالقرب من ممر النهر رفقة 20 ألف مقاتل لإيقاف زحف القوات الإسبانية، فدار بين الطرفين قتال عنيف، اضطر المنصور بن بوغانم إلى التراجع، نتيجة لكثرة القتلى في صفوف جنده. وبذلك تمكن الإسبان من عبور الوادي، وواصلو سـيرهم إلى أن بلغوا حصن تيبدة فعسكروا فيه[421].

وفي الخامس من فيفري التقى الإسبان بقوات أبي زيـان المكونـة مـن 8400 جندي[422]، ودار بين الطرفين قتال عنيف دام من العاشرة صباحا حتى المساء أسفر عن انتصار قوات دالكوديت. أما أبا زيان ورجاله فقد اضطروا إلى الانسحاب إلى القلعة[423]، وفي السادس فيفري دخلت القوات الإسبانية مدينة تلمسان رفقة أبو عبد ا محمد ، وقـد

(417) - RUFF, op. cit., P. 78.
(418) - HAEDO, op. cit., P. 74.
(419) - DE GRAMMONT, op. cit., P. 69.
(420)- ربما يعود سبب هذا الرفض، إلى إصرار دالكوديت على نهب المدينة، لأن المتطوعين الذين قبلوا بالمشاركة في الحملة كانوا يأملون في الحصول على مستحقاتهم من الغنائم التي يحصلون عليها من المدينـة التـي كـانوا يعلمـون بثرائها.أنظر: RUFF, op. cit.,P. 77
(421) - DE GRAMMONT, op. cit ., P. 69.
(422) - إلتر، المرجع السابق، ص.169.
(423) - بينما تذكر بعض المصادر بأن الانسحاب كان إلى منطقة أنقاد (Angad) وهو سهل واسع يقع وراء الجبال المحيطة بتلمسان من الجنوب و الغرب.

تعرضت المدينة لمختلف عمليات السلب، النهب، انتهاك الحرمـات، و الاعتـداء علـى المقدسات[424].

أعاد دالكوديت تنصيب أبي عبد ا على عرش تلمسان ، وفي 26 فيفري حـصل من هذا الأخير على يمين الولاء للإمبراطور. وفي الأول من مارس تحـرك دالكوديـت عائدا إلى وهران مع كل قواته رافضا ترك حاميـة إسـبانية مـن 1200 جنـدي فـي تلمسان[425]. وفي طريق العودة تعرضت القوات الإسبانية لهجومات الجزائريين من كـل جانب، وألحقت بهم خسائر كبيرة حيث لم يتمكنوا من الوصول إلى وهران إلا بعد متاعب جمة ومطاردة حتى الواد المالح[426] كبدتهم خسائر فادحة.

ورغم الخسائر البشرية التي لحقت بقواته في تلمسان، وفي طريـق عودتـه إلـى وهران إلا أن دالكوديت ظل متمسكا برغبته في توسيع نفوذه، وكانت وجهته هذه المـرة مدينة مستغانم، التي سعى إلى إحتلالها قبل وصول النجدة من الجزائر، وقـد أراد مـن وراء ذلك تأمين الوجود الإسباني في منطقة نفوذه من التهديدات الجزائرية، خاصـة وأن مدينة مستغانم كانت تمثل الموقع الأمامي للدولة الجزائرية من ناحية الغرب، كما كانـت القاعدة البحرية الأمامية التي تنطلق منها السفن الجزائرية في شن حملاتها الرامية إلـى تحرير المواقع التي كان يحتلها الإسبان في غرب البلاد الجزائرية، لذلك أراد دالكوديـت أن يقطع الطريق البحري للسفن الجزائرية نحو مدينة وهران[427]، وذلك بإحتلاله لمدينـة مستغانم.

جـ - فشل حملة دالكوديت على مستغانم 1543:

بعد أيام قليلة من عودته من تلمسان شرع دالكوديت في التحضير لحملة عـسكرية على مستغانم، فأعد جيشا من سبعة آلاف رجل بالإضافة إلى عدد من الخيالة و مؤونـة

---

(424) - يحي بوعزيز، "**المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية (1236-1554)**"، « الأصـالة »، أالعدد 26، جويلية – أوت 1975 ، ص.26 .

(425)- لأنه تلقى معلومات بأن أبا زيان قد جمع قوة معتبرة ويريد أن يقطع عليه خط الرجعة ، لذلك أبقى دالكوديت على قواته مجتمعة.

(426) - DE GRAMMONT, op . cit., P. 70.

(427) - MOULAY BELHAMISSI , **Histoire de Mostaganem** , centre national d' études historiques, Alger , 1976 , P.73.

تكفي لأربعة أيام ، وخرج به يوم 21 مارس 1543 متوجها إلى مستغانم، وفـي اليـوم الموالي وصل إلى مدينة أرزيو القديمة[428].

وقد تمكن الإسبان من إحتلال مدينة مزغران ومكثوا بها ثلاثة أيام،وقبل مواصـلة سيرهم إلى مستغانم علموا بأن 1500 جندي جزائري مزودين بثلاثين مدفعا يقيمون فـي قلعتها[429].عندئذ أدرك دالكوديت بأنه من الصعب مهاجمة المدينة بتلك القوة التي يملكها، فاضطر إلى الانسحاب والعودة إلى وهران أثنـاء الليـل[430]، لكـي يتفـادى هجمـات الجزائريين.

غير أن عملية انسحاب القوات الإسبانية لم تكن لتمر بسلام، فما كادت هذه القوات تتحرك بإتجاه وهران حتى تعرضت لهجمات القبائل، الذين أخـذوا يتعقبـون دالكوديـت وجنوده من فوق المرتفعات، ولم يستطع هؤلاء الوصول إلى وهران إلا في أول أفريـل، بعد أن تكبدوا خسائر فادحة، لدرجة أن الطريق الممتد بين مستغانم ووهران صار مغطى بجثث القتلى الإسبان[431]، وبذلك منيت حملة دالكوديت على مستغانم بهزيمة فادحة.

ورغم هذه الهزيمة، إلا أن دالكوديت ظل متمسكا بحلمه في إحتلال مستغانم، ففـي شهر أوت1547، وجه حملة جديدة لإحتلال المدينة حيث حاصرها ولم يكن بهـا سـوى أربعين جنديا، غير أنه فشل للمرة الثانية بسبب النجدة الهامة التي جاءت مـن تلمـسان والتي قدرها البعض بعشرة آلاف رجل، مما اضطر دالكوديت إلى الإنسحاب[432].

ومثلما حدث سنة 1543 فقد تعقـب الجزائريـون القـوات المنـسحبة وكبـدوها خسائر.أما في تلمسان فقد بقي الصراع على أشده بين الإسبان والسلطة الجزائرية. فلـم يطل حكم أبو عبد ا الذي نصبه دالكوديت على عرش تلمسان سنة 1543، إذ سـرعان ما ثار الأهالي ضده، نظرا لخيانته، وهذا ما مكن أخاه أبا زيان المساند من طرف السلطة

---

(428)- Ibid .

(429) - كان حسن آغا قد أرسل بأسطول بحري يتكون من ست سفن لنجدة مستغانم، وقد تسببت طلقات مدفعيته في قتل بعض الجنود الإسبان، أنظر: RUFF , op. cit ., P. 104 .

(430) - BELHAMISSI, histoire de Mostaganem , op.cit., P. 74 .

(431) - Ibid , P. 75.

(432) - Ibid , PP. 75-76.

الجزائرية من إستعادة العرش، حيث كان يحظى برضى شعبي، فبعد مواجهات عنيفة بين الأخوين خارج مدينة تلمسان، إنتهت بإنتصار أبا زيان، حاول أبو عبد ا دخول المدينة لكن الأهالي أوصدوا أبوابها في وجهه ثم ظفروا به وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى تلمسان[433]، فعاد أبا زيان أحمد إلى عرشه، ولكن سرعان ما أظهر ولاءه للإسبان، لذلك عزله سكان المدينة وبايعوا أخاه الحسن الزياني مكانه، فهرب أبو زيان إلى وهران يستنجد بالإسبان، فلم يتردد دالكوديت في تزويده بقوة إسبانية مكنته من إسترجاع عرشه المتداعي سنة 1547[434] تحت تبعية الإسبان.

3- ضم تقرت وورقلة للدولة الجزائرية 1552:

كانت سياسة صالح رايس[435] تقوم على ضرورة تحقيق الوحدة التامة بين كل أجزاء الدولة الجزائرية، وقد وصل إلى الجزائر في الوقت الذي كان فيه أمراء تقرت وورقلة بالجنوب الجزائري يرفضون دفع الضرائب المفروضة عليهم منذ أكثر من عشرين سنة، والإعتراف بسلطة الدولة الجزائرية، وكانوا يعتقدون بأن صالح رايس لن يغامر بجيشه في صحراء يجهلها.

إلا أن صالح رايس قد عزم على إدخال الجنوب الجزائري ضمن الوحدة الجزائرية طوعا أو كرها، ففي شهر أكتوبر1552، جهز جيشا من أربعة آلاف جندي، كما انضم إليه في مجانة عبد العزيز على رأس ثمانية آلاف من رجال منطقة القبائل[436]. وتوجه الجميع نحو تقرت، وبعد مسيرة شاقة دامت عشرين يوما، وصلت قوات صالح رايس إلى تقرت، وهاجمتها، وكان فرق التسليح كافيا لحسم نتيجة المعركة، إذ سرعان ما انهزمت قبائل تقرت لأن رماحهم وسيوفهم لم تستطع الصمود في وجه جنود مسلحين بالقربينات والمدافع الصغيرة. وهكذا أرغمهم صالح رايس على الإستسلام[437]، وتم بذلك ضم إمارة بني جلاب للسلطة المركزية. ومن تقرت توجه صالح رايس إلى ورقلة، وقبل أن يصلها

---

(433) - GARROT, op. cit., P. 409.

(434) - يحي بوعزيز، المراحل والأدوار ... ، المرجع السابق، ص. ص.26-27.

(435) -أصله من الإسكندرية، يعد من أبرز رياس الأسطول العثماني، عرف بشجاعته الفذة، حكم الجزائر من 1552-1556.

(436) - GARROT, op. cit., P. 421.

(437) -DE GRAMMONT, op.cit ., P. 78.

فر أميرها وأتباعه إلى مدينة القلعة، فأرسل إليهم صالح رايس يعرض عليهم الأمان مقابل الإعتراف بسلطة الدولة الجزائرية، فسارعوا إلـى تلبيـة نـداء الوحـدة الوطنيـة[438]، وأصبحوا منذ ذلك الحين جزء لا يتجزأ من الدولة الجزائرية، وبعـد أن نـصّب حاميـة صغيرة بكل من المدينتين، عاد صالح رايس إلى الجزائـر العاصـمة[439]وبيـده مغـانم ضخمة، منها خمسة عشر بعيرا محملة بالذهب، الأقمشة، الجلود ، بالإضافة إلى خمـسة آلاف عبد من الزنوج، لكن يبدو أن هناك مبالغة كبيرة في تقدير حجم هذه الغنائم.

4- ضم تلمسان للدولة الجزائرية 1554:

إستمرت سياسة الدولة الجزائرية في دعم زعماء تلمسان، الذين أبـدوا إسـتعدادا للتعاون معها ضد الإسبان، دون أن تعمل على إزالة الدولة الزيانية، غير أن ظهور خطر جديد تمثل في الدولة السّعدية الناشئة بالمغرب الأقصى، والتي كانت تسعى إلـى توسـيع نفوذها نحو تلمسان، قد دفع قادة الجزائر إلى ضمها تحت السيادة الجزائرية و وضع حـد نهائي لدولة بني زيان المتداعية.

فقد أراد الشريف محمد المهدي، مؤسس الدولة السعدية، إحتلال تلمسان، لذلك جهز في سنة 1550 جيشا من 12000 فارس و 10,000 من المشاة[440]، بقيادة ولديه محمـد الحران،ومولاي عبد القادر[441].

وبعد حصار دام تسعة أشهر تمكن الجيش السعدي من دخول مدينة تلمسان في 10 جوان 1551[442]. ثم واصل زحفه نحو مستغانم فاحتلها كذلك، وأخذ يتقدم نحو الجزائـر العاصمة، وهذا ما يؤكد النوايا العدوانية للسعديين ضد الدولة الجزائرية.

---

[438] -أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص.339.

[439] - GALIBERT, op .cit., P. 193.

[440] - HAEDO, op. cit., P. 84.

[441] - لقد تباينت الآراء بشأن حقيقة هذه الحملة، حيث ذكر هايدو أن اهل تلمسان هم الذين طلبـوا نجـدة الـشريف السعدي لتخليصهم من ملكهم الخاضع للإسبان (P. 83)، بينما يذكر دي غرامون بأنه تم عقد إتفاق بين مـولاي عبـد القادر وحسن باشا بن خير الدين يقضي بتوجه الجيش المغربي إلى عين تيموشنت حيث يلتحم مع الجيش الجزائـري، ليعملا معا على طرد الإسبان من وهران (P.76)، وإذا رجحنا الرأي الثاني، يمكن القول بأن طموح ملـك فـاس فـي إحتلال تلمسان هو الذي جعله يخرق الاتفاق، ويوجه جيشه نحو هذه المدينة بدلا من مدينة وهران.

[442] - MERCIER , op. cit ., P. 71.

وفي هذه الأثناء كان حسن باشا بن خير الدين قد جهز جيشا يتكون مـن خمـسة آلاف رجل من رماة البنادق، وألف رجل من الصبايحية، وثمانية آلاف رجل من القبائـل كانوا تحت قيادة عبد العزيز، سلطان بني عباس، وكان هـذا الجـيش مـزودا بعـشرة مدافع[443] تولى قيادنه حسن قورصو، وكانت وجهته وهران لإستخلاصها من يد الإسبان لكن أثناء الطريق علم الجيش أن الملك السعدي قد إحتل تلمسان و مستغانم، وهـو يتقـدم نحو مدينة الجزائر، وهنا حول الجيش وجهته، فبدلا من الذهاب إلى وهـران لمحاربـة الإسبان، إضطر إلى التوجه إلى مستغانم لمحاربة الجيش السعدي، وقد إلتقى الجمعان في حوض الشلف، ودارت بينهما مواجهات عنيفة انتهت بانهزام الجيش السعدي الذي أرغـم على الإنسحاب إلى داخل أراضي المغرب الأقصى.

وخوفا من زحف الجيش الجزائري على الأراضي المغربية[444]، أرسل الـشريف المهدي مددا لجيشه قوامه عشرون ألف رجل، تحت قيادة إبنه عبد القادر، إلتقى بـالجيش الجزائري قرب قبة سيدي موسى، حيث دارت بينهما معركة عنيفة أصيب فيها عبد القادر برصاصة أردته قتيلا، اضطر على إثرها الجيش السعدي إلى الإنسحاب، حيـث إسـتمر الجيش الجزائري في ملاحقته إلى ما وراء الملوية، وبعد ذلك عاد إلى تلمـسان ونـصب على عرشها الحسن بن عبد ا الزياني تحت الإشراف الفعلي للقائد الجزائري المـسمى، الصفا، الذي إحتفظ معه بألف و خمسمائة جندي مع عشرة مدافع[445]، أما حسن قورصو وعلي صاردو فقد عادا إلى مدينة الجزائر.

بعد استتباب الأمن، تفرغ حسن باشا بن خيـر الـدين لتعميـر مدينـة الجزائـر وتحصينها. وكان من أهم إنجازاته بنـاء بـرج مـولاي الحـسن، المعـروف بحـصن الإمبراطور، على كدية الصابون، كما أقام مستشفى الإنكشارية والعجزة، وشيد حمامـات للاستعمال العام ومجانا، وفي هذه الأثناء تلقى الأمر بالتوجه إلى إستانبول، فغادر الجزائر

---

(443) - HAEDO, op.cit., P. 85.

(444) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. ص.328- 329.

(445) - HAEDO, op .cit., P. 86.

في سنة1551، حيث أخبر بأنه عزل من منصبه كبايلرباي الجزائر[446]. وعينت السلطة العثمانية صالح رايس مكانه في أفريل1552.

أدرك صالح رايس خطورة التهديدات السعدية للمناطق الغربية للبلاد، لذلك توجـه إلى تلمسان سنة 1553، فاطلع عن كثب على تحصينات المدينة – التي كانت ضـعيفة- كما إكتشف تلك العلاقـات الـسرية المريبـة بـين الإسـبان ومـولاي حـسن حـاكم تلمسان[447]،ولإبعاد الخطر الإسباني والسعدي عن تلمسان عزم صالح رايس على إلحاقها نهائيا بالدولة الجزائرية، و وضع حد نهائي لدولة بني زيان. و بالإتفاق مع علماء المدينة وأعيانها تم خلع مولاي حسن، و ضم تلمسان للدولة الجزائرية سـنة 1554[448].وهكـذا كانت نهاية الدولة الزيانية التي عمرت ثلاثة قرون وثمانية عشر عـام، و غـادر آخـر ملوكها إلى إسبانيا حيث اعتنق المسيحية و صار يعرف بالدون كارلوس.

بانضمام تلمسان للدولة الجزائرية دعمت هذه الأخيرة موقعها بغرب البلاد، ومنـذ ذلك الحين صار وضع الإسبان هناك حرجا، بعد أن أصبحت تلمسان قاعدة هامة للجزائر في عملياتها العسكرية ضد المواقع الإسبانية وخاصة في وهران.

5- تحرير بجاية من الإحتلال الإسباني وضمها للدولة الجزائرية 1555:

واصل صالح رايس سياسته القائمة على توحيد البلاد الجزائرية و تطهيرهـا مـن الوجود الإسباني، فبعد تأمينه للمناطق الغربية للبلاد، حول أنظاره إلى الجهـة الـشرقية، فكانت وجهته هذه المرة مدينة بجاية، التي وقعت في قبضة الإحتلال الإسباني منذ سـنة 1510.لذلك قرر صالح رايس طرد الإسبان منها، مستغلا ضعف حاميتها، حيث ذكـرت بعض المصادر الأوربية أنه لم يكن بالمدينة سوى خمسمائة رجل ضعيفي التسلح[449]، أما

---

[446] - يرجع هايدو سبب عزله إلى الدور الذي قام به صهر السلطان واحد اكبر الباشوات واسمه، (روستان) الـذي أراد الإستيلاء على الحمام الذي بناه خير الدين قبل وفاته، فتوجه حسن باشا ليمنعه من ذلك، ممـا أغـضب روسـتان فسعى لدى الديوان بعزله. أنظر: (HAEDO, op . cit ., P.88). أما دي غرامون فيعزي ذلك إلى الدور الفعال الذي قام به السفير الفرنسي أرامون(D'Aramon) لدى الباب العالي بسبب رفض حسن باشا للتعاون مع فرنـسا، فتوجـه أرامون إلى إستانبول وتمكن من إقناع الديوان بأن حسن باشا يخطط للاستقلال بالجزائر، انظر:
DE GRAMMONT ,op .cit., P.77.

[447] - عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، الجزء الثالث، د.م.ج.، الجزائر، 1995، ص .88.

[448] - أحمد توفيق المدني،المرجع السابق، ص.243.

[449]- GARROT, op . cit., P. 424 .

التحصينات التي كان شارلكان قد أمر ببنائها خلال توقفه بها بعد هزيمته الـساحقة أمـام مدينة الجزائر سنة 1541، والتي كلف بترميمها المهندس الإيطالي ليبرانـو(Librano)، فقد بقيت في حالة سيئة، بل أن وضعية تلك التحصينات قد أحدثت أزمة بين الدون لويس دي بيرالتا(Don Luis de Peralta) و المهندس ليبرانو، حيث لجأ كل منهما إلى إرسال الشكاوى إلى الحكومة الإسبانية ضد خصمه.

ففي رسالة بعث بها ليبرانو إلى الإمبراطور مؤرخة فـي 09 جـانفي 1543[450] يشتكي فيها من بيرالتا، ذكر بأن بناء هذه التحصينات يتطلب أموالا معتبرة ، كما طلـب من الإمبراطور أن يأمر بيرالتا بأن يتركه يؤدي مهمته بكل حرية[451].

وهنا يجدر التنويه بالدور الذي قام به الجزائريون من سكان المنطقة في محاصرة الإسبان بمدينة بجاية والتضييق عليهم، ولا شك بأن ذلك كان من العوامل التي زادت في تحرج وضع الحامية الإسبانية بهذه المدينة.

ففي جوان 1555 سار صالح رايس نحو بجاية على رأس ثلاثة آلاف رجل مـن الفرسان والمشاة سالكا طريق البر، بينما أعطى الأمر بتوجيه قوة بحرية تتألف مـن 22 سفينة[452]، تحمل على متنها إثنى عشر مدفعا من العيار الكبير، وكميـات معتبـرة مـن الأسلحة والعتاد، وخلال مروره بمنطقة القبائل تلقى صالح رايس دعما معتبرا مـن ابـن القاضي[453] زاد في تعزيز قواته.

وقد تمكن الأسطول الجزائري من تفريغ حمولته بسهولة عندما توغل عبـر وادي الصومام لإرتفاع منسوب مياهه نتيجة للأمطار المتساقطة، بعد ذلك تـم تنـصيب قطـع المدفعية الثقيلة بالمرتفعات المشرفة على المواقع الإسبانية.

وفي 16 سبتمبر 1555 بدأ الجزائريون في قصف القلعة بشدة، باستعمال بطاريتين إحداهما مكونة من ستة مدافع و الأخرى من ثمانية، وبعد قصف دام يومين تـم تـدمير

---

(450)- أنظر النص الكامل للرسالة في:
DE LA PRIMAUDAIE, Documents..., **Lettre de l' Ingénieur Librano à sa Majesté , Bougie, 19 janvier 1543**, R. A., Tome 21, 1877, PP .267-268.
(451) - Ibid.
(452) - أما هايدو فقد ذكر بأن صالح رايس قد أرسل إلى بجاية سفينتين فقط. (HAEDO,P.99.) .
(453) - MERCIER , op . cit., P. 80.

حصن القصر الإمبراطوري[454]، مما اضطر رجال حاميته وعددهم مائة وخمسون إلـى إخلائه، حيث توجهوا إلى القصبة عبر الممر الأرضي الذي يربط القصر بالحـصن[455]. بعد ذلك وجه الجزائريون مدفعيتهم صوب قصر البحر (برج عبد القادر) الـذي يحمـي أسفل المدينة، وكان به ستون جنديا استبسلوا في المقاومة لمدة خمسة أيام، غير أن شـدة القصف أدت على تحطيم الأسوار، فسقطت القلعة في يد الجزائريين، وتـم أسـر أفـراد الحامية الذين نجوا من الموت وكان عددهم 43 جنديا[456]، وبسقوط قصر البحر لم تبـق أمام الجزائريين سوى عقبة القصر الكبير، حيث كان يعتصم قائد الحامية بيرالتا مع بقيـة أفراد حاميته، عندما تأكد صالح رايس من نجاح حملته أرسل إلى قائد الحامية رسالة جاء فيها:« لقد رأيت كيف أن رجالي قد إستطاعوا إحتلال معقلين من معاقل دفاعكم، ثم أنـك ولا ريب تعلم أنني عقدت العزم بصفة حاسمة على أخذ هذه القلعة التي تـدافعون عنهـا أيضا،وبما أنه قد إقتربت ساعة سقوط المدينة، وأنك لن تستطيع أصلا النجاة، والإفـلات من قبضة يدي، فأنا أطلب إليك أن تستسلم، وأن تسلم المدينة لي، وأنا أتعهد لك مقابل ذلك أنني لن أمسك أنت ولا أي رجل من الرجال الملتفين حولك بسوء، أما إذا اسـتمر بـك العناد، فلن يكون مآلكم إلا الموت جميعا» [457]. لكن قائد الحامية رفض الإستـسلام فـي البداية، حيث واصل المقاومة لخمسة أيام أخرى.ولما أدرك بأن صالح رايس مـصّرعلى فتح القصر، وأنه لا طائل من استمرار المقاومة اضطر إلى الإستسلام.

ورغم عناد بيرالتا ورجاله، حيث أنهم رفضوا الإنذار، واستمروا في المقاومة، إلا أن صالح رايس قد وفى لهم بوعده، حيث سمح للجرحى والمعطوبين وكان عـددهم 120 شخصا بالتوجه إلى إسبانيا[458] رفقة قائد الحامية، وهذا خلافا لما يدعيه بعض المؤرخين

---

(454) - الذي بناه شارلكان، والذي أصبح يعرف بعد تحرير بجاية ببرج موسى.

(455) - Ibid. P. 81.

(456) - MERCIER , op . cit., P. 81.

(457)- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص.347.

(458) - DE LA PRIMAUDAIE , Documents ..., **Lettre de Don Alonso Carrillo de Peralta , ex : commandant de Bougie à son Altesse la Princesse**, Alicante 16 octobre 1555, R.A., tome 21, 1877, P. 283.

الغربيين الذين يتهمون صالح رايس بخيانة العهد. وهكذا دخل هذا الأخير مدينة بجايـة فاتحا في 28 سبتمبر1555[459]، وسط تهليل وتكبير الأهالي الجزائريين.

أما حاكم بجاية دون لويس دي بيرالتا فقد عاد إلى إسبانيا. ولما بلغ مدينة أليكونت تم توقيفه، ثم حوكم أمام مجلس حربي بتهمة الخيانة، وقد حكم عليه بالإعدام عقابا له على ضعفه، وقد تم قطع رأسه بالساحة العمومية لمدينة فلادوليد (Valladolid)[460]، رغم أنه قدم التبريرات الكافية التي تنفي عنه تهمة الخيانة والجبن[461]، وبذلك جعل منه شـارلكان (كبش الفداء)، لتهدئة الغضب الإسباني من ضياع بجاية.

بعد تحريره لبجاية عاد صالح رايس إلى مدينة الجزائر، بعد أن ترك بها حاميـة تتكون من أربعمائة رجل تحت قيادة علي صاردو.كما أعطى الأوامر بإعـادة تحـصين المدينة تفاديا لأي محاولة إسبانية لإفتكاكها من جديد.

لقد كان تحرير بجاية انتصارا هاما للدولة الجزائرية، وصـدمة مؤلمـة لإسـبانيا خاصة، والأمم المسيحية عامة.

6- حملة دالكوديت على مستغانم ومصرعه في مزغران 1558:

عُين حسن بن خير الدين بايلرباي للجزائر للمرة الثانية حيث وصلها فـي جـوان 1557 على رأس قوة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة جيدة التسليح، وبهذه القوة إضـافة إلى بحرية الجزائر سيتمكن من التصدي للأخطار التي كانت تهـدد الجزائـر، وخاصـة الإسبان، الذين كانوا يهيئون لإحتلال مستغانم التي كانت تمثـل قاعـدة متقدمـة للدولـة الجزائرية في مواجهة الوجود الإسباني بغرب البلاد.

و بهدف تجهيز حملة لإحتلال مستغانم سافر دالكوديت إلى إسبانيا يطلب موافقـة حكومته ومساعدتها، وبعد مساعي حثيثة حصل على موافقة الحكومة الإسبانية التي زودته باثنى عشر ألف جندي، كما استجاب لندائه الكثير من نبلاء إسبانيا، وقـد أرسـلت هـذه القوات إلى وهران على دفعتين، إنطلقت الأولى من قرطاجنة، وكانت تـضم سـتة آلاف

---

(459)- GARROT, op. cit., P. 424.

(460) – MERCIER , op. cit., P. 81.

(461) - حول هذه التبريرات، أنظر:

DE LA PRIMAUDAIE , Documents ..., **Lettre de Don Alonso** ...,op. cit., PP. 282-283.

رجل على رأسها دالكوديت نفسه، ووصلت إلى وهران في 16 جويليـة 1558، بينمـا إنطلقت الدفعة الثانية من مدينة مالقة يوم 23 جويلية، وكانت تضم خمـسة آلاف رجـل، على رأسها الدون مارتن (Don Martin) ابن دالكوديت[462].

وفي 22 أوت 1558 انطلقت القوات الإسبانية وقوامها إثنى عشر ألف رجل تحت قيادة دالكوديت نحو مستغانم، كما انضم إليها الكثير من الأعـراب المرتزقـة، يقـودهم المنصور بن بوغانم، أما الأسلحة و المؤونة فقد تم نقلها على متن أربع سفن[463].

علم حسن باشا بتحركات دالكوديت، فسارع إلى اتخاذ الإحتياطات اللازمة، حيـث توجه في 06 أوت قاصدا مستغانم على رأس خمسة آلاف جندي، وألف فارس، وعـشرة مدافع، وأثناء الطريق انضمت إليه أعداد معتبرة من المجاهدين الجزائـريين[464]. كمـا أعطى الأوامر لسفنه بمهاجمة السفن الإسبانية المحملة بالأسلحة و المؤونة. فما كادت هذه السفن تصل إلى أرزيو، حتى تصدى لها الأسطول الجزائري واستولى عليها جميعا، أمام مرأى دالكوديت وجنوده[465]، فأصيبت القوات الإسبانية من جراء ذلك بخيبة أمل كبيرة ، وتحطمت معنوياتها، وبدأت علامات المجاعة تظهر على الوجوه.

وصل الجيش الإسباني إلى مزغران يوم 23 أوت، وقد تمكن من دخولها بسهولة، لأن سكان المدينة قد غادروها لما علموا بقدوم الإسبان، وأخذوا معهم كل ممتلكاتهم، وهنا صار الجيش الإسباني يعاني من نقص التغذية[466]، حيث لم يجد الجنود ما يقتـاتون بـه سوى أكل الحلزون[467]، فلم يبق أمام دالكوديت سوى حل واحـد وهـو الهجـوم علـى مستغانم، بغية الحصول على بعض إحتياجاته.

وفي يوم 24 أوت وصل إلى أسوار المدينة، فحاول اقتحامها، لكنه إصطدم بمقاومة عنيفة من طرف حامية المدينة التي واجهته بالقصف المدفعي، ولم تكن المساعدات القادمة

---

(462) - RUFF, op. cit., P. 149.
(463) - MERCIER , op.cit.,PP.93-94 .
(464) - BELHAMISSI , histoire de Mostaganem , op.cit .,P. 78.

(465) - DE GRAMMONT, op.cit., P. 88.
(466) - لم يأخذ دالكوديت معه من الزاد سوى ما يكفي لمدة ستة أيام، في اعتقاده بأنه سيحصل على حاجاته الغذائية من مزغران، فلما دخلها لم يجد شيئا من ذلك.
(467)- RUFF, op.cit ., P. 154.

من مدينة الجزائر ومن تلمسان قد وصلت بعد، لذلك تمكن الجيش الإسباني مـن إقتحـام أسوار المدينة،لكن الأهالي دافعوا عنها دفاعا مستميتا حيث كان القتال يدور في كل شارع وفي كل بيت[468].

وفي 25 أوت جاءت البشرى للمجاهدين الجزائريين بأن حسن باشا قد أشرف على المدينة، على رأس جيش عرمرم، وفور وصوله، دخـل هـذا الجـيش فـي المعركـة بقوة،الشيء الذي أجبر دالكوديت على الانسحاب خلال منتصف الليل[469]، وما إن علـم رجال الحامية بذلك حتى اندفعوا إلى خارج الأسوار في ملاحقة الجيش الإسباني إلى غاية مزغران، وهنا وقعت المعركة المصيرية التي قضي فيها على الجيش الإسباني وقائـده، فمع شروق الشمس وجد الجيش الإسباني نفسه محاصرا من كل الجهـات، فالتلمـسانيون على يمينه، والبحارة الجزائريين على يساره، فيما سلط قائد المدفعية من البحارة نيـران مدفعيته عليهم، إزاء هذه الوضعية الحرجة إنتشرت الفوضى في صفوف القوات الإسبانية، وهنا تحول الإنسحاب إلى هزيمة، ثم ما لبث أن إنقلب إلى فرار، وبينمـا كـان الجنـود الإسبان يتدافعون حول أبواب المدينة محاولين النجاة بأنفسهم،لم يكونـوا يعلمـون بـأنهم يدوسون جثة قائدهم دالكوديت الذي سقط قتيلا[470]، عندما كان يحاول عبثا تنظيم صفوف جيشه.

وهكذا إنتهت هذه المعركة مساء يوم الجمعة 26 أوت 1558[471] بانتصار بـاهر للجزائريين، بينما كان بالنسبة للإسبان هزيمة كارثية[472]، فقد لقي فيها دالكوديت حتفـه، وهو الذي وهب حياته للمشروع الإستعماري الإسباني في المغرب الإسلامي، منذ تعيينـه حاكما على وهران سنة 1534،أما إبنه دون مارتن فقد وقع أسيرا في قبضة الجزائريين،

---

(468) - إلتر، المرجع السابق، ص. 206.

(469) - PELLISSIER , op.cit., P. 90.

(470) - تباينت الروايات بشأن الطريقة التي قتل بها دالكوديت ، فقد ذكر البعض أن فرسه قد حرن فـألقى بـه علـى الأرض ونظرا لكبر سنه لم يستطع الوقوف فداسه جنوده ،بينما يذكر البعض الآخر بأنه أصيب برصاصتين . أنظر: RUFF , op .cit ., P. 161.

(471) - الجيلالي، المرجع السابق، ص. 91 .

(472) - ما يلاحظ هو أن المؤرخين الإسبان قد التزموا الصمت بشأن هذه الحادثة.

و لم يطلق سراحه إلا بعد سنتين مقابل فدية هامة[473]، وأما الجيش الإسباني فلم ينج منه أحد.

وصلت أنباء الكارثة الإسبانية إلى معبد القديس يوست، حيث كان شارلكان يعـاني من سكرات الموت في 09 سبتمبر 1558[474]، فكتموا عنه خبر هذه الكارثة.

لقد كانت هزيمة مزغران أقسى هزيمة تعرض لها الإسبان بغرب البلاد الجزائرية، ومنذ ذلك الحين لم يعودوا يفكرون في توسيع نفوذهم في المنطقة، واقتنعـوا بـضرورة البقاء بمدينة وهران والمحافظة عليها، ومع ذلك ظل وضعهم يزداد سـوء تحـت تـأثير الحصار المفروض عليهم.

المبحث الثاني: دور الجزائر في تحطيم المشروع الاستعماري الإسـباني فـي العدوة المغاربية.

1- تحرير طرابلس 1551 وضمها للخلافة العثمانية:

كان لموقع طرابلس خلال القرن السادس عشر أهمية إستراتيجية بفضل تحكمها في طرق القوافل التجارية الوافدة من السودان والمحملة بالتوابل والذهب[475]، كما كانت تعد منطقة إستراتيجية لتأمين حرية التجارة والتنقل في عرض البحر المتوسط، وقـد وقعـت طرابلس قي قبضة الإحتلال الإسباني سنة 1510، وبعد عشرين سنة منحهـا شـارلكان لفرسان القديس يوحنا سنة 1530، وهذا ما صار يشكل خطرا مباشرا على المواصـلات العثمانية في عرض البحر المتوسط، وإدراكا منها لهذه الخطورة عملت الدولة العثمانيـة على تشجيع حامية عثمانية بتاجوراء[476]، تمهيدا لإفتكاك طرابلس من يد الفرسان.

وكان الإنتصار الذي أحرزه الجزائريون سنة 1541 بداية لحرب طويلة وعنيفـة كان ميدانها البحر المتوسط بين القوى الإسلامية تحت إشراف الخلافة العثمانية، والقـوى المسيحية الأوربية التي تشرف عليها إسبانيا.أما الجزائر، التي صارت القاعـدة الغربيـة

---

[473] - DE GRAMMONT, op. cit., P. 90.
[474] - DE GRAMMONT, op. cit., P. 90.
[475] - عبد الجليل التميمي، "**رؤية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية – المغربية في القرن16**"، م. ت. م.، العـدد 29-30، جويلية 1983، ص.74.
[476] - تبعد عن طرابلس بمسافة 20 كم.

للخلافة العثمانية، فإذا لم تكن هي النقطة المركزية في هذا الصراع، فإن البحارة الجزائريين ،الذين تكوّنوا على يد خير الدين قد لعبوا دورا بارزا فيه[477]، ومن بينهم درغوث رايس الذي سيلعب دورا رئيسيا في بلورة أحداث الساحة المغاربية، بفضل شخصيته القوية وروحه المغامرة.

سطع نجم درغوث رايس في البحر المتوسط، حيث صارت له 24 سفينة، وشرع في الإغارة على السواحل الإسبانية، والإيطالية، متخذا من جزيرة جربة قاعدة لأسطوله، ولما اتسع نشاطه وكبر أسطوله راح يبحث عن ميناء أوسع، فوجد ضالته في المهدية فاستولى عليها في فيفري1550[478]، ومنها إنطلق يغير على السواحل الإسبانية و الإيطالية مما أحدث أزمة لإسبانيا جعلتها تحتج لدى الباب العالي بحجة أن الخلافة العثمانية قد نقضت الهدنة، لكن في الحقيقة أن البحارة المسيحيين أيضا قد نقضوا هذه الهدنة[479]، من خلال هجومهم على التجارة الإسلامية في شرق البحر المتوسط واعتراضهم للحجيج المسلمين المتجهين من شمال إفريقيا نحو البقاع المقدسة[480].

ونظرا لازدياد خطر درغوث إنطلاقا من المهدية، القريبة جدا من حلق الوادي التي كانت تابعة لإسبانيا، أمر شارلكان دوريا بإستعادة هذه المدينة، لذلك جهز هذا الأخير أسطولا من خمسين سفينة بقيادة نائب الملك بصقلية دون جوان دي فيغا (Don Juan De Vega) وبمشاركة الفرسان الذين أرسلوا بأربع سفن على متنها مائة وأربعين فارسا[481]، وقد تمكنت القوات الإسبانية من إحتلال المهدية في 10 سبتمبر1550، ونظرا لصعوبة الإحتفاظ بهذه المدينة، قرر شارلكان تهديمها، أما سكانها، البالغ عددهم 7000[482]، فقد كان مآلهم النهب والاغتصاب والاسترقاق.

---

(477) - جون ب. وولف، المرجع السابق، ص.60.

(478) - GARROT, op. cit ., P. 412.

(479) - وقعت الهدنة بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الإسبانية سنة 1545،أنظر: AUPHAN P., op. cit ., P.175.

(480) – جون ب. وولف، المرجع السابق، ص.66.

(481) - GALIBERT, op .cit., P.196.

(482) - أوزتونا، المرجع السابق، ص.310.

لذلك كان رد الخلافة العثمانية على ذلك سريعا وحاسما، فقد أرسل السلطان سليمان القانوني بأسطول بحري متكون من 192 سفينة[483]، بقيادة سنان باشا، بمساعدة درغوث رايس، وصالح رايس بيلرباي الجزائر، وفي جوان 1551 وصل الأسطول العثماني إلى مالطة فهاجمها، غير أن إستبسال الفرسان في الدفاع عن جزيرتهم حال دون سقوطها في قبضة سنان باشا ورفاقه، الذين إنسحبوا إلى جزيرة قوزو(Gozzo)[484]، فإستولوا عليها وأسروا ستة آلاف مسيحي[485]، وعادوا بهم إلى طرابلس التي كانت تابعة لفرسان مالطة، فوصلوها في 04 أوت1551، وبعد عشرة أيام من الحصار، و بوساطة من السفير الفرنسي دارامون (D'Aramon) لدى سنان باشا بالسماح للفرسان بالجلاء على متن سفينة فرنسية مقابل إستسلامهم حالا، ورغم عدم تحمس العثمانيين لعقد هذا الإتفاق[486]، إلا سنان باشا قد رضي في الأخير بالسماح للفرسان بمغادرة طرابلس بحرية، أما الجنود الذين كانوا في الجيش فقد أخذوا أرقاء.

وهكذا تم فتح طرابلس وضمها للخلافة العثمانية، فكان ذلك مكسبا هاما نحو تحقيق وحدة إسلامية متضامنة في العدوة المغاربية ومتحالفة مع الخلافة العثمانية، في مواجهة القوى المسيحية الأوربية.

إستغل درغوث الإنتصار العثماني في طرابلس، فجدد نشاطه ضد الجيوب الإسبانية في سواحل تونس، وكان من الطبيعي أن تتلقى السواحل الإيطالية أولى ضرباته، فقد شن غارات عديدة على سواحل كورسيكا و إيطاليا إنطلاقا من ليبانتو و سنجق بريفيزا[487].

كما أن تحرير طرابلس قد أحي طموح السلطان سليمان، وجعله يفكر من جديد في غزو أوربا[488]، الشيء الذي جعل بعض المؤرخين يرجع سبب التحالف الذي تم من جديد

---

(483)- GARROT, op. cit .,P.412.

(484)- تقع شمال غرب مالطة على بعد حوالي 08 كم، كانت تابعة لفرسان مالطة.

(485) - AUPHAN, op .cit., P.178.

(486) - لأن الفرسان لم يوفوا بالوعد الذي أعطوه للسلطان سليمان قبل ذلك بثلاثين سنة، حين تعهدوا له في معاهدة رسمية بعدم القيام بأي نشاط بحري ضد السفن العثمانية مقابل السماح لهم بالجلاء عن حصن رودس مع احتفاظهم بالشرف الحربي.

(487) - يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، د.م.ج.، الجزائر، 1999، ص.218.

(488) - GALIBERT, op . cit., P. 197.

بين السلطان سليمان وهنري الثاني (Henri II)[489] ملك فرنسا إلى هذا المشروع، ومهما يكن من أمر فإن هنري الثاني قد إستمر على سياسة أبيه فرانسوا الأول في التعامل مع الدولة العثمانية، حيث كان يجد فيها السند الوحيد ضد خصمه شارلكان. لقد كان هنري الثاني يعترف بالسلطان سليمان كإمبراطور أوربا الأوحد، فقد جاء في رسالة بعث بها إلى هذا الأخير: « لم يبق لدى فرنسا أي أمل في المساعدة من أي مكان آخر عدا حضرة سلطان العالم، حيث أن حضرة سلطان العالم قد قدم من قبل مساعداته لمرات عديدة، إن فرنسا ستكون ممتنة إلى الأبد لو سوعدت بمقدار من النقود والبضاعة، ستطبق شهرة الكرم التركي العالم أجمع، إن مثل هذه المساعدة تعتبر لا شيء بالنسبة لسلطان العالم»[490].ولا شك بأن مثل هذا القول يكشف بوضوح عن الوزن الذي صارت تتمتع به الدولة العثمانية في لعبة التوازنات الدولية بمنطقة البحر المتوسط.

فقد وجد هنري الثاني في التحالف مع السلطان سليمان فرصة هامة لإضعاف الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وفي جويلية 1552 تحرك الأسطول العثماني، بطلب من هنري الثاني، نحو ايطاليا فعاث في سواحل كلابريا ونهب بروسيدا (Procida) وهدد نابولي، حيث تلقى دوريا الأمر بإنقاذها فالتقى بقوات درغوث في 05أوت أين تمكن هذا الأخير من الإستيلاء على سبع سفن من أسطول دوريا كانت محملة بالجنود[491].

وفيما كان الفرنسيون يقومون بمناوشات في منطقة اللورين كان العثمانيون يهاجمون الإمبراطورية الجرمانية من الجهة المعاكسة، حيث تمكنوا من إحتلال تمشوارا (Temesvar) في 30 جويلية 1552[492]، وهكذا عادت الحرب إلى أوربا، والتي ستستمر لمدة سبع سنوات.

2- دور الجزائر في تحرير تونس 1574 وضمها للخلافة العثمانية:

---

[489] - هنري الثاني (Henri II): ابن فرانسوا الأول ولد سنة 1519، ملك فرنسا (1547-1559) واصل على نهج أبيه خاصة في سياسته مع الدولة العثمانية.

[490]- أوزتونا، المرجع السابق، ص.313.

[491] – BRAUDEL , La méditerranée... , op . cit., P. 243.

[492] -Ibid . P. 242.

بداية من سنة 1559[493]، تميز الصراع الإسلامي- المسيحي حول السيطرة على البحر الأبيض المتوسط بتسارع الأحداث، واشتداد المواجهات بـشأن المنـاطق الأكثـر إستراتيجية، فقد كانت سبع عشرة سنة كافية لحسم هذا الصراع لصالح المسلمين، بعـدما تأكد فشل المشروع الإستعماري الإسباني في المغرب الإسلامي.

ومن بين النقاط الساخنة التي إشتد بشأنها الصراع بين الطرفين في هذه الفترة، نجد تونس، التي صارت تمثل محور هذا الصراع، فهي إلى جانب نابولي، صـقلية ومالطـة تمثل كما يرى بروديل[494]،الحدود الإسبانية التي تفصل غربي البحر المتوسط، الخاضـع لسيطرة الإمبراطور الإسباني عن شرقه الواقع تحت نفوذ السلطان العثماني.

ففي شهر أكتوبر 1569 توجه علج علي باشا إلى تونس، تلبية لنداء أهلها الراغبين في التخلص من حاكمهم أبو العباس أحمد، الموالي للإسبان، الذي فر إلى حلـق الـوادي للإحتماء بالقوات الإسبانية الموجودة هناك، أما علج علي فقد دخل تونس واستقبله أهلهـا بالترحاب، وأخذ منهم البيعة للسلطان العثماني[495]، ونصب بها حامية عثمانية ثـم عـاد إلى الجزائر ليعيد تنظيم أسطوله، تلبية لطلب السلطان العثماني، مؤجلا بذلك أمر إنتـزاع حلق الوادي من الإسبان إلى فرصة أخرى.

بعد معركة ليبانت سنة 1571[496]، قررت إسبانيا وهي تعيش نـشوة الإنتـصار مهاجمة تونس مستغلة في ذلك انشغال العثمانيين بترميم أسطولهم الذي تعرض لعاصفتين بحريتين عندما كان يحاول الذهاب إلى تونس لتحرير حلق الوادي[497].

ففـي الـسابع مـن سـبتمبر 1573 تحـرك دون جـوان النمـساوي (Don Juan d' Autriche) [498] من صقلية متجها إلى تونس على رأس اسطول يتكون

---

[493] - تم في هذه السنة توقيع معاهدة كاتو كامبرسيس (Cateau Cambresis) بين إسـبانيا، فرنـسا و إنجلتـرا، وضعت حدا للحروب الإيطالية، وقلصت التناقضات السياسية الصارخة بين هذه الدول،وجعلت منها دولا ذات غايـات موحدة تقريبا، وهذا ما سمح لإسبانيا بتحويل اهتمامها إلى الخطر الأساسي الخارجي والمتمثل في القوة العثمانية، ونشاط بحارتها في حوض البحر المتوسط.

[494] -BRAUDEL , les Espagnols ... , op. cit ., P. 386.

[495] - محمد العروسي المطوي، **السلطنة الحفصية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1986، ص.720.

[496] - حول هذه المعركة أنظر المبحث الأخير من هذا الفصل.

[497] - محمد سي يوسف، **قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية**، رسالة ماجـستير، معهـد التـاريخ، جامعـة الجزائر، 1988، ص 149.

من 138 سفينة حربية، على متنها 27 ألف جندي[499]،وبعد إنزال قواته بحلـق الـوادي، توجه نحو مدينة تونس حيث تمكن من الإستيلاء عليها دون مقاومة، لأن الحامية العثمانية الموجودة هناك والتي لم يتجاوز عدد أفرادها الألفين، أدركت أنه لا جدوى من المقاومـة لذلك إلتجأت إلى القيروان وقد إستقبلتهم قبائل الشابية هناك بحفاوة[500]، أما أهالي تونس فقد فروا إلى جبل الرصاص[501]، لذلك عندما دخلها الإسبان وجدوها شبه خالية.

أصيب دون جوان بالغرور حيث كان يريد إنشاء مملكة خاصة به بتلك المنطقـة، وقد لقي تشجيعا من طرق البابوية في روما[502]، غير أن ذلك لم يكن يرض الملك فيليب الثاني، الذي كان يرى ضرورة تحطيم قلعة حلق الوادي ومختلف التحصينات الـساحلية، وذلك نظرا لإرتفاع تكاليف هذه التحصينات وقلة فائدتها.

غير أن دون جوان خالف أوامر الملك فيليب الثاني، فبدلا من تهديم قلعـة حلـق الوادي أعاد تحصينها، ووضعها تحت قيـادة بيـدرو دي بورتوكـاريرو (Pedro De Porto-Carrero)، كما اقام قلعة جديدة بين مدينـة تـونس والبحيـرة ووضـع عليهـا سيربلوني(Serbelloni)[503]، ولما علم فيليب الثاني[504] بـذلك غـضب كثيـرا لهـذه التصرفات، وأمر أخاه بالعودة فورا، فامتثل دون جوان للأمر، حيث إلتحـق بالـسواحل الإيطالية، فنزل بمدينة باليرمو في نوفمبر 1573، بعدما ترك بتونس حامية مـن ثمانيـة آلاف شخص تحت قيادة سيربلوني، الذي يتقاسم السلطة مع مولاي محمد الحفصي، تحت تبعية إسبانيا[505].

---

(498) - هو إبن غير شرعي لشارلكان، ولد بمدينة راتسبون سنة 1545، بعد موت أبيه، حاول فيليب الثاني إدخاله فـي إحدى الرهبنات لكنه رفض، فعينه قائدا في جيشه ، وفي سنة 1570 كلفه بتصفية ثورة مسلمي غرناطة، حيـث سـلط عليهم شتى أنواع الذل والعذاب، وفي سنة 1571 تولى قيادة الأسطول المسيحي في معركة ليبانت.

(499) - GARROT, op .cit., P. 435.

(500) - MERCIER , op . cit ., P. 115.

(501) - محمد المطوي، المرجع السابق، ص. 725.

(502) - إلتر، المرجع السابق، ص .244.

(503)- DE LA PRIMAUDAIE , Documents ..., R . A. tome 21 , 1877 , P . 295.

(504) - فيليب الثاني (Philippe II): إبن شارلكان ولد سنة 1527، خلف أباه كملك على عرش إسـبانيا والأراضـي المنخفضة سنة 1556، توفي سنة 1598.

(505) - BRAUDEL , La méditerranée..., op .cit., P. 422.

لم تكن الدولة العثمانية لتسكت على ضربة تونس، فسرعان ما بدأت الإسـتعدادات الحثيثة لإستعادتها، ويظهر ذلك في الرسائل التي بعث بها السلطان سليم الثاني إلى حكـام الأقاليم العثمانية في شمال إفريقيا(506)، يدعوهم فيها للإستعداد وتجهيز القوات للمـشاركة في الحملة المرتقبة على تونس.

ومن جهته جهز السلطان العثماني أسطولا من 250 سفينة حربية من نوع كـاليرا (Galères) و40 سفينة خاصة بنقل الجنود والأسلحة والـذخيرة(507)، رفقـة 40 ألـف جندي(508)، بقيادة علج علي باشا وسنان باشا قائد القوات البرية، وقد خرج هذا الأسطول من إستانبول يوم 15 ماي 1574، وقبل وصوله إلى تونس كانت قوات القيروان، طرابلس والجزائر قد وصلت وعسكرت بالمحمدية قرب تونس بهدف محاصرتها وقطـع التمـوين عن الإسبان(509)، فقد وصل كل من مصطفى باشا حاكم طرابلس على رأس أربعـة آلاف رجل، وشيوخ جزيرة جربة والقيروان على رأس ستة آلاف فارس، كما وصلت قوات من عنابة و قسنطينة قوامها ألفي رجل(510)، بالإضافة إلى عدد آخر من رجال قبائل المنطقة.

وصل الأسطول العثماني إلى تونس يوم 13 جويلية، وقام بإنزال الجنود والمـدافع في خليج قرطاجة، حيث كانت تنتظره قوات حيدر باشا قائد القيروان ومصطفى باشا حاكم طرابلس، إلتحق بهم بعد بضعة أيام أحمد عراب قادما من الجزائر عن طريق البحر على رأس قوة معتبرة(511).

بدأت المعارك يوم 17 جويلية، فقد كلف سنان باشا كل من مصطفى باشا وحيـدر باشا بالهجوم على تونس، بعدما أمدهما بألف مقاتل من رجاله وعدد من المدافع وعززهم بقوات إبراهيم بك من صنجاق مصر، ومحمود بك من صنجاق قبـرص، وبـاكير بـك

---

(506) - حول مضمون هذه الرسائل أنظر: سي يوسف، المرجع السابق، ص. ص. 151- 152.
(507) -HAEDO, op. cit., P. 158.
(508) - PELLISSIER , op.cit., P.103.
(509) - سي يوسف، المرجع السابق، ص ص.154- 155.
(510) - MERCIER , op. cit., P. 116.
(511) - GARROT, op.cit., P. 435.

صاحب قره حصار، وقد أحاطت كل هذه القوات بتونس «إحاطة السوار بالمعصم»[512]، أما علج علي فقد كلف بمحاصرة حلق الوادي.

أما السلطان محمد الحفصي والقائد الإسباني سيربلوني فبعدما علما بـان لا طاقـة لهما على المواجهة، تركا المدينة وتحصنا بالباستيون[513].

دخلت القوات العثمانية مدينة تونس دون مقاومة، فحصنتها ثم توجهت لمحاصـرة الإسبان بالباستيون. وفي هذه الأثناء كان علج علي يقوم بدور فعال فـي حـصار حلـق الوادي، فقد « ساهم كثيرا في تقدم الحصار، فكان في كل مكان، يوجه ويـشجع الرجـال بأقواله وأفعاله»[514].

أرسل الأمراء الذين فتحوا تونس إلى سنان باشا يطلبون منه المدد لفتح الباسـتيون فبعث لنصرتهم علج علي باشا، ولما وصل هذا الأخير إلى الباسـتيون، و إطلـع علـى تحصيناته طلب من سنان باشا مددا إضافيا، فأرسل إليه بألف جندي بقيادة علي آغا، مـع 14 مدفعا مختلفة الأحجام، وتم تضييق الخناق على الحصن من كل الجهات، ولما بـدأت المعركة وصل سنان باشا بنفسه لمراقبة العملية[515].

بدأ القصف الإسلامي ضد حصن حلق الوادي يوم 21 جويليـة 1574، وقـد أدى ذلك إلى هدم أجزاء كبيرة من الأسوار، وبعد حصار دام مدة شهر، تمكنت القوات البريـة بقيادة سنان باشا من فتح ثغرة في القلعة، شنت بعدها هجوما عنيفا خـلال ليلـة 22-23 أوت، وفي صبيحة 23 أوت سقطت القلعة في يد المسلمين، وتم قتل معظم من كان بها من الجنود الإسبان، فلم ينج منهم سوى300 جندي[516]، إحتفظ بهم المسلمون ليـتم إبـدالهم بالأسرى المسلمين، الذين كانوا في سجون الدول المسيحية.

بعد الإستيلاء على حصن حلق الوادي توجه سـنان باشـا بقواتـه إلـى حـصن الباستيون، وهناك إلتقى بقوات رمضان باشا حاكم الجزائر، الذي كان قد وصل يـوم 10

---

[512] - إبن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، الطبعة الثالثة، دار المسيرة، بيروت، 1993، ص.211 .
[513] - لفظة إسبانية تعني القلعة، وكان هذا الحصن واقعا خارج باب البحر، حيث مقر السفارة الفرنسية حاليا.
[514] - سي يوسف، المرجع السابق، ص. 156.
[515] - إبن أبي دينار، المرجع السابق، ص.ص.212- 213.
[516] - MERCIER , op .cit., P. 117.

أوت إلى تونس على رأس ثلاثة آلاف رجل[517]، بالإضافة إلى عدد آخر من رجال القبائل الذين إنضموا إليه أثناء الطريق، وبذلك إشتد عزم المسلمين، فشددوا الحصار على الباستيون.

وفي يوم الاثنين 13 سبتمبر1574 شن المسلمون هجوما مكثفا على هذا الحصن فتمكنوا من الإستيلاء عليه بعدما قضوا على الكثير ممن كانوا به، كما غنموا كميات معتبرة من الأسلحة والمعدات، وألقي القبض على القائد الإسباني سيربلوني(Serbelloni)، ومولاي محمد الحفصي، وتم إرسالهما مكبلين إلى إستانبول[518].

وبسقوط الباستيون سقطت الدولة الحفصية نهائيا، حيث دخلت تونس مرحلة جديدة من تاريخها، فمنذ ذلك الحين أصبحت جزء من رقعة الخلافة العثمانية، حيث عين سنان باشا عليها حيدر باشا وكلفه بوضع نظام عثماني مشابه للنظام السائد بالجزائر[519]، وقبل مغادرته لتونس أمر سنان باشا بهدم قلعة حلق الوادي، لكي يقضي على كل أمل إسباني في إفتكاكها مرة أخرى.

لقد كان الفتح العثماني لتونس ضربة مؤلمة للمشروع الإستعماري الإسباني في العدوة المغاربية، وانتصارا إسلاميا أزال آثار معركة ليبانت 1571، كما كان مؤشرا على بداية تلاشي القوة الإسبانية وتقلص نفوذها بمنطقة البحر الأبيض المتوسط.

المبحث الثالث: بروز الجزائر كقوة مؤثرة في أحداث البحر الأبيض المتوسط و أثر ذلك في إضعاف القوة الإسبانية.

1- خير الدين يقود الأسطول العثماني – الجزائري لنجدة الدولة الفرنسية 1543-1544:

---

(517) - ابن أبي دينار، المرجع السابق، ص.216.
(518) - سي يوسف، المرجع السابق، ص.157.
(519) -إبن أبي دينار، المرجع السابق، ص.224.

أحدث فشل التحالف الأوربي بقيادة شارلكان أمام مدينة الجزائر سنة 1541 أثـرا عميقا ليس على الإمبراطورية الإسبانية ولا على ملكها شارلكان فحـسب، وإنمـا علـى مستوى الأحداث الدولية بمنطقة البحر المتوسط، فقد نزلت أنباء الهزيمة على أوربا نزول الصاعقة، باستثناء الفرنسيين- وعلى رأسهم فرانسوا الأول – الذين كانت فرحتهم عظيمة إثر النكبة التي حلت بعدوهم شارلكان، وكان من الطبيعي أن يكون هـذا الأخيـر أكبـر الخاسرين، فقد اهتزت مكانته بين الأمم الأوربية، فلم يبق له حليف سوى هنـري الثـامن ملك إنجلترا.

وكان من المنطقي أن يعمل فرانسوا الأول على استثمار هذه النكبـة التـي حلـت بعدوه شارلكان وخاصة الخسائر الفادحة التي حلت بأسطوله وميل ملوك أوربا عنه، ليعمل على تحقيق ما لم يتمكن من تحقيقه أثناء فترة قوة هذا الأخير.

وفي هذا الإطار سارع فرانسوا الأول إلى نقض هدنة نيس التي وقعها مع شارلكان سنة 1538، ومن جهة أخرى سارع إلى تجديد الحلف الذي يربطه بالسلطان العثماني منذ 1536 محاولا بذلك توجيه ضـربة مؤلمـة لخـصمه، إعتمـادا علـى قـوة البحريـة العثمانية – الجزائرية التي صارت منذ ذلك الوقت سيدة البحر الأبيض المتوسط.

ففي سنة 1543 طلب فرانسوا الأول بإلحاح من السلطان سليمان القانوني إرسـال أسطوله لمساعدته في مواجهة الإمبراطور شارلكان، بعد أن أعلن عليه الحرب[520]، وقد تذرع بمقتل مبعوثيه رينكون(Rincon) وسـيزار فريغوسـو(Cezar Fregosso) فـي لمبارديا بإيطاليا على يد الماركيز دي غواست(Du Guast) حاكم جهـة ميلانـو باسـم الإمبراطور شارلكان[521]. وقد تمكن بولين (Poulin) الذي خلف رينكون فـي مهمتـه كسفير فرنسا لدى السلطان العثماني من إقناع هذا الأخير بقبول طلب فرانسوا الأول. فقد بعث السلطان سليمان برسالة إلى فرانسوا الأول جاء فيها:« يا فخر أمراء ديـن عيـسى ستعلم بأنه بطلب من وزيرك بولين منحتك أسطولي الرهيب المجهز بكل ما يلزم، وأمرت خير الدين قابودان باشا إلى الاستماع إليك والاستعداد إلى تدمير أعدائك، واحترس من أن

---

(520) - HAEDO , op. cit., P.64.

(521) - أندري كلو، المرجع السابق، ص. 224.

يخدعك عدوك مرة أخرى لأنه لن يخلد إلى الصلح معك إلا إذا عرف أنك ستشنها عليـه حربا لا هوادة فيها ، بارك ا في سعي من رعى صداقتي وحميته بسيفي المظفر»[522].

فهذه الرسالة تكشف عن إستعداد السلطان لتقديم المساعدة لحليفه فرانـسوا الأول، وربمـا مرد ذلك إلى رغبة السلطان كذلك في إستثمار هذه الهزيمة التي حلت بشارلكان ومهاجمة هذا الأخير في عقر داره،وتلبية نداء المسلمين الأندلسيين الذين بعثوا برسالة[523] إستغاثة للخليفة العثماني إثر هزيمة التحالف الأوربي أمام الجزائر عام 1541.

وقد تم إختيار خير الدين ليتولى قيادة الأسطول العثماني المتجـه إلـى الـسواحل الفرنسية، فبالإضافة إلى مسؤوليته كقائد الأسطول العثماني، معرفته الجيـدة بالـسواحل الأوربية التي سبق له و أن تردد عليها كثيرا عندما كان مستقرا بالجزائر.

وبعد إتمام الاستعدادات، خرج خير الدين من الدردنيل في أواخر ماي 1543،على رأس أسطول يتكون من 112 شانية و40 سفينة أخرى على متنها أربعـة عـشر ألـف رجل[524]، وقد رافقه في رحلته إلى فرنسا السفير بولين[525]، وقد سلك الطريق المار عبر ليبانت وبرانديسي، فصقلية، وعند وصوله إلى سواحل كلابريا، التي كانت تابعة للإسبان، هاجمها، ثم توجه نحو مدينة ريجيو(Reggio) بخليج مسينا، حيث تعرض إلـى قـصف مدفعي من طرف حاكم المدينة الدون دييغو دي غايتانو(Don Diego De Gaetano).

إضطر خير الدين إلى مهاجمة المدينة، مما أجبر سكانها علـى إخلائهـا، وبعـد سيطرته عليها حصل على غنائم كثيرة، والعديد من الأسرى كانت من بينهم إبنـة حـاكم المدينة[526]، وقد جلبت هذه الفتاة نظر خير الدين و أقنعها بأن تصبح زوجة له.

وعندما كان خير الدين على مشارف روما هلع سكانها وهبوا للرحيل، لكن بـولين هدّأ روعهم وأخبرهم بأن هذا الأسطول موجه لنجدة فرنسا، وأن السلطان العثماني قد أمر

---

(522) - المرجع نفسه، ص. ص .225- 226.

(523) - أنظر نص الرسالة في:عبد الجليل التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة...، المرجـع الـسابق، ص. ص. 43-46.

(524) – AUPHAN P., op. cit ., P. 175.

(525) - محمد فريد بك، المرجع السابق، ص.237.

(526)- HAEDO , op. cit., P. 65.

خير الدين بأن لا يعتدي على أراضي البابا[527]. وهكذا فإن ظهور خير الدين في غـرب البحر المتوسط، على رأس أرمادة ضخمة قد زرع الرعب في الممتلكات الإسبانية بإيطاليا بل هدد إسبانيا نفسها لذا « لم يعد الموضوع هو الإنزال الإسباني بالجزائر، بل أصبح هو الإنزال التركي على الأرض الإسبانية نفسها»[528].

وفي 05 جويلية 1543 وصل أسطول خير الدين إلى مدينة نيس، ثم واصل سيره إلى أن بلغ مدينة مرسيليا، حيث استقبل بحفاوة[529]، وهناك انضم إليه الأسطول الفرنسي المتكون من 22 سفينة تحت قيـادة فرانـسوا دي بوربـون كونـت دونغيـان(Comte D'Enghien) الذي كلفه فرانسوا الأول بقيادة القوات البرية والبحريـة المجتمعـة فـي مرسيليا[530]، فوضع هذا القائد نفسه تحت تصرف خير الدين الذي أصبح تبعا لذلك القائد العام للقوّات المتحالفة الفرنسية – العثمانية.

كان أول عمل قام به خير الدين على رأس القوى المتجمعة هـو مهاجمـة مدينـة نيس[531]، ففي 15 أوت 1543 وصل الأسطول المشترك إلى ميناء فيل فرانش (Ville Franche)، الواقع شرق مدينة نيس، ففرض عليها حصارا إستمر لمدة خمسة أيام، لكـن سكانها إستماتوا في المقاومة، مما أدى بخير الدين إلى قصفها بالمدفعية لمـدة أسـبوعين، حينئذ اضطر السكان إلى تسليم المدينة في 22 أوت 1543، ونظرا لوقوع بعض الخلافات بين العسكرين لم يتم إحتلالها[532]، وأثناء هذه العملية كان الإنضباط العثماني أفضل بكثير من الإنضباط الفرنسي.

---

[527] - أندري كلو، المرجع السابق، ص.226.
[528] – جون ب. وولف، المرجع السابق، ص.62.
[529] - PRIEUR , op. cit., P. 195.
[530] - FARINE , op. cit., P. 334 .
[531] - كانت تابعة لدوق دي سافوا (Duc De Savoie) أمير مقاطعة بيدمونت بإيطاليا، وحليف شارلكان، في حـين كان فرانسوا الأول يدعي بأنها ملك لأجداده وبالتالي فهو أحق بها، أنظر: HAEDO , op. cit., P. 65.
[532] - محمد فريد بك، المرجع السابق، ص.237.

مما زاد في إنزعاج خير الدين أن الفرنسيين نفذ عنهم البارود وطلبوا منه تزويدهم به، فغضب متعجبا من شعب نفذت ذخيرته الحربية قبل أن تنفذ من عنده الخمر[533].

وكان خير الدين غير مطمئن على الإقامة في هذا الميناء، لذلك اضـطر فرانـسوا الأول إلى وضع ميناء طولون تحت تصرف خير الدين وأسطوله، وطلـب مـن سـكان المدينة التخلي عن مساكنهم لهذا الأخير ورجاله[534]، فقبل خير الدين تمضية فصل الشتاء في ميناء طولون، بشرط أن يتكفل فرانسوا الأول بتموين الجيش، فوافق الملك الفرنـسي على ذلك، حيث زوده بثمانية آلاف ريال فرنسي لإنفاقها على جنده[535]، وبذلك تم رفـع الحصار عن مدينة نيس.

وهنا لابد من الإشارة إلى بعض الادعاءات الغربية المغرضة التي أريد من ورائها الإساءة لشخصية خير الدين وسمعته، منها قولهم أن خير الدين قد أراد نهب مدينة نـيس، مما جعل الفرنسيين الذين شاركوا معه في الحملة يقررون الانسحاب، غير أن المـؤرخين النزهاء قد فندوا – إعتمادا على الوثائق – تلك المزاعم عندما كشفوا عن وصول رسـالة من المـاركيز دي ڨواسـت(Marquis Du Guast) إلـى قائـد قلعـة نـيس، بـاولو سيموني(Paolo Simeoni)، يخبره فيها بأن مددا بحريا قادما إليه[536]، فلما وقعت هـذه الرسالة في يد الفرنسيين و اطلعوا على فحواها، انسحبوا تاركين خيـر الـدين وجنـوده لوحدهم.

ومنهم من تحدث عن التصرفات الخشنة لخير الدين وجنوده في مدينـة طولـون، حيث يتهمونه بإقتلاع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع سوى أصوات المؤذنين، لكن شـاهد عيان قال «لو رأيتم المدينة لظننتم أنكم في القسطنطينية، فكـل واحـد يتعـاطى مهنتـه ويعرض البضاعة التركية بأدب وعدل، وفرض على الجيش نظام صارم»[537].

---

(533)- جون ب. وولف، المرجع السابق، ص.63.

(534) - BABELON J., op. cit., P. 222.

(535) - محمد فريد بك، المرجع السابق، ص.238.

(536)- FARINE , op. cit., P. 341.

(537) - أندري كلو، المرجع السابق، ص.230 .

أما بولين فقد أكد ذلك بقوله:«... لم يعش جيش ملتحما بالناس وفي نظام كبير مثل هذا الجيش أبدا»[538]. فمثل هذه الشهادات تثبت الانضباط التام الذي عرف بـه الجـيش العثماني، وتقحم كل أولئك الذين يتهمونه بالوحشية والهمجية.

أما إتهام خير الدين بمهاجمة العديد من الجزر، فإن ذلك كان يدخل ضمن حـرب الاستنزاف التي يمارسها الرياس ضد المصالح الإسبانية، كما أنه لم تكن هنـاك معاهـدة أو هدنة بين الدولة العثمانية أو الدولة الجزائرية مع إسبانيا ، وفي هذا الصدد نظم خيـر الدين إنطلاقا من السواحل الفرنسية هجوما على السواحل الإسبانية. ففـي أواخـر سـنة 1543 أرسل هذا الأخير أحد رجاله الأقوياء، وهو صالح رايس على رأس أسطول يتكون من 22 سفينة جيدة التسليح نحو منطقة كتالونيا، فهاجم مينـائي بـالاموس (Palamos)، وروزاس(Rosas) ثم توجه إلى الجزائر لقضاء فصل الشتاء[539].

ظل خير الدين مرابطا بأسطوله في مدينة طولون إلى غاية 1544، وقد إقتنع بـأن فرانسوا الأول قد فشل في الإلتزام بوعده، ونتيجة لذلك أظهر كرها عميقا للملك الفرنـسي وشعبه، ومن جهة أخرى، رأى فرانسوا الأول أن ثمن الإبقاء على الأسطول العثماني كان يشكل عبئا ثقيلا على خزينته، فوجد أنه من الأحسن عقد سلام مع شارلكان[540]، ولكـن ذلك لا يمكن أن يتم قبل انسحاب الجيش العثماني من التراب الفرنسي، خاصة وأن وجود أسطول إسلامي بمدينة فرنسية قد جعل فرانسوا الأول في حرج كبير أمام الأمم المسيحية الأوربية.

ومن جهته كان شارلكان في وضعية لا يحسد عليها، ففي هذه الأثناء كان قد هاجم شمال فرنسا، لكنه انهزم أمام مدينة شاطو تياري(Chteau-Tierry)، فعاد إلـى ألمانيـا حيث كان ضغط المتمردين البروتستانت قد اشتد ضده بصفة خاصة، مما اضـطره إلـى

(538) – المرجع نفسه.

(539) - HAEDO, op. cit., P.66.

(540) - جون ب. وولف، المرجع السابق، ص. 63 .

مهادنة فرانسوا الأول، حيث وقّع معه معاهـدة كريـسبي(Crespy) فـي 18 سـبتمبر 1544[541].

أما السلطان سليمان الذي كان منشغلا بمشاكل داخلية، فضلا عن إمكانيـة تجـدد الحرب على الجبهة الشرقية ضد الشيعة في إيران، فقد كان يرغب في اتفاق يوقف الحرب في البحر المتوسط مؤقتا، لذلك عقد هدنة مع شارلكان سنة 1545.

بعد أن أنهى خير الدين مهمته في فرنسا غادر ميناء طولون فـي أفريـل 1544، محملا بالغنائم والأموال، رفقة السفير الفرنسي بولين، وفي طريق عودته إلـى اسـتانبول هاجم العديد من المدن الساحلية التابعة للإمبراطور، فعند وصوله إلى سواحل جنـوة فـي ماي 1544 أغار على جزيرة ألـب(Elbe)، ثـم نهـب سـواحل توسـكانيا وجزيـرة إيشيا(Ichia)، وسواحل كلابريا، ثم استولى على مدينة ليباري(Lipari)، فتمكن من أسر أعداد كبيرة من سكان تلك المناطق، ثم سلك طريقه نحو العاصمة العثمانية محملا بغنـائم كثيرة، أما عدد الأسرى فكان من الكثرة بحيث أن الكثيـر مـنهم مـات إختناقـا داخـل السفن[542]، وعند وصوله إلى استانبول، استقبل خير الدين استقبال الأبطال.

وفي الأخير يمكن القول أن نشاط الأسطول العثمـاني- الجزائـري فـي البحـر المتوسط قد أدى إلى اختلال توازن القوى البحرية مؤقتا في غيـر صـالح إمبراطوريـة شارلكان، كما أنه كان فرصة لبروز البحرية الجزائرية كقوة مؤثرة في أحـداث البحـر الأبيض المتوسط، فبفضل تحالفها مع الفرنسيين صـارت تـشكل خطـرا كبيـرا علـى الإمبراطورية الإسبانية، وهذا ما يؤكده الدكتور بلحميسي بقوله: «لولا المـساهمة غيـر المنتظرة للأسطول الجنوي بقيادة أندري دوريا لنجدة شارلكان، لكان بإمكان التحالف بين السلطان المسيحي وبحارة الجزائر تحقيق هدفهم»[543].

---

[541] – GARROT, op. cit., P.411.
[542] - GARROT, op. cit., P.411.
[543] -BELHAMISSI , Histoire de la Marine ... , op. cit., P. 151.

ومن جهة أخرى فقد كشفت هذه التجربة عن مكانة الجزائر ضـمن الإسـتراتيجية العثمانية، والدور الذي يمكن أن تضطلع به الجزائر في الصراع الإسلامي- المسيحي في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

2- دور البحرية الجزائرية في حرب مالطة 1565:

كان من نتائج انتصار الجزائر على التحالف الأوربي سنة 1541، تزايـد نفـوذ البحرية الجزائرية في البحر المتوسط، فبعدما كانت تقوم بدور دفاعي، من خلال محاولة تطهير الأرض الجزائرية من الوجود الإسباني، مع القيام بهجومات سريعة وخاطفة ضـد الثغور الإسبانية من حين لآخر، تطور هذا الوضع خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، الذي تميز باشتداد المواجهة في قلب البحر المتوسط، بين القوى المسيحية الأوربية، و القوى الإسلامية، حيث صارت البحرية الجزائرية، المتحالفة مع البحرية العثمانية، قوة فاعلة ومؤثرة في مختلف الأحداث الدولية بمنطقة البحر المتوسط. ومن بـين المحطـات الهامة التي برزت فيها البحرية الجزائرية نجد حرب مالطة سنة 1565.

تحتل مالطة موقعا استراتيجيا في وسط البحر المتوسط، حيث كانت تعـد قاعـدة بحرية ذات تأثير مباشر على حركة الملاحة، و مما زاد فـي أهميتهـا أنهـا تقـع بـين الحوضين الشرقي و الغربي، فالذي يسيطر عليها تكون له اليـد الطـولى فـي البحـر المتوسط، و لهذه الاعتبارات منحها شارلكان سنة 1530 لفرسان القديس يوحنـا، بعـدما طردهم السلطان سليمان القانوني من جزيرة رودس، و من ذلك الحين صـاروا يعرفـون بفرسان مالطة.

تتكون مالطة من أربع جزر تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الـشرقي علـى النحو التالي : جزيرة قوزو (Gozzo)، جزيرة كومينوتو (Cominotto)، وجزيرة مالطة و هي الأكبر، أما جزيرة فيلفولا (Filfola) و هي الأصغر فتقع إلى الجنوب من جزيـرة مالطة، و تقدر المساحة الإجمالية لهذا الأرخبيل بـ 316 كيلومتر مربـع[544]، وتـضم جزيرة مالطة الرئيسية أربع مدن، و هي سانت أنـج (Saint - Ang)، سـانت ميـشال (Saint - Michel)، لافاليت (La cité – Valette)، و المدينـة القديمـة(La Cité – Vieille) [545].

أدى فشل حسن بن خير الـدين فـي إفتكـاك وهران من يد الإسبان سنة 1563[546]، ثم سقوط قلعة باديس (Penon de Valez) فـي قبضة الإسبان أيضا، سنة 1564، إلى إثارة غضب السلطان سليمان القانوني، الذي قـرر تصفية الوجود الإسباني في المغرب الإسلامي نهائيا، ولأجل ذلك لابد من فتح مالطة أولا، لأنها قاعدة تعرقل حركات الأسطول العثماني نحو شمال إفريقيا، ولأن فرسان مالطة مـا برحوا منذ إستقرارهم بهذه الجزيرة يهاجمون السفن الإسلامية، يعترضون طريق الحجاج المسلمين وهم في طريقهم عبر البحر نحو البقاع المقدسة[547]، فضلا عن مشاركتهم فـي

---

(544) - نعيمة بوحمشوش، **مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر**، رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1998 – 1999، ص. 102.

(545) - GALIBERT, op. cit., P. 206.

(546) - حاول حسن باشا بن خير الدين تحرير مدينة وهران سنة 1563، حيث جهز لذلك حملة تتكون مـن 15 ألـف رجل من الرماة و ألف من الفرسان إضافة إلى قوات عبد العزيز سلطان قلعة بني راشد، كما أرسل عبـر البحـر 32 سفينة لنقل المدفعية و الذخيرة و المؤونة، وأنطلق في أفريل 1563 نحو وهران، لكن صمود حاميـة المدينة،ووصـول النجدة الإسبانية حال دون نجاح هذه المحاولة.

(547) - أندري كلو، المرجع السابق، ص.ص. 263- 264.

كل الإعتداءات الصليبية على المغرب الإسلامي ، مثل إحتلال شـارلكان لتـونس سـنة 1535،والتحالف الأوروبي ضد الجزائر سنة 1541، حيث جعلوا من هذه الجزيرة قاعدة متقدمة للعالم المسيحي تهدد أمن وسلامة المسلمين.

لكل هذه الإعتبارات، قرر السلطان سليمان مهاجمة فرسان مالطة، وقد اتخذ هـذا القرار بالتنسيق مع القيادات العثمانية بالمنطقة، ما عدا معارضة درغوث رايس و علـج علي، اللذين ألحا على ضرورة البدء بإستخلاص حلق الـوادي، بـادس، ووهـران[548]، باعتبارها إمتداد للرقعة العثمانية، وأن خطر الإسبان بهذه المناطق أشد تـأثيرا، غيـر أن مجلس الشورى المنعقد في إستانبول بطلب من السلطان قد رجح فتح مالطة أولا[549].

بدأ السلطان سليمان إستعداداته لحصار مالطة سنة 1564 بصفة سرية، حيث بعث برسائل إلى كل قادة الدولة العثمانية يدعوهم فيها للمشاركة في هذه الحملة، كان من بينهم حسن باشا بن خير الدين حاكم الجزائر، ودرغوث رايس حاكم طرابلس و جربة[550]، ففي شهر سبتمبر 1564 تلقى حسن باشا عدة رسائل سرية من السلطان يطلعه فيها عن عزمه بتوجيه قوة عسكرية كبيرة ضد جزيرة مالطة خلال الربيع المقبل، فشرع خـلال فـصل الشتاء في الإستعدادات اللازمة.وفي شهر مارس 1565 تلقى رسالة أخرى من الـسلطان يطلب منه التحرك بقواته نحو مالطة، وحدد له تاريخ الإقـلاع الـذي كـان فـي شـهر ماي[551].

بعد إتمام الإستعدادات أقلع الأسطول العثماني مـن المـضايق فـي 20 مـارس 1565[552]، قاصدا مالطة، التي وصل إلى مشارفها في 18 ماي 1565، وكان الأسطول العثماني يضم 180 سفينة على متنها 45 ألف جندي [553]، يتولى قيادتهم كل مـن بيالـه

---

[548] - عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية ...، المرجع السابق، ص. 87.

[549] - خليل الساحلي، "**وثائق عن المغرب العثماني أثناء حصار مالطة سنة 1565**"، م.ت.م.، العـدد7- 8، جـانفي 1978، ص. 40.

[550] - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 384.

[551] - HAEDO, op. cit., P. 139.

[552] -BRAUDEL, LA Méditerranée …,op. cit., P.320.

[553] - GARROT, op, cit., P. 430.

باشا، أميرال الأسطول، ومصطفى باشا قائد القوات البرية، إلتحق بهما درغوث رايـس، وحسن باشا بن خير الدين.

كان المسيحيون على علم بتحركات الأسطول الإسلامي، ففي رسـالة بعـث بهـا بيترمول (Petermol) من إستانبول إلى كاترين دي ميدسيس(Cathrine de Medecis) وصية عرش فرنسا يخبرها بأن وجهة الأسـطول العثمـاني سـتكون دون شـك نحـو مالطة[554]، أما قائد فرسان مالطة، جون دي لا فاليـت بـاريزو(Jean de la Valette Parisot)[555]، والذي لم يكن معه سوى 700 فارس و 1200 جندي[556]، فما إن علـم بذلك حتى سارع إلى إتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة، حيث راسل كل من البابا بيـوس الرابع، والملك فيليب الثاني يطلب منهما إرسال قوات عسكرية للدفاع عن مالطة، كما قام بترحيل أعدادا من النساء والأطفال إلى جزيرة صقلية، وتسميم مياه الآبار قصد إستنزاف الجيش الإسلامي، كما إستدعى فرسانه الذين كانوا خارج مالطة[557].

وفور وصول الأسطول العثماني إلى مالطة في 18 مـاي 1565 قـام بـضرب الحصار على حصن سانت الم(Saint-Elme)، وذلك قبل وصول قوات درغوث رايـس وحسن باشا.

وصل درغوث رايس إلى مالطة في 20 جوان، على رأس قوة تتكـون مـن 23 سفينة حربية على متنها 2110 جندي[558]، فدخل المعركة مباشرة، رغم أنـه لـم يكـن مقتنعا بالخطة المنتهجة من طرف قائدي الأسطول الإسلامي بياله باشا ومصطفى باشـا، حيث كان يرى ضرورة إحتلال التلال المشرفة على الحصون، حتى يـتم إحـتلال هـذه الأخيرة بسهولة[559]، وهذا ما لم يتم. فرغم الإنتصارات التي حققها المسلمون في بدايـة المواجهات إلا أنهم لم يتمكنوا من إحتلال حصن سانت ألم، إلا بعـد مواجهـات دمويـة،

---

(554) - BRAUDEL, LA Méditerranée …, op .cit., P . 320.

(555) - من أصل فرنسي ولد سنة 1464، إنخرط في صفوف منطقة الفرسان سنة 1515، حضر فتح السلطان سليمان لجزيرة رودس سنة 1522،أنتخب أستاذا أعظم للفرسان في 1557/08/17. توفي سنة 1568.

(556) - GALIBERT, op. cit., P.206.

(557) - نعيمة بوحمشوش، المرجع السابق، ص. 108.

(558) - أوزتونا، المرجع السابق، ص. 321.

(559) - عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية ...، المرجع السابق، ص. 88.

دامت ثلاثة أسابيع إستنزفت قدرات المسلمين، وفقدوا أعدادا معتبرة من جنودهم، غير أن أفدح خسارة منيت بها القوات الإسلامية في هذه العملية كانت إستشهاد درغوث رايـس، الذي أصيب بشظية في رأسه يوم 16 جوان 1565[560]، عندما كـان يراقـب عمليـات الحصار،وقد توفي في 23 جوان، وهو نفس اليوم الذي تم فيه فتح حصن سانت الم[561]، غير أن سقوط هذا الحصن المنيع لم يحسم المواجهة لصالح العثمانيين.

ورغم الخسائر التي تكبدها الفرسان، ورغم مقترح السلم الذي أرسل به مـصطفى باشا لقائدهم ، إلا أن هذا الأخير قد رفض هذا العرض وأصرّ على مواصلة القتال.

و يبدو أن موقفه هذا كان بناء على علمه بقرب وصول الإمدادات الأوربية التـي ألحّ في طلبها، و هذا ما تمّ فعلا، ففي 30 جوان وصلته نجدة عسكرية من دون قارسيا دي طوليدو، تضم 600 جندي[562]، و هو ما زاد في تعزيز قدرات الفرسـان و رفـع مـن معنوياتهم.

أما مصطفى باشا، فبعدما تحقق من إصرار الفرسان على المقاومة، قرر مواصـلة الحصار، و قد ركز الهجوم على الحصنين الآخرين، سانت ميشال، و سانت أنج، مستفيدا من سيطرته على حصن سانت ألم، حيث صار بإمكانه أن يـشن الهجـوم عـن طريـق البحر[563].

أما حسن باشا، حاكم الجزائر فبعد تلقيه دعوة السلطان سليمان توجه مباشرة نحـو مالطة على رأس قوة تتكون من 28 سفينة جيدة التجهيز على متنها ثلاثة آلاف رجل[564]، من خيرة المقاتلين الجزائريين و أكثرهم خبرة بفنون القتال، غير أنه لم يصل إلى مالطـة إلا يوم 05 جويلية[565]، أي بعد انتهاء المرحلة الأولى من الحصار، و التي انتهت بسقوط حصن سانت ألم.

---

(560) - DE GRAMMONT, op. cit., P.100.

(561) - عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، المرجع السابق، ص. 89.

(562) - BRAUDEL, La Méditerranée..., op. cit., P. 322.

(563) - نعيمة بوحمشوش، المرجع السابق، ص. 112.

(564) - HAEDO, op . cit ., P. 139.

(565) - DE GRAMMONT, op. cit ., P. 100.

لقد أشاد المؤرخون الغربيون بالدور الذي لعبته الفرقة الجزائرية بقيادة حسن باشا في هذه الحرب، حيث أعتبرت أحسن فرق الجيش العثماني، حيث برز هذا الأخير كعادته بإقدامه و شجاعته[566]، فقد ذكر هايدو:« لقد قدم حسن باشا أعظم الخدمات طيلة مدة هذه الحملة »[567].

فقد تولى حسن باشا قيادة كل الهجومات الخطيرة، حيـث كلفـه مـصطفى باشـا بمهاجمة حصن سانت ميشال و وضع تحت تصرفه 6000 جنـدي[568]، و قـد تمكـن الجزائريون خلال الهجومات الأولى من تنصيب ألويتهم على الحصن ثلاث مرات.

لكن بعد محاولات دامت خمس ساعات إضطر الجزائريون إلى الانسحاب، نظـرا لكثرة عدد القتلى في صفوفهم، و لكن بعد أن ألحقوا أضرارا هامة بقوات العدو،الذي فقـد بدوره اكثر من مائتي جندي بالإضافة على اثنين من خيرة الفرسان، و هما، دي قـويني (De Guiney)، و دي سيميان (De Simiane)[569]. و في 15 جويلية هـاجم حـسن باشا حصن سانت ميشال من جهة البر، في الوقت الذي هاجمه نائبه كانديليسا مـن جهـة البحر، و رغم صمود الفرسان و قوة مدفعيتهم إلا أن الجزائريين تمكنوا من التقدم نحو الساحل و النزول به، حيث وصلوا إلى الحصن المـذكور و نـصبوا عليـه سـبعة ألوية[570]، لكن إستماتة الفرسان في الدفاع حال دون سقوط هـذا الحـصن فـي قبـضة الجزائريين.

و فيما كان الجيش العثماني يعاني من نقص البارود[571]، نظرا لطول مدة الحصار و التي دامت أكثر من أربعة أشهر، كما كان يعاني من قلـة المؤونـة و انتـشار وبـاء الطاعون وسط الجنود[572]، تلقى الفرسان مددا هاما كان له أثره في حسم هذه المواجهـة

---

(566) - Ibid.

(567) - « Hassan rendit les plus grands services pendant toute la durée de cette campagne». Voir: HAEDO, op. cit ., P. 139.

(568) - DE GRAMMONT, op. cit., P. 100.

(569) - GALIBERT, op. cit., P. 207.

(570) - Ibid., PP. 207 – 208.

(571) - حسب الفرمان الصادر عن قيادة الحملة من مالطة بتاريخ 14 جويلية 1565، و الموجه إلى طرابلس الغـرب، فإن الجيش العثماني كان بحاجة ماسة للبارود الأسود بما يقدر بـ 4000 قنطار، أنظر: خليل الساحلي، المرجع السابق، ص. 42.

(572) - MERCIER , op. cit., P. 104 .

لصالحهم، ففي 05 سبتمبر أرسل دون قارسيا دي طوليدو القائد العام للأسطول الإسباني و نائب ملك صقلية نجدة إلى مالطة تمثلت في 28 سفينة على متنها 12 ألف رجـل[573]، و في 07 سبتمبر[574]، وصلت هذه النجدة إلى مالطة، و أمام هذه الوضعية الصعبة التي آل إليها الجيش الإسلامي، إضطرت قيادة الأركان إلى رفع الحصار، و إنقاذ ما تبقـى مـن القوات، و ذلك يوم 11 سبتمبر 1565[575].

لقد كانت خسائر الطرفين فادحة، فقد أبيد نصف الجيش الإسلامي[576]، أمـا فـي الطرف الآخر فقد مات أكثر من 8500 جندي مسيحي و 260 فارس[577]، و هذا ما يدل على ضراوة هذه المواجهة.

أما حسن باشا، ونظرا للدور الفعال الذي قام به، و تلك الشجاعة التي أظهرها فقد عينه السلطان – بعد وفاة بيالة باشا – قائدا للبحرية العثمانية، حيث غادر الجزائـر فـي مطلع سنة 1567.

لقد كانت حرب مالطة إحدى مظاهر الصراع الإسلامي – المـسيحي مـن أجـل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، و قد كشفت هذه الحرب مرّة أخرى عـن الـدور الذي يمكن أن تلعبه البحرية الجزائرية في هذا الصراع.

3- مساهمة الجزائر في ثورة الموريسكيين 1568:

منذ أن برزت الجزائر كقوة إسلامية فتية مؤثرة فـي أحـداث البحـر الأبـيض المتوسط، لم تتوان في نصرة المسلمين ورد الاعتداءات الـصليبية المتكـررة ضـدهم، ويتجلى ذلك في الدور الفعال الذي لعبته الجزائر في مختلـف المواجهـات الإسـلامية- المسيحية في منطقة البحر المتوسط، و التي سجل فيها حكام الجزائر صفحات مشرقة، و

(573) - GARROT, op . cit ., P. 431.

(574) - منذ ذلك الحين صار شعب مالطة يحتفل بيوم 07 سبتمبر كعيد وطني، أنظر: عبـد الجليـل التميمـي، رؤيـة منهجية...، المرجع السابق، ص. 89.

(575) - محمد فريد بك، المرجع السابق، ص. 249.

(576) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 384.

(577) - أوزتونا، المرجع السابق، ص. 322.

من بين المحطات التاريخية التي أدت فيها الجزائر دورا متميزا نجد ثورة الموريسكيين[578]، التي اندلعت سنة 1568.

منذ سقوط غرناطة سنة 1492 ظلت إسبانيا ترى في بقايا المسلمين بالأندلس خطرا إسلاميا يهددها من الداخل، لذا عملت على تصفيتهم بشتى الوسائل، و ذلك بتحريض من رجال الكنيسة، الذين اقنعوا الحكام الإسبان بأن وحدة العقيدة و الروح هي الأساس الأول الذي يمكن من خلاله توحيد إسبانيا المجزأة، و من ثمة فإن تنصير المسلمين أو إخراجهم من البلاد هو الضمان الوحيد لوحدة إسبانيا و سلامتها[579]، و في هذا الإطار أصدرت الحكومة الإسبانية في 12 مارس 1524 مرسوما يحتم تنصير كل مسلم بقي على دينه أو طرده من البلاد، و كل مسلم يأبى التنصير أو الخروج في المهلة الممنوحة تكون عقوبته الإسترقاق مدى الحياة[580].

و إذا كان العديد من مسلمي الأندلس قد هاجروا إلى البلاد الإسلامية و خاصة نحو بلدان المغرب الإسلامي، فإن هناك من اضطرته ظروفه على البقاء بدياره، و لكن رغم المضايقات التي كانوا يعانون منها، و رغم عمليات التنصير القسري التي مورست عليهم، إلا أنهم ظلوا متمسكين بدينهم، و لم يقطعوا صلتهم بإخوانهم المسلمين في مختلف البلاد الإسلامية، و خاصة بالمغرب الإسلامي، كما لم يترددوا في طلب الإستغاثة من الخلافة العثمانية[581]، التي اضطلعت آنذاك بمهمة الدفاع عن حرمة العالم الإسلامي.

و يلاحظ بأن نشاط حركة الجهاد الإسلامي في منطقة البحر المتوسط قد كان حافزا لمسلمي الأندلس على اجتياز الظروف الصعبة التي كانوا يمرون بها، كما بعث في

---

[578] - « تتفق معظم الدراسات على أن مصطلح الموريسيك (Moriscos) استعمل بعد سقوط غرناطة للدلالة على المسلم الذي دخل المسيحية حديثا، و قد درج المؤرخون على استعمال مصطلح الموريسكيين كدلالة تاريخية للتعريف بآخر مسلمي الأندلس أو العرب المتنصرين، الذين فرض عليهم التنصير القسري ما بين (1499 – 1526) و بقي أحفادهم حتى عمليات الطرد النهائي سنة 1609 »، أنظر: هلايلي حنفي، **"الأندلسيون في فكر أحمد المقري"**، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 16، جوان 2004، ص. 109.

[579] - ليلى الصباغ، **"ثورة مسلمي غرناطة عام 976 هـ، أواخر عام 1568 هـ، و الدولة العثمانية"**،« الأصالة »، العدد 27، سبتمبر– أكتوبر 1975، ص. 119.

[580] - المرجع نفسه، ص. 120.

[581] - فقد بعثوا برسالة استغاثة للسلطان بايزيد الثاني (1481 – 1512)، حوالي سنة 1505، و هي عبارة عن قصيدة شعرية طويلة حفظها شهاب الدين أحمد المقري في مؤلفه:« أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض »، و هي قصيدة يستصرخ فيها صاحبها السلطان العثماني و يصف له ما تنزله اسبانيا المسيحية برعاياها الجدد و ما يصيبهم من تعسف ديوان التحقيق.

نفوسهم الأمل في التخلص من القهر الإسباني، فرسالة الإستغاثة التي بعثوا بها للسلطان سليمان القانوني سنة 1541[582]، إثر الإنتصار الساحق الذي حققه الجزائريون ضد قوات التحالف الأوربي خير دليل على ذلك.

و من جهة أخرى فإن هذه الرسالة تثبت تمسك الموريسكيين بدينهم، و بالتالي فهي دليل على فشل سياسة التنصير القسري، فمسلمو الأندلس قد خضعوا مؤقتا، ولكنهم لم يندمجوا في المجتمع المسيحي[583]، فالانتصارات التي كان يحققها إخوانهم المسلمون في المغرب الإسلامي جعلتهم يتأهبون للإنقضاض على الحكم الإسباني.

و قد ازدادت مأساة الموريسكيين في عهد الملك فيليب الثاني، الذي كان يخضع لتأثيرات الكنيسة، الشيء الذي ميّز عهده باشتداد التعصب الديني ضد المسلمين، ويتجلى ذلك في المراسيم الجديدة التي أصدرها في حق المسلمين، مثل المرسوم الذي صدر سنة 1563، و الذي يحرم عليهم حمل السلاح دون ترخيص من الحاكم العام، كما صدرت قوانين أكثر خطورة، تحرم على المسلمين التحدث باللغة العربية، و ارتداء اللباس العربي، و إقامة الحفلات حسب التقاليد الإسلامية، كما فرض عليهم فتح أبواب منازلهم يوم الجمعة حتى يتمكن الرهبان و رجال السلطة من مراقبتهم، أما من يخالف نصوص هذا القانون فتفرض عليه عقوبات قاسية[584]، و قد أعلن عنه يوم أول جانفي سنة 1567، و هو نفس اليوم الذي سقطت فيه غرناطة.

فكل هذه الإجراءات الاضطهادية قد زادت في سخط مسلمي الأندلس، و دفعتهم إلى تفجير الثورة، أواخر سنة 1568 و التي يمكن حصر أسبابها في النقاط التالية:

- السياسة الإسبانية المتسلطة تجاه مسلمي غرناطة في شتى الميادين السياسية، الإقتصادية، الإجتماعية، الإدارية و العقائدية.

---

[582] -عبد الجليل التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة ...، المرجع السابق، ص.ص. 43 – 46.

[583] - JOSEPH PEREZ, op. cit.,P. 70.

[584] - محمد عبد ا عنان، **نهاية الأندلس و تاريخ العرب المتنصرين**، الطبعة الرابعة، مطبعة المدني، القاهرة ، 1987، ص. 360.

- تخوف الإسبان من الزيادة الملحوظة في عدد السكان المسلمين بغرناطة، حيث أثبتت الدراسات بأن الزيادة السكانية بين المسلمين كانت أعلى من الزيادة المسيحية، الشيء الذي جعل الإسبان يخشون من تفوق المسلمين[585].

- أثر التطورات الاقتصادية، الاجتماعية و الفكرية التي عرفتها إسبانيا خلال القرن السادس عشر، و التي أدت إلى نمو البرجوازية المسيحية، و ازدياد كراهيتها للبرجوازية المسلمة، التي سيطرت على العديد من النشاطات الإنتاجية بفضل حيويتها و ذكائها، يضاف إلى ذلك عامل الصراع الديني و الحضاري بين المجموعتين[586]، فكل هذه العوامل جعلت التعايش بينهما مستحيلا.

و لا شك بأن انتصارات الأسطول العثماني و حليفة الجزائري في البحر المتوسط، و كذا إشتداد ثورة البروتستانت في الأراضي المنخفضة، قد كانت من العوامل التي حفزت مسلمي غرناطة على تفجير الثورة سنة 1568.

و بينما كان الموريسكيون يتهيأون للثورة أرسلوا وفداً إلى السلطان العثماني في ربيع سنة 1567 لطلب المساعدة، و قد حظي هذا الوفد بحسن الإستقبال من طرف علماء و شخصيات بارزة في استانبول، غير أن انشغال السلطات العثمانية بعدّة قضايا[587]، حال دون تدخلها لصالح الموريسكيين.

و في هذه الأثناء استقبلت الجزائر حاكمها الجديد علج علي، الذي وصل إلى العاصمة في بداية شهر مارس 1568، و بمجرد توليه الحكم عزم على مواصلة الصراع ضد الإسبان، لذلك عندما تلقى نداء الإستغاثة من مسلمي غرناطة لم يتردد في مساعدتهم بكل ما أوتي من قوة.

فقد أرسل الموريسكيون أحد رجالهم و يسمى بارتال (Partal) إلى الجزائر مرتين لمقابلة علج علي و إعلامه بوضعية الموريسكيين و نوع المساعدات التي هم بحاجة

---

(585) - ليلى الصباغ، ثورة مسلمي...، المرجع السابق، ص.ص. 135 – 136.

(586) - عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية ...، المرجع السابق، ص. 91.

(587) - منها الحرب ضد روسيا بهدف استخلاص مدينتي قازان و استراخان، و انشغالها باخماد ثورة اليمن، و مصارعة البرتغاليين في المحيط الهندي.

إليها[588]. و قد أظهر علج علي استعداده لنصرة المجاهدين الأندلسيين، و لهذا الغرض تم عقد اجتماع مع الأهالي بأحد مساجد مدينة الجزائر، و قد تمكنوا من جمع كميات معتبرة من الأسلحة، فاقت التوقعات[589]، كما تم اختيار الرجال المتطوعين للمشاركة في الثورة.

و قد اتفق علج علي مع مسلمي الأندلس على تفجير الثورة في الوقت الذي تـصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى السواحل الإسبانية، و كان قد حدد يوم الأربعاء، و هو عيد مجمع القديسين، الموافق ليوم 15 أفريل 1568 كيوم لاندلاع الثورة، حيث يمكن مباغتة المسيحيين الذين يكونون حينها منشغلين باحتفالاتهم و طقوسهم.

لأجل ذلك و بهدف تشتيت الجهود الإسبانية و إضعاف قواها، قـرّر علـج علـي مهاجمة وهران ، ثم التحرك نحو السواحل الإسبانية لمساعدة الثوار الأندلـسيين، فـأمر بتجهيز أربعة عشر ألف جندي مسلحين بالبنادق و ستين ألف من المجاهدين الجزائـريين من مختلف مناطق البلاد و معهم أربعمائة جمل محملة بالبارود، و أمرهم بالتوجه نحـو مزغران و مستغانم للقيام بالهجوم على وهران لإشغال الإسبان، ثم القيام بعملية الإنـزال بالسواحل الإسبانية[590]، وفق الخطة المتفق عليها، و في نفس الوقت أمـر بإرسـال 40 سفينة نحو السواحل الإسبانية، و في يوم الأربعاء المقدس لدى المسيحيين وصـلت هـذه السفن إلى ميناء المرية (Almeria) الإسباني تنتظر إشارة انطلاق الثورة، لتتولى مساعدة المجاهدين الأندلسيين، غير أن السلطات الإسبانية قد اكتشفت المشروع، اثر خطأ ارتكبـه أحد قادة الثوار قبل اندلاع الثورة بيوم واحد، و بذلك ضاعت فرصة مباغتة الإسبان[591]، لكن رغم فشل المحاولة الأولى إلا أن ذلك لم يقلل من عزيمة علج علـي فـي مـساندة الأندلسيين.

إستغل الموريسكيون فرصة احتفال المسيحيين الإسبان بأعياد الميلاد في ديـسمبر 1568، و أعلنوا عن تفجير الثورة، و قد اختاروا هذه المرة زعيما من أحفاد بنـي أميـة

---

(588) -عبد الجليل التميمي، **"الدولة العثمانية و قضية الموريسكيين"،** م. ت. م.، العدد 23– 24. نوفمبر 1981، ص. 196.

(589) - HAEDO, op . cit., P. 150.

(590) - DE GRAMMONT, op . cit., P. 104.

(591) - علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص. 256.

إسمه الدون فرناندو كوردوفالور، و هو شاب في العشرين من عمره و أطلقوا عليه اسما عربيا هو محمد بن أمية[592]، و يبدو أن اختيار هذا الشاب له دلالته البعيدة المدى.

أرسل محمد بن أمية إلى المسلمين المنصرين عبر مختلف أنحاء اسبانيا، يـدعوهم إلى العودة إلى دينهم الأصلي و عدم الخضوع للنصارى، و قد لقيـت دعوتـه إسـتجابة واسعة، حيث ظل عدد الثوار في تزايد مستمر، إلى أن وصل في فيفري 1569 إلى 150 ألف مجاهد، منهم 50 ألف مؤطرين من طرف عسكريين جزائريين[593].

أما علج علي فقد استمر في تدعيم الثوار الأندلسيين، ففي جانفي 1569 أرسل ست سفن محملة بالأسلحة و البارود و المتطوعين الجزائريين، و قد تمكنت من إنزال حمولتها بمدينة المرية، و في نفس الوقت أرسل 32 سفينة محملة بالرجال لكنها تعرضت لعاصفة هوجاء أدت إلى إغراقها[594]، و بالتالي حرم المجاهدون الأندلسيون من هـذه المـساعدة الثمينة، و مع ذلك لم يتأثر علج علي بما حل بأسطوله، و أصرّ على إرسال مـدد جديـد لمسلمي الأندلس، ففي أكتوبر 1569 أرسل بأربعة آلاف بندقية بكامل ذخيرتها مع بعض مئات من قدماء الجنود الجزائريين لكي يتولوا تأطير المجاهدين الأندلسيين، و قد تجددت هذه المساعدات في السنة الموالية[595].

و حسب بعض المصادر فإن علج علي قد فكر في الذهاب إلى الأندلس لكي يتولى قيادة الثورة بنفسه، لكنه إظطر إلى تأجيل هذه العملية لـدى سـماعه بـأن دون جـوان النمساوي (Don Juan d'Autriche) بصدد تجميع قوات كبيـرة لخـوض معركة حاسمة ضد المسلمين، و بعد تلقيه لأمر من السلطان العثماني بالاستعداد للمشاركة في هذه الحملة العظمى، اضطر علج علي للبقاء في الجزائر مترقبا للأحداث[596].

و بهدف إضعاف القوات الإسبانية و تشتيتها، قام علج علي في شهر أكتوبر 1569 بالهجوم على تونس لتحريرها من سلطة حاكمها حميدة بن مولاي حسن، العميل للإسبان،

---

(592) - ليلى الصباغ، ثورة مسلمي...، المرجع السابق، ص. 150.

(593) - AUPHAN P., op . cit.,P. 181.

(594) - DE GRAMMONT, op .cit ., P. 105.

(595) - HAEDO, op. cit., P. 149.

(596) - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 394.

و من جهته قام السلطان العثماني بالهجوم على قبرص في جويلية 1570، في الوقت الذي كانت فيه ثورة الأندلس ما تزال مستمرة، و قد وعد المجاهدين الأندلسيين بأنه سيوجه أسطوله لنجدتهم بمجرد استيلائه على قبرص[597].

لقد أدركت إسبانيا الخطر الذي يهددها من طرف المجاهدين الأندلسيين بفضل الدعم الذي يتلقونه من الجزائر، فضلا عن إمكانية تدخل الأسطول العثماني[598]، لذلك ركزت جهودها على تصفية الثورة في غرناطة في أسرع وقت ممكن.

و لأجل ذلك أوكل الملك فيليب الثاني مهمة قمع الثورة لأخيه (غير الشرعي) دون جوان، و وضع تحت تصرفه جميع الوسائل اللازمة، و انتقل بنفسه إلى قرطبة في ديسمبر 1569، لكي يكون اقرب إلى الأحداث[599]، و كان أول اشتباك لقوات دون جوان مع الثوار المسلمين في مدينة غليرا (Galira)، و هي أهم حصون المسلمين، و قد دارت بين الطرفين مواجهات عنيفة، كما إستمر لهيب الثورة في البشرات، لذلك اضطر دون جوان إلى التفاوض مع قائد الثوار، الحبقي، حيث اتفق الطرفان على وقف القتال مقابل الوعد بالعفو التام عن جميع المسلمين الثائرين، مع السماح للمتطوعين المغاربة بالعودة إلى ديارهم دون إزعاج، لكن سرعان ما إشتعلت الثورة من جديد، و هنا لجأت الحكومة الإسبانية إلى اتخاذ القرار بنفي المسلمين من غرناطة و تشتيتهم في مختلف أنحاء إسبانيا، و كان ذلك في 28 أكتوبر 1570[600]، و قد تم تحديد يوم أول نوفمبر كموعد لتجميع المسلمين ثم ترحيلهم[601]، و قد تم تنفيذ هذا القرار بكل وحشية و بربرية.

و في الأخير يمكن القول بأن ثورة مسلمي غرناطة قد شكلت خطرا حقيقيا على إسبانيا، حيث أدت إلى تجميد قواتها البحرية، بل أنها نقلت الخطر الإسلامي إلى الديار الإسبانية نفسها، أما الجزائر فقد أدت دورها كاملا في مناصرة مسلمي الأندلس، سواء

---

[597] - عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية و قضية...، المرجع السابق، ص. 198.

[598] - فقد راجت الشائعات بأن شخصية هامة من الباب العالي قد وصلت إلى الجزائر ليسعى إلى إحضار المؤونة و الذخيرة و تمويل الأسطول التركي الذي سيقدم في الربيع المقبل لنجدة الموريسكيين، انظر المرجع نفسه.

[599] - ليلى الصباغ،ثورة مسلمي...، المرجع السابق، ص. 157.

[600] - ليلى الصباغ،ثورة مسلمي...، المرجع السابق، ص. 157.

[601] - BRAUDEL , La Méditerranée ..., op . cit., P. 126 .

على المستوى الرسمي، أو على المستوى الشعبي، لكن ثورة غرناطة كانت بحاجة إلى مساعدات أقوى، تفوق إمكانات الجزائر، فاستعادة الأندلس عمل يتطلب مجهودات أكثر من طرف، و هذا ما لم يتحقق، ليضيع بذلك أمل إعادة فتح الأندلس إلى الأبد. أما إسبانيا فبعد خنقها لثورة مسلمي غرناطة تفرغت لاستئناف صراعها ضد المسلمين، ولكن هذه المرة بالحوض الشرقي للبحر المتوسط، بعيدا عن الأراضي الإسبانية، حيث ستكون المواجهة المقبلة في ليبانت.

4- دور البحرية الجزائرية في معركة ليبانت 1571:

إن الهلع الذي أحدثته ثورة مسلمي غرناطة، و الدعم الذي لقيته من طرف الجزائريين خاصة، جعل إسبانيا تخشى تدخل الأسطول العثماني المتحالف مع الأسطول الجزائري لدعم هذه الثورة، الشيء الذي جعل إسبانيا خاصة والعالم المسيحي عامة يخشى شبح إعادة فتح الأندلس، وهذا ما أدى إلى إشعال لهيب النزعة الصليبية الأوربية من جديد في مواجهة الخطر الإسلامي المتعاظم. لذا كان من المنطقي أن يعرف الصراع الإسلامي- المسيحي فصولا جديدة أشد عنفا. وهذا ما حدث فعلا في معركة ليبانت، التي جرت يوم 07 أكتوبر 1571، والتي تعد أعظم المعارك البحرية في تاريخ البحر الأبيض المتوسط الحديث.

فرغم وفاة السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 1566، إلا أن الزحف العثماني لم يتوقف، سواء في أوربا أو في البحر المتوسط، حيث كان أكثر صمودا في وجه القوى المسيحية[602]، فقد حاول السلطان سليم الثاني أن يباهي أباه بتحقيق إنتصار عسكري ساحق يشبه ما حققه والده أثناء طرده للفرسان من رودس سنة 1522 كما مر معنا، وقد اختار قبرص، القاعدة التجارية الهامة، والتي كانت حينها تابعة للبندقية[603] هدفا لذلك.

لقد كانت البندقية هي الجمهورية الإيطالية الوحيدة التي لم تكن خاضعة للإسبان، وحفاظا على مصالحها التجارية كانت تفضل سياسة الحياد تجاه الصراع بين الدول

---

[602] - BELHAMISSI . Histoire de la marine …, op . cit ., P. 138.

[603] - كانت للبندقية مصالح تجارية هامة مع الدولة العثمانية، حيث كانت تقوم بدور الوسيط بين الشرق و الغرب، و كانت تدفع مقابل ذلك للعثمانيين ضريبة سنوية قدرها 230 ألف دوكة.

الأوربية والدولة العثمانية، غير أن هذه الأخيرة قد تضايقت من غارات قراصنة قبـرص ضد المصالح العثمانية، خاصة في شرق البحر الأبيض المتوسط، حيث كانوا يعترضـون التجارة العثمانية و الحجاج المسلمين، كما أن السلطان سليم الثاني كان يرى أن جزيـرة قبرص ملك للدولة العثمانية على أساس أنها كانت في الماضي تابعة لمـصر[604]، لـذلك قرر الاستيلاء عليها.

و في منتصف شهر مارس 1570 أرسل السلطان العثماني مبعوثا إلـى البندقيـة يطلب منها تقديم ترضية لهذه الانتهاكات، و كحل لذلك طلب منها أن تسلمه قبرص مقابل السلم بين البلدين، غير أن مجلس شيوخ البندقية رفض ذلك[605]، عندئذ قـرّر الـسلطان افتكاك جزيرة قبرص بالقوة ، حيث جهز أسطولا يحمل مائة ألف جندي تحت قيادة بيالي باشا، أرسى الأسطول العثماني أمام مدينة ليمازول (Limasol) في أوت 1570، و فـي يوم 09 سبتمبر من نفس السنة تمّ فتح المدينة، ثم ضُرب الحصار على مدينة فماجوسـت (Famagusta)، و نظرا لاقتراب فصل الشتاء تأجل فتحها إلى أوائل الربيع من سـنة 1571 ، و بعد حصار دام عدّة أشهر سقطت المدينة في يـد العثمـانيين يـوم 02 أوت 1571[606]، و بذلك تم فتح جزيرة قبرص.

و لما أدركت البندقية أن لا طاقة لها بمواجهة العثمانيين، لجأت إلى طلب المساعدة من الدول المسيحية، و قد وجدت في البابا بيوس الخامس[607] الشخصية البارزة للقيـام بدور الموحد الروحي للمسيحيين، فقد لعب البابا دورا بارزا في توحيد صفوف المسيحيين لمساندة البندقية، حيث ظل يؤكد بأن للمسيحية عدوان اثنان، أولهما المروق عن الدين، و ثانيهما خطر العثمانيين المسلمين[608]، و رغم تنافر علاقات الدول الأوربية فيما بينها، و خاصة بين إسبانيا و فرنسا و البندقية، إلا أن البابا قد تمكن خلال عدة أسابيع من توحيـد كلمة المسيحيين بشأن القيام بعمل أوربي مشترك في مواجهة الخطر العثماني، و هذا مـا

---

(604) - GALIBERT, op . cit., P. 209.

(605) - جون ب. وواف، المرجع السابق، ص. 85.

(606) - محمد فريد بك، المرجع السابق، ص ص. 255 – 256 .

(607) - إسمه الأصلي أنطونيو غيسليري (Antonio Ghislieri) ولد في بيدمونت بايطاليا سنة 1504، عُـين أسـقفا سنة 1556، و في سنة 1566 تولى منصب البابوية إلى أن توفي سنة 1572.

(608) - عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية ...، المرجع السابق، ص. 97.

أسفر عن توقيع « الحلف المقدس » في 25 ماي 1570[609]، الذي ضـم الاسـبان، الألمان، الإيطاليين، البابوية، و حتى بريطانيا التي كان البابا قد طرد (excommuniée) ملكتها من الكنيسة في العام الماضي[610]، و قد عُين دون جوان قائدا عاما لقوات التحالف الصليبي.

كانت القيادة العثمانية على علم بتحركات الأوربيين، لذلك عمـل الـسلطان علـى تعزيز قواته لمواجهة الحلفاء، حيث أرسل إلى حكام الأقـاليم يـدعوهم إلـى الاسـتعداد للمشاركة إلى جانب الأسطول العثماني في المواجهة المرتقبة، و نظرا للدور البارز الذي صارت تلعبه البحرية الجزائرية المتضامنة مع السلطان في كل المواجهات الإسـلامية – المسيحية، فقد وجه السلطان رسالة إلى بايلرباي الجزائر، مؤرخة في 02 ذو القعدة 978 هـ، يدعوه فيها إلى تجهيز سفنه و الالتحاق بالأسطول العثماني، جاء فيها:« فقد تقرر في هذه السنة الخيرة غزو الكفار من البر و البحر و الإغارة و إلحـاق الخـسارة بجـزره المعادية و أسطوله – هزمه ا – و كذلك بقصد دفع مضرته وفساده... و نظـرا لإعتمادي الهمايوني على فراستك، و كياستك ووفور شجاعتك وشهامتك، فإنني آمـرك و من معك من السفن و القاليتات بكامل أسلحتها بالتوجه عاجلا لملاقاة المشار إليه الوزير برتو باشا »[611]. سارع علج علي إلى تلبية النداء حيث غادر الجزائر في ربيـع سنة 1571، على رأس حوالي خمسين سفينة قصد الالتحاق بالأسـطول العثمـاني فـي كورون (Coron)، و أثناء الطريق قام بغزو عدة مواقع مـسيحية بـالجزر الأيونيـة و الساحل الأدرياتيكي[612]. كان الأسطول المسيحي قد تجمع في مسينا، و كان يتكون مـن ثلاثمائة سفينة على متنها ثمانين ألف رجل[613]، و في 16 سبتمبر 1571 غادر مـضيق مسينا متوجها إلى كورفو لمراقبة تحركات الأسطول الإسلامي [614]، و في 26 سـبتمبر وصل دون جوان إلى كورفو، و في 05 أكتوبر وصل الأسطول المسيحي إلـى سـواحل

---

(609) - GARROT,op. cit., P. 433.

(610) - سي يوسف، المرجع السابق، ص. 115.

(611) - سي يوسف، المرجع السابق، ص.ص. 115 – 116.

(612) - DE GRAMMONT, op. cit ., P. 108.

(613) - GARROT, op . cit ., P. 433.

(614) - BRAUDEL , La Méditerranée …, op . cit ., P. 394 .

سيفالوني، و هي الجزيرة الواقعة على مقربة من خليج ليبانت[615]، و كان موزعا علـى النحو التالي: دون جوان يقود قلب الأسطول، يساعده كل من القائدين فينيري (Venieri)، و كولونا (Colonne)، و بيار جستنياني (Pierre - Justiniani) قائد السفن المالطيـة، أما البنادقة فكانوا يشكلون الميسرة و على رأسهم أوغستينو باربريغو (Barbérigo) أما الميمنة فكان يقودها جون أندري دوريا[616].

و في هذه الأثناء كان الأسطول الإسلامي المتكون من نحو 250 سفينة على متنها مائة ألف شخص[617]، جاؤوا من كل من الجزائر، استانبول، رودس، سوريا، طـرابلس و الإسكندرية[618]،

و قد تم تعيين علي باشا قائدا للأسطول[619]، وبرتو باشا قائدا للقوات البريـة، و كان هذا الأسطول موزعا على النحو التالي: علي باشا يحتل القلب، محمد شولوك، بـاي الإسكندرية يقود الميمنة، أما علج علي فكان يقود الميسرة لأهميتها الإسـتراتيجية، ومـا تتطلبه من مرونة وسرعة وخبرة بحرية، وفي الوقت الذي وصل فيه الأسطول المسيحي إلى جزيرة كورفو، كان الأسطول الإسلامي قد تجمع عند خليج ليبانت، حيث مكث بعض الوقت ينتظر الأوامر من الباب العالي[620]، وفي هذه الأثناء حدث سوء تفاهم بين أعضاء المجلس الحربي الإسلامي، الذي جمع كل من علي باشا، برتو باشا، علج علـي، جعفـر باشا،حسن باشا بن خير الدين،وعدد آخر من قادة الأسطول ، فقد حدث الخـلاف بـشأن الإختيار بين أمرين: إما الإنتظار داخل خليج ليبانت للرد على هجوم العدو، وإما المبادرة بالهجوم عليه، فالبعض وعلى رأسهم علج علي كانوا يرون بأن الأسطول الإسلامي غير مجهز تجهيزا كافيا بالمدافع والذخيرة، لذا يستحسن التريث إلى إنتهاء فصل الشتاء، ريثما تتم تقوية الأسطول، وعندها يكون جاهزا للهجوم. غيـر أن علـي باشـا خـالفهم فـي

---

(615) - سي يوسف، المرجع السابق، ص. 122.

(616) - GALIBERT, op. cit., P. 210.

(617) - MERCIER , op .cit ., P. 112.

(618) - AUPHAN P., op .cit ., P .184.

(619) - تغيير قيادة الأسطول العثماني في هذا الوقت بالذات، وتعيين علي باشا، الذي كان حديث العهد بركوب البحر، حيث أنه كان إنكشاريا له خبرة طويلة في العمليات البرية، كان من أسباب هزيمة الأسطول الإسلامي في هذه المواجهة.

(620) - سي يوسف، المرجع السابق، ص. 122.

الرأي[621]، وهنا تدخل علج علي من جديد قائلا: إذا كان لابد من الهجوم فليكن في البحر بعيدا عن الساحل، غير أن هذه النقطة كذلك صارت محل خلاف، الشيء الذي أغضب علج علي حيث صاح قائلا: « أين الذين حاربوا مع خير الدين باشا وطرغد باشا، لماذا لا يتكلمون، هل يمكن أن تكون حرب بحرية في ساحل؟» [622]. وهنا يبدو بأن قلة الخبرة لدى علي باشا، وإصراره على رأيه كانت من أسباب الكارثة التي حلت بالأسطول الإسلامي كما سنرى.

أعطى علي باشا الأوامر بخروج الأسطول الإسلامي من خليج كورانث، ولما خرجت السفن، إلتقت بالأسطول المسيحي يوم الأحد 07 أكتوبر 1571 في المكان الواقع بين ليبانت وباتراس، وهنا دارت المعركة الحاسمة بين الطرفين.

أخذ الأسطولان يتقدمان من بعضهما البعض، وكان دون جوان قد وضع سفن البندقية العظيمة الست (Galéasses)[623]، وهي سفن ضخمة تشارك لأول مرة في المعارك البحرية في مقدمة خطه المتكون من نصف دائرة كبيرة، فكان لهذه السفن دور هام في حسم نتيجة الصراع لصالح المسيحيين، يضاف إلى ذلك أن الجيش المسيحي كان أكثر تسليحا، حيث كان جل المقاتلين يملكون أسلحة نارية ولهم دروع بينما كان أغلب الجنود المسلمين لا يملكون سوى الأقواس، السهام ،الرماح والسيوف المحدبة[624]، ولا شك بأن الرجال من الجانبين قد حاربوا بكل شجاعة، غير أن تفوق المسيحيين في الجانب التقني كان من بين عوامل انتصارهم في هذه المواجهة العنيفة.

فبعد ثلاث ساعات من بداية المعركة انهزمت ميمنة الأسطول الإسلامي، حيث قتل قائدها محمد شولوك، كما قتل علي باشا، القائد العام للأسطول الإسلامي، لتتحول المعركة إلى مجابهة سفينة ضد سفينة، ثم إلتحم الجنود و صار القتال رجل لرجل[625].

---

[621] - المرجع نفسه، ص. 124.

[622] - أوزتونا، المرجع السابق، ص. 374.

[623] - الڤالياس (Galéases) : هي سفن ضخمة أعلى من سفن ڤالير (Galères)، طولها 70 متر، و عرضها 18 متر ، كان لها طابقان أحدهما للمجاذيف و الآخر للرماة ، لها مدفعية قوية جدا بـ 180 فتحة إطلاق في المقدمة و على جانبي السفينة ، فكانت قوة ضاربة بإمكانها اختراق أسطول العدو محدثة خسائر فادحة ، أنظر :
BELHAMISSI , Histoire de la marine …, op . cit ., P. 139.

[624] - جون ب. وولف، المرجع السابق، ص. 89 .

[625] - AUPHAN P., op . cit ., P. 185.

و بينما كانت المواجهات على الجبهتين السابقتين تجري في غير صالح المسلمين، كان علج علي باشا قائد الميسرة يحقق انتصارات هامة على قوات الخصم، فقد استغل خطأ دوريا قائد ميمنة الأسطول المسيحي، بابتعاده عن بقية الأسطول، و شن هجوما عنيفا على قوات العدو، فتمكن من الاستيلاء على عشرة سفن، كانت واحدة منها تحمل قيادة قوات مالطة[626]، فاستولى علج علي على رايتها، و لما حاول جون دي كوردونا (Jean de Cordona) نجدة تلك السفينة تمكن علج علي من هزمه و القضاء على معظم قواته البالغ عددها خمسمائة جندي، و لم ينج منهم سوى حوالي خمسين جنديا[627].

بعد هذا الانتصار الذي حققه، توجه علج علي إلى قلب المعركة، لكن في حذر و يقظة خشية وقوعه في الحصار، و لما لاحظ تقهقر ميمنة و قلب الأسطول الإسلامي، و مقتل علي باشا، تولى قيادة الأسطول بنفسه[628]، و رغم محاولة سفن العدو تجميع صفوفها و محاصرته، تمكن علج علي من التخاص منها حيث أسرع إلى الإفلات وسط الأسطول المسيحي بين الميمنة و بقية الأسطول الذي كان بعيدا عنها.و بذلك تمكن من الانسحاب بأسطوله و العودة به سالما إلى استانبول دون خسائر تذكر، خلافا لبقية الأسطول العثماني الذي أحرق، أغرق، أو تمّ الاستيلاء على معظمه[629]، و بهذا كان الأسطول الجزائري هو الوحيد الذي نجا من هذه الكارثة التي حلت بالأسطول الإسلامي، كما كان علج علي، الوحيد من القادة المسلمين الذي تمكن من البروز كقائد عسكري يملك كفاءة عالية.

بعد انسحابه من المعركة توجه علج علي إلى ناحية قناة سان مورة، حيث اخذ يشرف على جمع بقايا الأسطول الإسلامي و ترميم ما تعطب منه، ثم عاد به إلى استانبول حيث استقبله الشعب و رجال الحكم استقبال المنتصرين، كما حظي باستقبال السلطان سليم الثاني شخصيا، حيث عينه هذا الأخير في منصب قابودان باشا[630]، مع

---

(626) - GALIBERT, op . cit ., P. 210.

(627) - سي يوسف، المرجع السابق، ص. 126 .

(628) - DE GRAMMONT, op . cit ., P. 108.

(629) - إستولت القوات المسيحية على 130 سفينة عثمانية، و احرقت و اغرقت 94 سفينة أخرى، و غنمت 300 مدفعا، و 30 ألف أسير، أنظر: محمد فريد بك، امرجع السابق، ص. 257.

(630) - GALIBERT , op . cit., P. 211.

احتفاظه بمنصب بايلرباي الجزائر[631]، و كلفه بإعادة بناء الأسطول العثمـاني و خولـه صلاحيات واسعة لتحقيق ذلك. و منذ ذلك التاريخ استبدلت كلمـة « علـج » بكلمـة «قليج» أي السيف، فصار يعرف باسم قليج علي.

(631) - MERCIER, op. cit ., P. 113.

استنتاج جزئي:

- أن انتصار الجزائر على التحالف الأوربي عام 1541 قد كان نقطة تحول بارزة في تاريخ الدولة الجزائرية، فقد أدى إلى تثبيت أركان النظام الجزائري و امتداد سلطته لتشمل كامل الرقعة الجزائرية المعروفة بحدودها الحالية .

- أن انتصار الجزائر عام 1541 كان إيذانا بظهور الدولة الجزائرية كقوة دولية مؤثرة في أحداث البحر الأبيض المتوسط.

- أن فشل التحالف الأوربي أمام الجزائر سنة 1541، كان فاتحة صراع طويل بين القوى الإسلامية بزعامة الخلافة العثمانية، و القوى المسيحية الأوربية بزعامة إسبانيا، بهدف السيطرة على البحر المتوسط، و إذا لم تكن الجزائر هي النقطة المركزية في هذا الصراع، فإن البحارة الجزائريين الذين تكوّنوا على يد خير الدين قد لعبوا دورا بارزا فيه.

- أن البحرية الجزائرية قد صارت منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر عاملاً هاما و مؤثرا في لعبة التوازنات الدولية بمنطقة البحر الأبيض المتوسط، و هذا من خلال الدور الذي صارت تلعبه في مختلف المواجهات الإسلامية – المسيحية بالمنطقة.

- أن بروز الجزائر كقوة إسلامية في شمال إفريقيا قد أدى إلى تحطيم المشروع الاستعماري الإسباني في العدوة المغاربية، بل ساهم في إضعاف القوة الإسبانية متوسطيا.

استنتاج عام

إستنتاج عام

بعد العرض والتحليل لعناصر البحث، توصلت إلى عدة نتائج، يمكن حصرها في النقاط التالية :

- أن التطورات السياسية التي عرفتها منطقة البحر الأبيض المتوسط منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر، قد أدت إلى بروز قوتين كبيرتين، هما الدولة العثمانية المسلمة، والدولة الإسبانية المسيحية، وكل منهما تسعى لتوسيع نفوذها بالمنطقة، وهذا ما أدى إلى بروز صراع بينهما استمر طيلة القرن السادس عشر.

- أن الصراع بين القوتين السابقتين قد انتقل مع مطلع القرن السادس عشر من الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، إلى الحوض الغربي له، فبعد سقوط غرناطة عام 1492م، لم يعد مضيق جبل طارق كافيا كحدود طبيعية بين دولة مسيحية فتية قوية في الشمال، ودول مسلمة ضعيفة مشتتة في الجنوب، فهذا الإختلال في توازن القوى بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، هو الذي جعل إسبانيا تسعى لتوسيع حدودها إلى ما وراء البحر، ضمن مشروع استعماري كان يهدف إلى احتلال المغرب الإسلامي بكامله.

- أن حالة الضعف و الإنقسام التي آلت إليها منطقة المغرب الإسلامي، قد شجعت الإسبان على المضي في سياستهم التوسعية، خاصة بعد نجاحهم في احتلال بعض المراكز الساحلية الهامة مثل المرسى الكبير، وهران، بجاية، و طرابلس.غير أن ظهور الإخوة بربروس في المنطقة، في هذا الظرف بالذات، أحدث أول صدمة للمشروع الإستعماري الإسباني في العدوة المغاربية.

- أن تصدي الإخوة بربروس للإعتداءات الإسبانية على السواحل الجزائرية خاصة، قد عزز مكانتهم لدى إخوانهم المسلمين بالجزائر، وهذا ما ساعد على إرساء أسس الدولة الجزائرية الأولى.

- أن لجوء الجزائريين إلى التحالف مع الخلافة العثمانية، كان خيارا استراتيجيا بكل الأبعاد، إذ شكل منعطفا حاسما في تاريخ البحر الأبيض المتوسط، فقد نتج عنه ظهور

الدولة الجزائرية الأولى (P.E.A.)، وبحكم تحالفها مع الخلافة العثمانية، فقد أدى ذلك إلى انتقال جبهة الصراع بين القوتين العثمانية و الإسبانية، إلـى الحـوض الغربـي للبحـر المتوسط، حيث استمرت المواجهات بينهما طيلة القرن السادس عشر تقريبا.

- أن تحرير الجزائريين لقلعة البنيون سنة 1529، كان إيذانا ببروز الجزائر كقوة إسلامية فتية في شمال إفريقيا، وهذا ما جعل الإمبراطورية الإسبانية، ومن ورائها الأمـم المسيحية الأوربية تدرك خطورة ذلك على مستقبل الصراع الإسلامي المسيحي بمنطقـة البحر المتوسط، وهنا فمشاركة مختلف القوى الأوربية في التحالف الذي قـاده شـارلكان سنة 1541 م، والذي كان يهدف إلى تحطيم الدولة الجزائرية خير دليل على ذلك .

ـ أن التحالف الأوربي ضد الجزائر عام 1541 م، كانت تحركه دوافع اقتصادية ، دينية واستراتيجية، لها علاقة متينة بتطور الأوضاع الدولية بمنطقة البحـر المتوسـط ، وخاصة على صعيد المواجهة بين الجبهة المسيحية الأوروبية بزعامة إسبانيا ، والجبهـة الإسلامية بزعامة الخلافة العثمانية.

- أن المؤرخين الغربيين لم يتخذوا موقفا نزيها وموضوعيا بـشأن حقيقـة هـذا التحالف، إذ عمدوا إلى التقليل من أهميته، ويمكن تفسير موقفهم هذا بمحاولتهم التخفيـف من حدة الصدمة التي أصابت أوربا إثر فشل هذا التحالف من جهة، و تقـزيم بطـولات الشعب الجزائري وانتصاراته على القوى الأوربية من جهة أخرى.

- أن تشكيك الأوربيين في ولاء خير الدين للسلطان العثماني ، واتهامهم لحسن آغا بالخيانة، هي مجرد إدعاءات لا ترتكز على أي دليل، إنما هي محاولات تهدف إلى تشويه سمعة رموز المقاومة الجزائرية.

- لقد تباينت آراء المؤرخين الغربيين بشان أسباب هزيمة التحالف الأوربي أمـام الجزائر سنة 1541 م، لكنها تكاد تجمع بأن الأحوال الجوية هي السبب الرئيسي في النكبة التي حلت بالأسطول الأوربي، لكن في اعتقادنا أن الأحوال الجوية كانت عاملا مـساعدا على انتصار الجزائريين، ولكنها لم تكن عاملا رئيسيا في ذلك، فالحملة في هـذه المـرة كانت برية والإنزال تم فعلا، ثم بما نفسر تجاهل المؤرخين الغربيين للحديث عن استماتة

الشعب الجزائري في الدفاع عن مدينته، والكفاءة العالية التي أظهرتها قيادة المقاومة الجزائرية، في حين أسهب هؤلاء المؤرخون في الحديث عن الشجاعة التي أظهرها فرسان مالطة في هذه المواجهة ؟.

- أن انتصار الجزائر على التحالف الأوربي سنة 1541، شكل منعطفا حاسما في تاريخ الدولة الجزائرية الحديثة، فقد كان عاملا هاما في تثبيت أركان هذه الدولة وتوسيع سلطتها لتشمل مختلف أرجاء البلاد الجزائرية، وهذا ما مكنها من تصفية الوجود الإسباني بأرض الجزائر، حيث تم ضم تلمسان للسلطة المركزية، وتحرير بجاية، وبالتالي لم يبق للإسبان سوى مدينة وهران، التي تأخر افتكاكها إلى غاية أواخر القرن الثامن عشر.

- أن انتصار الجزائر سنة 1541، كان حدثا هاما على الصعيد الدولي ، حيث كان هذا النصر إيذانا ببروز الدولة الجزائرية، كقوة دولية مؤثرة في أحداث البحر الأبيض المتوسط على مدى ثلاثة قرون.

- أن انتصار الجزائر سنة 1541، قد جعل منها قوة إسلامية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وبحكم تضامنها مع المسلمين، وسعيها لتحقيق وحدة إسلامية في وجه الإعتداءات الصليبية، فقد لعبت دورا هاما في تحطيم المشروع الإستعماري الإسباني في العدوة المغاربية، كما لعبت دورا متميزا في مختلف المواجهات الإسلامية-المسيحية بمنطقة البحر الأبيض المتوسط، من خلال المشاركة الفعالة للبحرية الجزائرية إلى جانب العثمانيين، مثلما حدث في حرب مالطة 1565، ومعركة ليبانت 1571، فضلا عن الدعم الذي قدمته الجزائر لثورة مسلمي غرناطة 1568.

- أن مدرسة خير الدين قد كونت رجالا تركوا بصماتهم في تاريخ البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر، أمثال حسن آغا، درغوث رايس، حسن باشا بن خير الدين ، صالح رايس، و أملنا أن تحظى هذه الشخصيات باهتمام الباحثين المنصفين.

الملاحق

الملحق رقم :01

التسليم
افضل الصلوة وازكى

بسم الله الرحمن الرحيم والصلوة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى اله وصحبه
يقبل مواطي الاقدام الشريفة اللتي ثراها اذا اثر بالعيون الرمد ابراها ورحاب الاكف الكريمة اللتي
عطاها اذا امر بالارض المحيلة اثراها اقوام شانها السعي في الخيرات والقربات واحق شانها
فعل الخيرات والمكرمات ادام الله ايامها ونصر اعلامها واوطا ركابها اعناق الملحدين
والمتمردين وانعشه في كل وقت بنصر وفتح مبين نسل الله تعالى ان يجعله رحابا
لم يزل ممتطيا مطايا السعد محفوفا بالسعود قطبا للسيادة السلطانية عليه تدور وبه
تسود وان يجعله دايما باقيا راقيا في درجات العز والملك الى اخر الدهر مصونا في حرز الله الحصين
وان يحف قلبه السعادة بطول بقايه وما ذلك على الله بعزيز رحاب حضرة الجود ورواق العز الممدود
ومعدن الرافة والحنان وما من الخايف اللهفان وسطوة ان الله يامر بالعدل والاحسان حضرة
فخر ملوك البسيطة ودرة تلك السلوك الوسيطة كبير سلاطين الزمان منيل اقاصي
الاماني والامان ملاذ الاعظم والثمال الاعصم ذي العروة اللتي لا تفصم والحجة اللتي لا تخصم الذي
يعترف له القاصي والداني بالفضل على الاطلاق ويبوءه رتبة الاصالة والجلالة بالاستحقاق ولم لا
وهو نسيم الخلافة العلية في منصب الوراثة وحايز الفضيلة السنية من حرمة المساجد الثلاثة
وله ملك مصر واقطارها والشام وديارها والحجاز وشرف مقدارها والحضرة مجتمع الرفاق
من الافاق والمناخ الاجسام بالرحلة والافيدة بالاشواق وعلى جميع تلك الحضرة العليا بمحاسن
الدين والدنيا انعقد الاجماع والاصفاق مولانا السلطان الملك الاشرف الافخم الافخر الارفع
الاعرف الاعلم الاحلم الارحم الاروف الاجود الاكرم الاسمح الاعطف قامع الملحدين وقاطع
دابر الطغاة والبغاة والمردة والمفسدين ممهد طريق الحج والعمرة والزيارة الفايز بشرف الدين
والدنيا من الجهاد في سبيل الله والسقاية في المسجد الحرام والعمارة مطهر البسيطة من درن فسادها
ومظهر ايات الرافة والرحمة في بلادها سلطان الاسلام والمسلمين عز الدنيا والدين
وظل الله على الخليقة اجمعين السلطان بن السلطان بن السلطان السلطان سليمان
بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله
وضاعف لديه مواهب اكرامه وافضاله وادام نجم سعده المنير باهر الاشراق وجعل سهم
ضده الحقير لازم الاخفاق وحفظ بشهب اوليايه مجده من مردة النفاق جميع الاقطار والافاق
فهو الامام الهمام والاسد الباسل الضرغام الذي مهد الله تعالى بدولته البلاد وامن
بحركة ايالته في مسالكها وممالكها العباد ومزق به ثوب الفساد وقطع بسيفه
وسنانه وبادرتي قلمه الاعلى ولسانه دابر اهل العناد فسعد الاسلام بدولته
واعتز دين الله العزيز في مدته وخمدت نيران البغي بسعادته واستتب الاماني وشمل الامان
بحسن سياسته نسل الله تعالى ان يصل لسيدنا ومولانا عادة نصره وتمكينه ويريه قرة
العين في دنياه ودينه وبعـــــــد فان عبيدك الفقرا الغربا المساكين المنقطعين
بجزيرة الاندلس وجملة عدتهم ثلاثة الف واربعة وستون الف منهم من رسا بهم بغرناطة وغيرها
خمسون والباقي من عامة المسلمين رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين
بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما اصابهم من اعداء الدين وطغاة المشركين وما هم فيه من
مكابدة الكفار ومقاساة التضييق والاضرار وجور اهل الشرك اناء الليل واطراف
النهار وتفريقهم ابانا ما تناوقد تكالبت العدو علينا ومديد السوء والضرر الينا واحاطت
بنا الاعداء من كل جانب ورمونا عن قوس واحد بسهم صايب وطالت بنا الايام
وعاثت فينا يد النكاية والايلام وخذلنا جيراننا واخواننا ببلاد المغرب من اهل
الايمان وقد كان لجوارنا الوزير المكرم المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين
وسيف الله على الكافرين علم بما هو لنا وما نحن من عظيم اهوال النكال بالجزاير
واجتمعت اهل الاسلام على طاعة مولانا ومحبته بالخواطر والضماير واتنظم العدل
والشرع والامان في البادي والحاضر فاستغثنا به فاغاثنا وكان سببا في خلاص كثير
من المسلمين من ايدي الكفرة المتمردين ونقلهم الى ارض الاسلام وتحت ايالة طاعة مولانا
السلطان ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان فلما سمع الكافر اللعين بذلك
ولم يقدر على منعنا بالسياسة والاهانة والحرق بالنيران علم انا اخترنا المهيبة في الا
موال والابدان واثر نادبنا على ساير الاديان فلما صدقت الضماير وبلغت القلوب الحناجر

رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541.
المرجع : عبد الجليل التميمي، م.ت.م.، العدد 03، جانفي 1975.

الملحق رقم :02

LETTRE ECRITE A SA MAJESTE SUR LA NECESSITE DE FORMER UNE ARMEE NAVALE POUR ATTAQUER BARBEROUSSE .

AVILA , 26 JUILLET 1531 .

«Par le rapport ci-joint du conseil de la guerre , Votre Majesté apprendra qu'il est venu ici un arabe , envoyé par les cheikhs voisins d'Alger , lesquelles demandent que Votre Majesté veuille bien ordonner a son armada de prendre possession de cette place. Ces chikhs ont tué a Barberousse un grand nombre de turcs, lui ont enlève quelques pièces d'artillerie et l'ont placé dans une fâcheuse position ; ils sont résolus a seconder Votre Majesté , et ils pensent que l'occasion est très -favorable pour chasser d'Alger ce corsaire .comme l'été est trop avancé et que la dite armada ne pourrait être prête cette année , Votre Majesté verra également la réponse qui a été faite a cette arabe , en vue d'entretenir les cheikhs dans leur bonnes dispositions.

En conséquences , et vu la nécessite d'équiper la flotte pour le printemps prochain , ainsi que l'occasion favorable qui se présente de se rendre maître d'Alger, par suite de la défaite des renforts que le Grand- Turcs envoyait à Barberousse et de sa situation critique , le très -révérend Archevêque de Tolède , désireux de servir Dieu et votre Majesté et de voir mener a bon fin une entreprise aussi importante pour le bien et la conservation de ces royaumes , m'a offert de donner , c'est Votre Majesté veut bien faire disposer l'armada pour l'époque indiquée ou pour l'été prochaine , 50,000 fanègues de bles et 12,000 ducats en argent pour les autres vivres nécessaires a la troupe, que l'on embarquera, et comme le secours offert et la service rendu par le dit archevêque sont considérables , il parait juste que votre Majesté en tienne compte ainsi que de raison , et l'en remercie.

Il importe aussi que votre majesté veuille bien ordonner qu'il soit pourvu à tout ce qui peut être utile à la dite armée navale. Votre majesté a déjà par écrit la note des troupes , des objets divers et de l'argent que nécessitera la flotte . cette note a été approuvée par André Doria , quand il vint ici , et je m'abstiens d'insister à se sujet ; mais il est urgent de s'occuper de tous ces détails sans perdre de temps , autrement l'armée ne sera pas prête au moment opportun .

Il semble non moins indispensable qu'une bonne partie des troupes aguerries , qui , se trouvent en Italie, soient embarquées sur les galères d'André Doria ou sur d'autres navires pour être réunies aux forces qui seront rassemblées ici . Il conviendra également que votre Majesté fasse venir de Flandres un bon détachement d'artillerie et des approvisionnements en poudre et en boules , parce qu'il n'y a pas en Espagne d'aussi bons établissement pour les fabriquer. Enfin, il est à propos que votre Majesté n'oublie pas , ainsi que je l'en ai déjà prévenue , que beaucoup des pièces qui ont été amenés ici la dernière fois ont éclaté , et qu'il y a lieu d'aviser à ce que celles que l'on voudra fabriquer soient fondues dans les conditions convenables .

Quand an choix du capitaine- général charger de commander la flotte , le très - révérend Archevêque de Tolède offre , si votre majesté y cencent , de partir lui -même ; si pour de certaines considérations , Votre Majesté croit devoir designer une autre personne , il en sera bien aise ; mais il insiste pour qu'on entreprenne une expédition d'une si haute importance »[632].

---

(632) – ELIE DE LA PRIMAUDAIE, Documents…, R.A.,Tome 19,1875,PP.181-183.

الملحق رقم: 03

موت شارلكان، غما وهما

« لم تقم للإمبراطور الكبير شارلكان قائمة، تقريبا بعد إنكساره الشنيع وخيبة آماله، أمام مدينة الجزائر سنة 1541.

فبعد حرب دامت أربعين عاما مع فرنسا، تخللتها بعض فترات السلام ، إضطر الإمبراطور لعقد هدنة ، بوسيل سنة 1555.

وبعد أن حارب حركة الإصلاح الديني، البروتستانتية ، دون رحمة ولا هوادة ، بصفته حامي حمى الكاثوليكية، إضطر لعقد الصلح مع البروتستانتيين في أوكسبورغ سنة 1555 أيضا. و شاهد إنهيار آماله بإفريقيا، من جراء إسترجاع الجزائريين لبجاية، وانضمام مملكة تلمسان نهائيا للوحدة الجزائرية.

فأمام هذه الخيبات المتوالية و إنهيار آماله، أعلن تنازله عن عرش الإمبراطورية وقسم البلاد نصفين، فسلم ملك ألمانيا لأخيه فرديناند، وسلم ملك إسبانيا وبلجيكا و هولاندا، وإيطاليا، وممتلكات أميركا، لإبنه فيليب ثم اعتكف سنة 1556 بدير يوست، حيث قضى سنتين في العبادة و النسك، ومات سنة 1558، عندما كان الجيش الإسباني يصاب بنكبة من أعظم نكباته الإفريقية، فيما بين مستغانم و مازغران، وقد كان يعاني تلك الساعة سكرات الموت، فكتموا عنه أنباء الكارثة ...» .[633]

---

(633)- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 377.

الملحق رقم:04

جدول مقارنة المعلومات المعطاة من طرف عدة مؤلفين يتعلق بالتحالف الأوربي ضد الجزائر سنة 1541.

HAMMER هامار	VILAGAI-NGNON ڤيليجينون	GRAMONT غرامونت	GHAZAOUAT غزوات	HAEDO هايدو	MEHKEM محكمة	CH . A . JULIEN جوليان	ARCHIVE SIMANCAS سيمونكاس	JULIEN DE LA GRVIERE جوليان دو لا غرافيير	SANDRE-RANG ساندر رانج
الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية	الجيوش الإسبانية والسفن البحرية
74 سفينة حربية 200 سفينة 274 سفينة صغيرة 22000 مقاتل 1000 فارس 400 فارس مالطي	65 سفينة بحرية 7.000 إسباني 6000 ألماني 6000 إيطالي 13000 آخرين 400 مالطي	451 سفينة 519 سفينة صغيرة 23900 جندي 12330 بحار	400 و 450 سفينة شراعية	500 سفينة شراعية	9000 جندي	516 سفينة شراعية 12330 بحار 24000 جندي 36330 جندي		65 سفينة حربية 451سفينة	65 سفينة حربية 451سفينة
23400 رجل	26400 رجل	36230 رجل	50000 رجل			36330 رجل		516 سغينة 24000 بحار	516 سفينة 23800 بحار
جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية
500 فارس، بعض الآلاف من العرب	800 تركي 5000مغربي	800 تركي 5000مغربي		3000 تركي خليط من الأندلس والمغاربة			2000 تركي 2600 من المقاطعات والولايات	800 تركي 5000 مغربي	

المرجع :كورين شوفالييه، المرجع السابق.

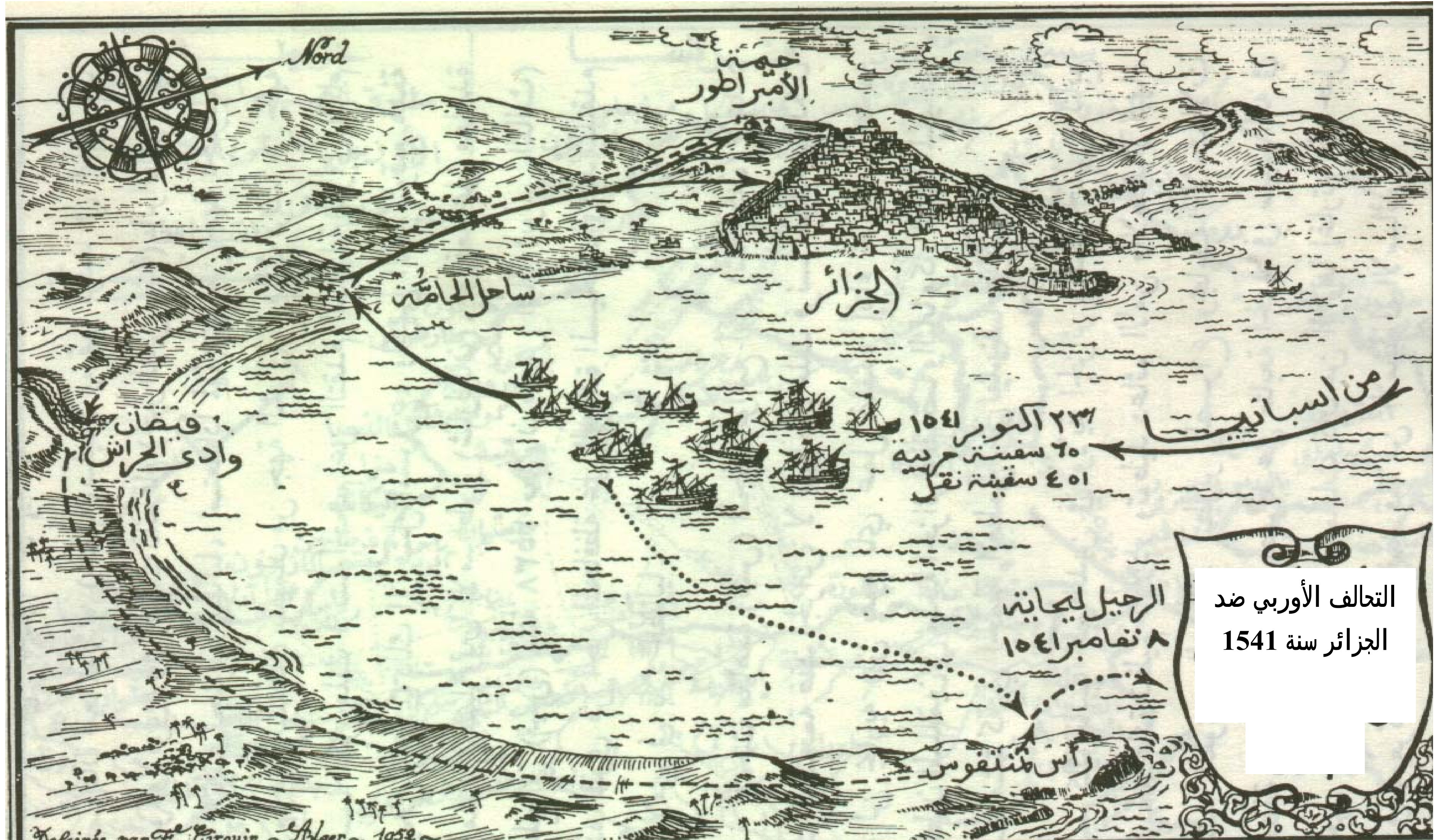
الملحق رقم:05

كرونولوجيا التحالف الأوربي ضد الجزائر عام 1541 .

27 جمادى الثاني 948 هـ	الأربعاء	19 أكتوبر 1541	حراس شواطيء الجزائر تعرفوا على الأسطول في الأفق
28 جمادى الثاني948 هـ	الخميس	20 أكتوبر1541	الوصول إلى الخليج على السابعة صباحا، إرتفاع منسوب المياه على الثالثة مساء، إحتماء السفن في خليج ماتيفو الإسبان في تمانتفوس.
29 جمادى الثاني 948 هـ	الجمعة	21 أكتوبر1541	هيجان البحر- يوم راحة.
1 رجب948 هـ	السبت	22 اكتوبر1541	غطاسون يتعرفون على الساحل.
2 رجب 948 هـ	الأحد	23 أكتوبر1541	الإنزال في بداية اليوم، نزول الإمبراطور 9 صباحا، تقسيم الجيش إلى ثلاث مجموعات ومسيرة ميل واحد ، إقامة المعسكر في الحامة، هجوم جزائري في الليل.
3 رجب 948 هـ	الاثنين	24 أكتوبر1541	السير إلى الأمام- اتخاذ المواقع حول المدينة ، القيادة في كدية الصابون ، أمطار ورياح إبتداء من 9 مساء.
4 رجب 948 هـ	الثلاثاء	25 أكتوبر1541	خروج الجزائريين- معركة راس تافورة ، اشتداد العاصفة- فقدان السفن والعتاد
5 رجب 948 هـ	الأربعاء	26 أكتوبر1541	استمرار العاصفة ، اتخاذ قرار الإنسحاب وبدايته، قتل الخيول لتوفير الغذاء، التراجع على طول الساحل البحري حتى واد كنيس الينابيع
6 رجب 948 هـ	الخميس	27 أكتوبر1541	مواصلة الإنسحاب حتى وادي الحراش، الفائض
7 رجب 948 هـ	الجمعة	28 أكتوبر1541	عبور وادي الحراش، التراجع حتى وادي حميز الذي كان فائضا بالمياه.
8 رجب 948 هـ	السبت	29 أكتوبر1541	عبور الحميز، التراجع حتى كاب ماتيفو أين يوجد جزء من الأسطول المختفي.
9 رجب 948 هـ	الأحد	30 أكتوبر1541	راحة- عقد مجلس حربي- إصلاح السفن
10 رجب 948 هـ	الاثنين	31 أكتوبر1541	راحة- بداية نقل الجنود
11 رجب 948 هـ	الثلاثاء	1 نوفمبر1541	صعود الإمبراطور
12 رجب 948 هـ	الأربعاء	2 نوفمبر1541	ارتفاع مستوى البحر: السفن الحربية الضخمة تنجد و تساعد سفن النقل لعبور الخليج.
13 رجب 948 هـ	الخميس	3 نوفمبر1541	توجه الإمبراطور إلى بجاية
14 رجب 948 هـ	الجمعة	4 نوفمبر1541	الوصول إلى بجاية صباحا

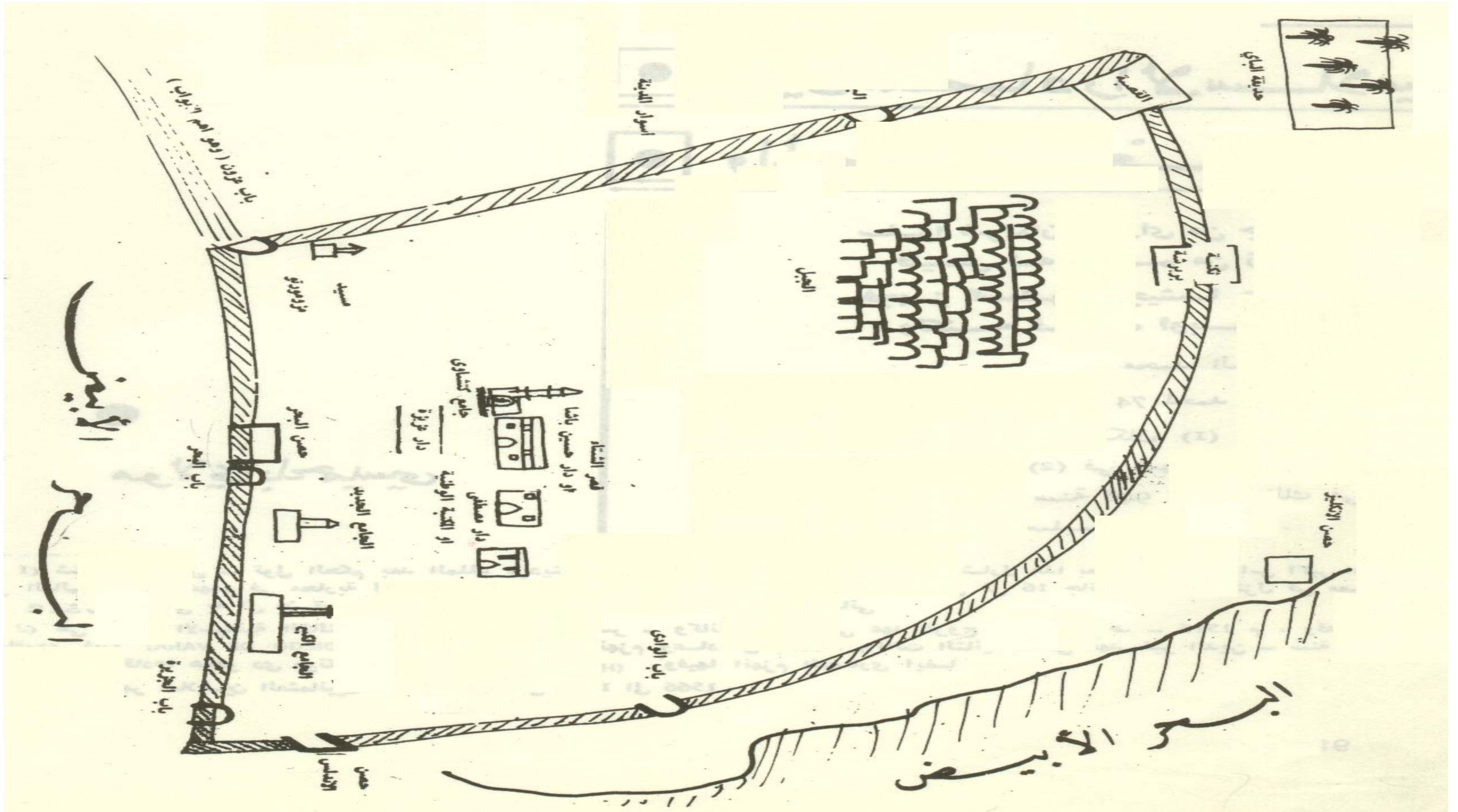
NECOLAS DURAND DE VILLEGAIGNON, RELATION DE L EXPEDITION DE CHARLES QUINT CONTRE ALGER , PARIS , 1874

الملحق رقم: 06



التحالف الأوربي ضد الجزائر سنة 1541

الملحق رقم: 07

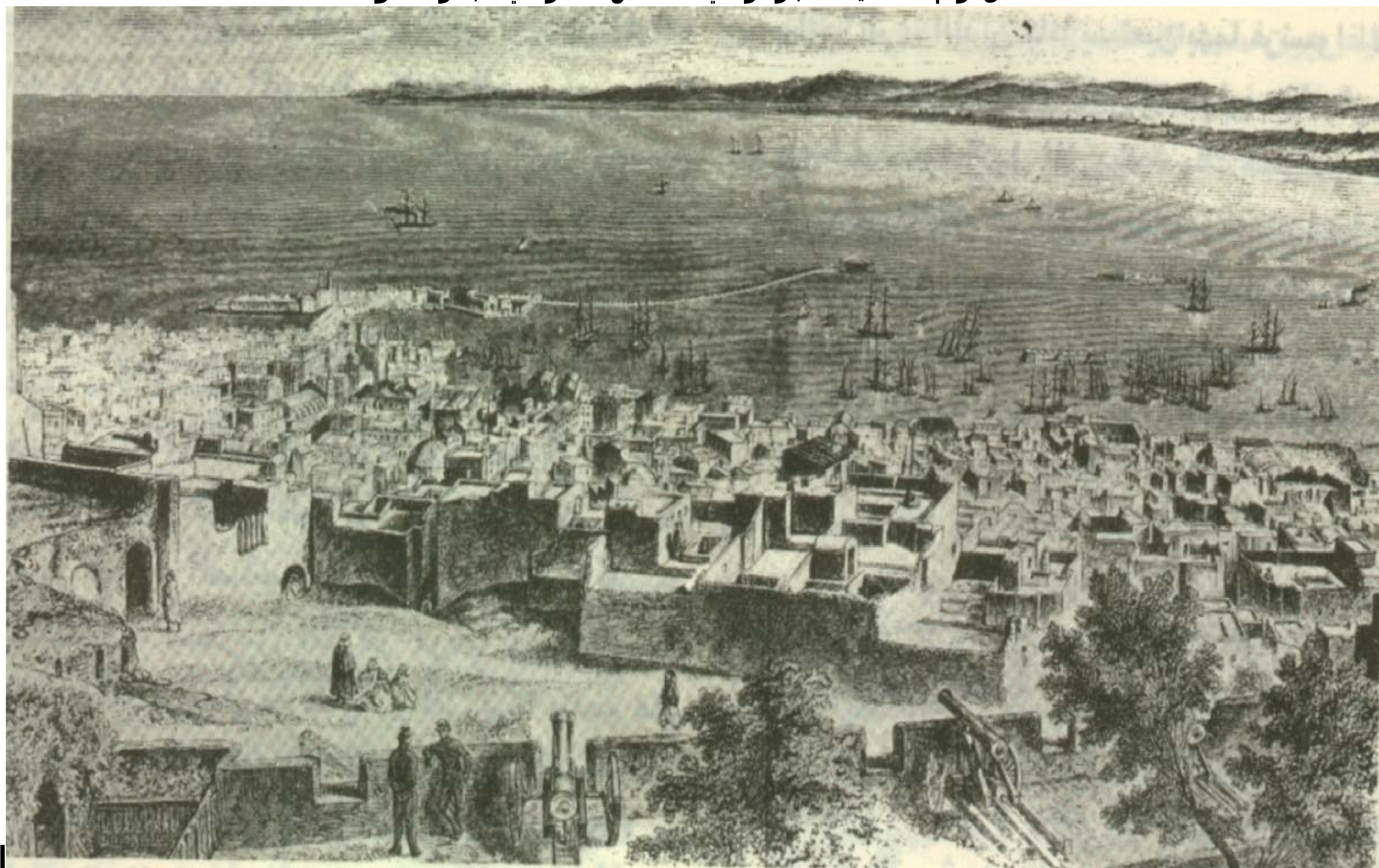


الملحق رقم: 08



تفصيل هجوم التحالف الأوربي على مدينة الجزائر 1541 وانكساره برا وبحرا أمامها .

الملحق رقم 09مدينة الجزائر في السادس عشر في البحر المتوسط.



القر ن

الملحق رقم:10

الأخـوان عروج و خير الدين





الأخـوان عروج و خير الدين

الملحق رقم:11

السلطان سليمان القانوني و الإمبراطور شارلكان.



سليمان القانوني.



شارلكان.

الملحق رقم:12 معركة بريفيزا 1538.



ببليوغرافيا البحث

المراجع باللغة العربية .

ا- المخطوطات :

1- مجهول ، «المحكمة» ، مخطوط ، بالمكتبة الوطنية الجزائرية ، رقم ، 1624.

2- محمد بن عبد الرحمان التلمساني الجدري ، « الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة» ، مخطوط ، بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم، 1626.

ب- الكتب المطبوعة :

1- إبن أبي دينار، المؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس، الطبعة الثالثة، دار المسيرة، بيروت، 1993.

2- أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الجزء الثاني، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977.

3- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا (1492- 1792) ، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.

4- أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، الطبعة الثانية، دار الشروق، القاهرة، 1993.

5- أندري كلو، سليمان القانوني، ترجمة البشير بن سلامة، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، 1991.

6- جلال يحي، تاريخ المغرب الكبير، الجزء الثالث، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

7- جون ب، وولف، الجزائر وأوروبا (1500- 1830) ، ترجمة أبو القاسم سعد ا ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 1986 .

8- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، الجزء الثالث، ترجمة محمد مزالي و البشير بن سلامة، الطبعة الثانية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983.

9- عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، من عصر النهضة

إلى مؤتمر فيينا ، دار النهضة العربية ، بيروت، 1973.
10- عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الطباعة الشعبية للجيش ، الجزائر، 1972.
11- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العـام، الجـزء الثالـث، ديـوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1995.
12- عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية ، دار الفكر العربي، القـاهرة، د.ت.
13- عزيز سامح إلتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمـة محمـود علـي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989.
14- علي أجقو، محاضرات في تاريخ ومؤسسات الدولة الجزائريـة، (1514- 1837)، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، باتنيت Bat Net للمعلوماتية والخدمات المكتبية، الجزائر، 1999.
15- علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض و أسباب السقوط، الطبعـة الثانية ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ، 2004.
16- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، منذ البداية ولغاية 1962، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997.
17- عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربـي (1516- 1922) ، دار المعرفـة الجامعية، القاهرة، 1996 .
18- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، الجزء الثالث، ترجمة نبية أمين، منيـر البعلبكي، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت، 1961.
19- كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائـر(1510- 1541)، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.
20- مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الـدين عبـد القـادر،

المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934 .
21- محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

22- محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربـي (1514- 1914)، مكتبـة الأنجلـو المصرية، القاهرة، د.ت.
23- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الإحتلال الفرنسي، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1969.
24- محمد عبد ا عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الطبعـة الرابعـة، مطبعة المدني، القاهرة 1987.
25- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقي، الطبعة التاسعة، دار النقائس ، بيروت، 2003.
26- مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالميـة قبـل 1830، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر، 1985.
27- هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية ، ترجمة زينب عصمت راشد ، عبد الرحمان مصطفى، أحمد عزت عبد الكريم، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر، 1970.
28- يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، الجـزء الثـاني، ديـوان المطبوعـات الجامعية، الجزائر، 1999.
29- يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1500- 1830) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985.
30- يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
31- يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة عدنان محمـود سـلمان، الطبعـة

الأولى، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988.

ج- الرسائل الجامعية :

1- محمد سي يوسف، قليج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية ، رسالة ماجـستير ، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1988.

2- نعيمة بو حمشوش، مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خـلال القـرن السادس عشر، رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعيـة 1998-1999 .

د- الدوريات :

1- خليل الساحلي، وثائق عن المغرب العثماني أثناء حرب مالطة سنة 1565، المجلـة التاريخية المغربية، العدد 17- 18، جانفي 1978.

2- عبد الجليل التميمي، الخلفية الدينية للصراع الإسـباني- العثمـاني علـى الإيـالات المغربية، في القرن السادس عشر، المجلة التاريخية المغربية، العـدد 10-11 ، جـانفي 1978

3- عبد الجليل التميمي، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر، إلى السلطان سـليم الأول سنة 1519، المجلة التاريخية المغربية، العدد06. جويلية.1976.

4- عبد الجليل التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القـانوني سـنة 1541، المجلة التاريخية المغربية، العدد 03، جانفي 1975.

5- عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية- المغربية في القـرن 16 م، المجلة التاريخية المغربية، العدد، 23- 24، نوفمبر1981.

6- عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية و قضية الموريسكيين،المجلة التاريخية المغربية، العدد 23 ، 24 ، نوفمبر 1981 .

7- ليلى الصباغ ، ثورة مسلمي غرناطة عام 976 هـ - أواخرعـام 1568 م والدولـة

العثمانية، (الأصالة)، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصـلي والـشؤون الدينيـة، الجزائر، العدد27 ، سبتمبر- أكتوبر، 1975 .

8- ليلى الصباغ، الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث ، المجلـة التاريخية المغربية، العدد 07-08، جانفي1977.
9- مولاي بلحميسي، غارة شارلكان على مدينة الجزائر 1541م 948هـ بين المـصادر الإسلامية والمصادر الغربية، (الأصالة)، العدد 08، الجزائر، ماي – جوان 1972.
10- هلايلي حنفي، الأندلسيون في فكر أحمد المقري، مجلة جامعة الأمير عبـد القـادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، العدد 16، جوان 2004 .
11- يحي بوعزيز، المراحل والأدوار التاريخيـة لدولـة بنـي عبـد الـواد الزيانيـة (1236- 1554)، (الأصالة) ، العدد26، جويلية – أوت 1975.

<u>المراجع باللغة الفرنسية :</u>

1- ALBERT PRIEUR, LES BARBAROUSSES CORSAIRES ET ROIS D'ALGER , EDITION ARC-CIEL , PARIS , S. D.
2- ALFRED MOREL-FATIO, HISTOGRAPHIE DE CHARLES-QUINT, PARIS , 1913.
3- ANDRE BERTIER, L'ALGERIE ET SON PASSE, IMPRIMERIE FLOCH, PARIS, 1951.
4- C. BRANDI, CHARLES-QUINT ET SON TEMPS(1500-1558) PAYOT , PARIS , 1951 .
5- CH. FARINE, DEUX PIRATES AU XVI SIECLE, PAUL DUCROCQ LIBRAIRIE – EDITEUR , PARIS , 1869 .
6- DIEGO DE HAEDO, HISTOIRE DES ROIS D'ALGER,

TRADUIT DE L'ESPAGNOLE PAR DE GRRAMONT H. D, EDITION GRAND-ALGER-LIVRE, ALGER , 2004 .

7- E.PELLISSIER, MEMOIRES HISTORIQUES ETGEOGRAPHIQUES SUR L'ALGERIE, IMPRIMERIE ROYALE, PARIS , 1844 .
8- EDWARD CAT, PETIT HISTOIRE DE L ALGERIE, TOME 1, ADOLPHE JOURDAN LIBRAIRIE EDITEUR , ALGER , 1888 .
9- ERNEST MERCIER, HISTOIRE DE L'AFRIQUE SEPTENTRIONALE, TOME 03, ERNEST LEROUX EDITEUR, PARIS, 1891.
10- FARNAND BRAUDEL, LA MEDITERRANEE ET LE MONDE MEDITERRANEEN A L' EPOQUE DE PHILIPPE 2, 2 eme EDITION , LIBRAIRIE ARMOND COLIN, PARIS, 1966 .
11- HENRI D.DE GRAMMONT, HISTOIRE D'ALGER SOUS LA DOMINATION TURQUE (1515- 1830), ERNEST LERROUX EDITEUR , PARIS, 1887.
12- HENRI GARROT , HISTOIRE GENERAL DE L' ALGERIE LIVRE XI , PERIODE TUQUE , IMPREMERIE P , VRESCENZO , ALGER , 1910 .
13- JEAN BABELON, CHARLES-QUINT, EPOQUES ET VISAGE (1500- 1558) , PARIS , 1947 .
14- JEAN MONLAU, LES ETATS BARBARESQUES , P. U. F., PARIS, 1951.
15- JOSEPH PEREZ, L' ESPAGNE DU XVI 2 SIECLE, LIBRAIRE

ARMOND COLIN , PARIS , 1973.

16- LEON GALIBERT , L' ALGRIE ENCIENNE ET MODERNE PARIS 1844 .
17- LEON L AFRICAINE, DISCRIPTION DE L' AFRIQUE, TRADUITE DE L'ETALIEN PAR A. EPAULARD LEBRAIRIE D AMERIQUE ET D'ORIENT , PARIS , 1956 .
18- MOULAY BELHAMISSI, HISTOIRE DE LA MARINE ALGERIENNE (1516-1830),E.N.A.L.,ALGER, 1983.
19- MOULAY BELHAMISSI, HISTOIRE DE MOSTAGANEM, CENTRE NATIONAL D ETUDES HISTORIQUES , ALGER , 1976 .
20- MOULOUD GAID, L' ALGERIE SOUS LES TURES, 2 eme EDITION, EDITION MIMOUNI, ALGER , 1991
21- NICOLAS DURAND DE VILLEGAIGNON, RELATION DE L'EXPEDITION DE CHARLE-QUINT CONTRE ALGER.PUBLIEES AVEC, AVANT PROPOS, NOTICE BIOGRAPHIQUE NOTES ET APPENDICE PAR .H. DE GRAMMONT, PARIS, 1874.
22- PAUL AUPHAN, HISTOIRE DE LA MEDITERRANEE, LES EDITIONS DE LA TABLE RONDE, PARIS, 1962 .
23- PAUL RUFF, LA DOMINATION ESPAGNOLE A ORON SOUS LE GOUVERNEMENT DU COMTE D ALCAUDETE (1534-1558), PARIS, 1900.
24- YVES LACOSTE, ET AUTRES, L 'ALGERIE PASSE ET

PRESENT , EDITION SOCIALE , PARIS , 1960 .

REVUE AFRICAINE:

1- BERBRUGGER .A. NEGOCIATIONS ENTRE HASSAN-AGA ET LE COMTE D'ALCAUDETE (1541-1542) , R .A .09, ANNEE 1865.

2- ELIE DE LA PRIMAUDAIE, DOCUMENTS INEDITS SUR L'HISTOIRE DE L'OCUPATION ESPAGNOLE EN AFRIQUE (1506- 1574) , R . A . TOME 19 , ANNEE 1875.

3- ELIE DE LA PRIMAUDAIE, DOCUMENTS INEDITS SUR L'HISTOIRE DE LOCUPATION ESPAGNOLE EN AFRIQUE (1506- 1574) , R . A. TOME 21 , ANNEE 1877 .

4- FERNAND BRAUDEL, LES ESPAGNOLE ET L AFRIQUE DU NORD DE 1492 A 1577 , R . A . TOME 69 , ANNEE 1928 .

5- RAVENET.E. UN EPESODE DE L'EXPEDITION DE 1541 CONTRE ALGER , R. A. TOME 80, ANNEE 1939.

6- WATBLED ET MONNEREAU, NEGOCIATIONS ENTRE CHARLES-QUINT ET KHEIR-EDOIN(1538- 1540) .R . A . TOME 15, ANNEE 1871.

الفهارس

- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن و البلدان
- فهرس المحتويات

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن و البلدان

155،	بحر الأدرياتيك 24 بحر إيجا 13
البرتغال 15 ، 27 ، 38	135،133،132، 136، 144

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	الصفحة
الفصل الأول	
الأوضاع الدولية بمنطقة البحر الأبيض المتوسط خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، و ظهور الدولة الجزائرية الأولى.	
المبحث الأول: الدولة العثمانية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر.	
المبحث الثاني: إسبانيا و أطماعها التوسعية.	
المبحث الثالث: الوضع السياسي في منطقة المغرب الإسلامي و ظهور الدولة الجزائرية الأولى	